معراج

عبدالله شروح

معراج

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف متفرع من شارع شمبليون – عمارة ج - وسط البلد
تلفون: 20225743534+
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2021/19636

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-797-377-9

بالتعاون مع بورصة الكتب للنشر والتوزيع
25 ش شريف - القاهرة

الطبعة الأولى

2021

عبدالله شروح

معراج

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب لا يعبّر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها.

"أمّي، لماذا الله اليوم ممزّق هكذا؟!".

كنت جالسًا كعادتي على فراشي المعرّض للشّمس. كان الوقت صباحًا وكنت طفلًا دون الخامسة، وكانت أمّي جالسةً على كرسيٍّ خشبيٍّ في صدر الحوش، تحيك نسيجًا ما.

أجفلها سؤالي فوخزت إصبعها. حدجتني بنظرةٍ مزيجٍ من الاستنكار والدّهشة، ثمّ، وهي تعالج إصبعها المنكوب، سألتني بقلقٍ: ماذا قلت؟

انتابني انقباض الطّفل إذ يشعر بنفسه على شفير عقوبة. أعدت عليها السؤال بنبرةٍ نصف مخذولة، مشيرًا إلى مزق السّحاب المبعثرة.

لم تعنّفني كما أوحى ردّ فعلها الأوّل، ولم تعطِ إجابة فوريّة وهادئة كما كنت أرجو، وإنّما انفجرت ضاحكة!

وأمّي ليست من ذلك النّوع الصّاخب من النّساء، بل على العكس، رزينة لحدٍّ يكاد يكون مَرَضيًّا. فلو أنّني أقول إنّها لم تكن تضحك أبدًا، لن أكون مبالغًا. لقد كان يحدث أن تأتي بعض النّسوة لزيارتنا وفي حضور عمّتي صفيّة بنكاتها الكفيلة بإضحاك الصّخر، وكنّ يتكوّمن من الضّحك جميعًا باستثناء أمّي، تبقى

جامدة، وإن حدث وتفاعلت فتبسُّمًا. ولطالما كنت، أنا الطّفل الصّغير آنذاك، أتعجّب من برودها المعجز ورزانتها اللّا معقولة.

كيف استطاع سؤالي إذن أن ينتزع منها هذه الضّحكة المدوية؟!

كان التّفسير الوحيد أنّه سؤال أبله، مثير للسخرية. ولكنّه بالنّسبة لي سؤال قدسيّ تلتف حوله كلّ ذرّة من كياني. شعرت بداخلي بأشياء تتكسّر، وتفصّد وجهي خجلًا. لم أعرف كيف أتجاوز الموقف فأطلقت بدوري ضحكة بلهاء حزينة.

"أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم"، أخذت تردّد ماسحةً عن عينيها ندى ضحكتها، قبل أن تعود فتخبرني بأنّ تلك المزق ليست الله وإنّما إحدى مخلوقاته.

"ولكنّكم أخبرتموني. أنت وأبي وعمّتي، كلّكم أخبرتموني"، احتججت مختلجًا.

زرّت عينيها كأنّما لتستبطنني. نحّت عدّة الحياكة وقامت عن كرسيّها. اقتربت منّي وأخذت تشرح.

أخبرتني أنّ الله فوق كلّ شيء، أنّه لا يُرى، وأنّ كلّ ما بوسع المرء أن يراه هو بعض مخلوقاته الكثيرة الّتي لا تُحصى.

"ولكن أين؟! أين فوق كلّ شيء؟! ولماذا لا نراه؟!".

استأنفت مشيرةً بإصبعها الموخوز:

"انظر يا إبراهيم، هذه المخلوقات البيضاء الكثيرة هي سُحُب، وتلك المساحة الواسعة الزرقاء الّتي تعلوها هي السّماء. والله فوق كلّ ذلك. الله في أعالٍ بعيدة، جالس على عرشه حيث يرانا ولا نراه".

"عرشه؟!".

"نعم، عرشه.. كرسيّه".

"ماذا؟! كرسيّ؟!"، وأشرت إلى الكرسيّ خاصّتها: "مثل هذا؟!".

ضاقت بأسئلتي. صارت نبرتها محتدمة:

"لا، ليس مثل هذا. لا أحد يعرف كيف هو ذلك الكرسي. ليس بوسع أحد أن يعرف".

ولتكبح سؤالي التّالي ناورت:

"حسنًا، لِمَ لا تذهب الآن لتلعب مع أصدقائك وتترك أمّك تنهي عملها؟!".

ولتصرفني عن الإمعان في دوّامتي، كررت، عائدةً إلى انشغالها، تهديدها المهترئ بأنّني إذا ما فعلتها اللّيلة أيضًا وتبوّلت على فراشي فإنّها ستخبر أبي. سيضربني بالتّأكيد ويجعلني أنام على الأرض.

لا أظنّه مخجلًا أن أبوح الآن بأنّني ظللت أتبوّل على فراشي كلّ ليلة تقريبًا حتّى حدود الخامسة من عمري. ليس لخلل فسيولوجيّ وإنّما لأنّ حمّام منزلنا موحش والطّريق إليه دامسة، وكانت مخيّلتي _كما يُتوقّع من طفل_ تُراكم في تلك الطّريق ما لا يطاق من مخلوقات مرعبة. ولأنّني أثابر على شرب الماء طوال اليوم كانت النتيجة أن أنام دومًا بمثانة محتقنة، وبالكاد أغمض عينيّ حتّى ألج ذلك المشهد العظيم:

أكون على قمّةٍ ما ضمن صفّ لا نهائيّ من أقراني، نخوض سباقًا بدوت فيه الفائز الأبديّ. نقف في البداية في صمت متأهّب، أعيننا محملقة في المدى، ثمّ في لحظةٍ نأتي حركتنا البديعة: ننزل سراويلنا حاثّين خراطيمنا الصّغيرة على التدفّق. كان ثمّة معياران للفوز: المدى والغزارة، وظللت أحقّق في كليهما تفوّقًا مذهلًا. لكنّني للأسف لم أكن أهنأ بفوزي إذ سرعان ما أصحو، قبل حتّى أن أفرغ، لأكتشف أن جائزتي ستكون تقريعًا مخزيًا لن تبخل به أمّي ما أن يطلّ الصّباح.

ولم تكلّ أمّي تهدّدني كلّ يوم بأنّها ستخبر أبي ليعاقبني، وقد نال التكرار من هيبة التّهديد فلم يتمكّن ذلك الصّباح من صرف انتباهي. ظللت مُسمّرًا على فراشي فوق السور الواطئ، مختنقًا بصدمتي هذه المهولة تجاه الله.

ولعلّك ستجد صعوبة في تصديق أنّ طفلًا لم يتجاوز الخامسة أمكنه حمل أمرٍ كهذا بهذا القدر من الجديّة، والحقيقة أنّني لا أفهم من أين يأتي اعتقاد كثيرين بأنّ الأطفال منذورون فقط للّعب، أنّهم لا يكترثون للمسائل الكبيرة وأنّ الحيرة لو حدث وساورتهم تجاهها فإنّها لا تحفر في وجدانهم لأعماقٍ خطيرة! لا أعرف أيضًا لماذا في الغالب لا يُنتبَه إلى أنّ للطّفل كبرياءه وأنّ من الضّروري التّعامل مع تلك الكبرياء برهافة.

عمومًا، أظنّ من المناسب أن أطلعك على أمرٍ من شأنه تبديد استغرابك. إنّ أوّل كلمة يتلقّنها الطّفل هناك في محيطي الأُسري، بعد كلمتَي "أبي" و "أمّي"، هي كلمة "الله". عنّي، لا أعرف من هو أوّل من لقّنني، فذلك يحدث قبل ميلاد الذّاكرة، قبل أن يُعلِّم الوجودُ المرء كيف يضفي أهميّة على الأشياء ويرتّبها في سُلّم من الأولويّات.

والحقيقة أن لا أهميّة لتحديد من هو الّذي لقّنني، فسواءً كان أبي أو أمّي أو عمّتي، لا فرق. المهمّ أنّ الأمر برمّته يبدأ من هذه النّقطة، وربّما لم أكن لأدرك هذه الآليّة لو لم تتسنّ لي مشاهدتها لاحقًا وهي تُطبّق على شقيقيّ الحسن والحسين.

أيّام قليلة إذن ويأخذ الطّفل في الترديد وراء الملقِّن: "يا الله"، رافعًا سبابته نحو السّماء، محاكيًا حركات المعلّم. وأيّ حفاوة

يتلقّاها الطّفل مع كلّ تكرار ناجح! ثمّ وبمجرّد أن يتأكّد المُلقِّن من تثبيت هذه النّقطة، ينهمر على الطّفل بسيل من الأسئلة والإجابات وبالحفاوة نفسها: من خلقك؟ "الله". من يعطيك الطّعام؟ "الله". من تحبّ؟ "الله". أين الله؟ "في السّماء".

وشيئًا فشيئًا لا يعود الاحتفاء والتشجيع هو الجوّ المهيمن وإنّما أيضًا يأتي الزّجر. فإذا ما حدث مثلًا وأقبل الطّفل على الأكل دون أن يسمّي الله، فإنّ تقريعًا متفاوت الشدّة هو ما سيلقاه، ينسحب ذلك على كلّ الشؤون ذات الصلة. وتكون هذه الآليّة أكثر احتدامًا حين تُطبّق على أكثر من طفلٍ في الأسرة في الآن نفسه، كما حصل في حالة شقيقيّ التوأمين. وجدا نفسيهما منذ البداية في تنافسٍ محمومٍ أيّهما يحرز أكبر قدر من النّقاط في تقدّمه المقدّس صوب الله، الله الّذي يمضي المُلقِّن في نحته بوجدان الطّفل حسب رؤيته هو ومفهومه.

وهكذا فإنّ أحدنا لا يلبث، قبل أن يكون تعلّم أيّ شيء آخر، أن يعتقد بتلك القوّة الكليّة والمُطلقة، الأكبر من الأب والأمّ والأسرة ومن كلّ شيء، الماكثة في السّماء والّتي يجب أن تحضر في كلّ تفاصيلنا حد أنّ الإقدام على ارتشاف قطرة ماء دون استحضارها هو فعل مؤسف وشنيع.

ولعلّ هذه الآليّة ستبدو لك لأوّل وهلة منسجمة تمامًا، بسيطة وواضحة وعاديّة. والحقّ أنّها كانت لتكون كذلك لو أنّ المرء لم يكن مجبولًا على تمحيص الأشياء فيأخذها على عمومها. لكنّك لو أمعنت ستجد أنّ المُلقِّن يظلّ، رغم سعيه الحثيث، على السّطح، لا يغوص لما هو أبعد. يكتفي بثبيت أنّ هناك قوّة هائلة معنيّة بوجودنا البشريّ وكلّ وجود آخر، أنّنا يجب أن نبجّلها وأنّ تلك القوّة ماكثة في السّماء، ثمّ لا تفاصيل أخرى.

وهنا عليّ أن أخبرك بأنّ النّجوم والقمر كانت بالنّسبة لي اكتشافات متأخرة. لم يمكنني رؤية السّماء الليليّة إلّا في مرحلة تالية. فهناك، في الريف حيث قضيت طفولتي، الكلّ يأوي إلى منزله مع الغروب. الأطفال أوّلًا، قبل المواشي والدّجاج. هو سلوك طبيعيّ لا شكّ، لكن إضافة إلى ذلك كان الأهالي يعتقدون أنّ الشياطين تغدو أكثر انفلاتًا ساعة الغروب، أنّها تمضي في تلك السّاعة تجوب الأرجاء باحثةً عن آدميين لتسكن أجسادهم، وأنّها تفضّل في ذلك الأطفال على الكبار. وبذلك ظلّت السّماء مقصورة في ذهني لزمنٍ طويلٍ على وجهها النّهاريّ.

والحقيقة أنّني لا أتذكّر في أيّ نهار بالضّبط التقيت الإله خاصّتي أوّل مرّة، وإن ظلّ بمقدوري تخمين سبب اختياري له دون الشّمس. فمن ناحية كنت شغوفًا باللّون الأبيض. ليس ثمّة

سرّ وراء تفضيلي هذا اللّون، فقد لقّنوني ذلك أيضًا: أنّه لون الطّهر والنّقاء. لكنّ ما أظنّه السّبب الحاسم لتفضيلي السّحاب على الشّمس هو الميل الطبيعيّ للطّفل نحو القريب والمتغيّر. وتدرك أنّ السّحاب تحقّق ذلك أكثر من الشّمس. لا شكّ إذن أنّ الطّفل الّذي كنته، وقد صار يكنّ للإله بفعل تلك التلقينات ما يكفي من التبجيل، نظر ذات صباح إلى السّماء فرأى السّحاب واعتنقها باطمئنانٍ وبراءةٍ تامّين. لا أتذكّر الموقف بتفاصيله لكنّني أعرف أنّه حدث هكذا.

وواظبت من ثمّ على تملّي إلهي الأبيض والجميل بشكل شبه يوميّ. فبمجرّد انتهاء فاتحتنا الصباحيّة المعتادة أنا وأمّي، بأن تسكب في أذنيّ حنقها من تعويمي لفراشي على ذلك النّحو، أبقى منكّسًا بمكاني حتّى عودتها من وضع الفراش على سور الحوش، تعطيني شيئًا آكله ثمّ أخرج بعدها للتنعّم بالجلوس على فراشي المنكوب، مستمتعًا بالدفء الصّباحيّ الّذي لم يكن يساورني أدنى شكّ في أنّ إلهي هو من يرسله لي، إلهي الجميل الأبيض. هو من يعطينا كلّ شيء وليس فقط الدفء.

وكان نوع عاطفتي تجاه إلهي ذاك يعتمد على تدرّجاته اللونيّة وحجمه. أذوب حبًّا حين يطالعني بلونه النّاصع وفي أجزاء متوسّطة الحجم، متباعدة وفوضويّة. بطريقةٍ ما، ظللت مؤمنًا

بوحدانيّته مهما لاح مُجزَّا. وكانت نصاعته تلك تبديه نشيطًا ومرحًا، إذ لا يكفّ حينها عن تغيير شكله مانحًا إيّاي متعة لا تضاهى وأنا أجهد في مقاربته لأشياء ثابتة مألوفة، فتارةً يكون أقرب لماعز، وأخرى لشجرة ما، وثالثة لصخرة، ...، وهكذا.

وما أقسى تلك الأيّام حين أنظر إليه فأجده كالح اللّون وقد غطّى الآفاق وابتلعها. كان وجوده هذا، الكُليّ المُتّحد السّاكن والعابس، يملؤني بؤسًا. وكنت أفسّر ذلك بأنّه أصبح حزينًا، ولَكَم كان يؤلمني! يمتلئ كياني شفقةً وأتمنّى لو بوسعي التّخفيف عن إلهي المسكين! ويبلغ بؤسي أقصاه حين تمطر، فها هو إلهي وصل به الحزن أن يذرف دموعًا غزيرة!

وما أستغربه حقًّا كيف أنّ أحدًا لم يلحظ شيئًا من كلّ ذلك الّذي كنت أحسّه وأعانيه، أمّا أنا فلم يساورني أدنى شكّ في أنّ الجميع يشترك معي بذات التصوّرات، فما الدّاعي إذن لأثرثر عن أشياء يعرفها الجميع ويحسّها مثلي؟!

ثمّة أيضًا تلك الأصباح حين أجد السّماء مجلوّة، ناصعة الزُرقة لا تحوي نقطة بيضاء واحدة. حينها لم أكن أتمكّن من تفسير هذا الغياب لإلهي الحبيب، وكان ذلك يمضّني. غير أنّ انقباضي يعود فيتبدد بعد لحظات وأنا أراه يطلّ من هذا الأفق أو ذاك، وإن بحجمٍ صغيرٍ ولونٍ واهٍ.

وحتّى إن بقي مصرًّا على احتجابه فقد كان اغتمامي يزول مع مجيء أصدقائي وابتداء صخبنا اليوميّ. لا أظنّني في حاجة لأخبرك بأنّ طفولتي لم تقتصر على شؤوني مع الإله وأنّني كنت، كأيّ طفل، أقضي في اللّعب أغلب أوقاتي. كنت أنسى كلّ شيء ما أن أبدأ في اللّعب، أبي وأمّي وعمّتي وبالتّأكيد الله. كما أنّ علاقتي تلك بإلهي لم تجعل منّي قديسًا بأيّة حال. بقيت أخوض مع أصدقائي ألعابنا بإصرار عجيب على الفوز، ولا أتوانى من أجل ذلك في الإقدام على الغشّ أو العنف.

وكانت خاتمة صلاتي الصّباحيّة تلك أن يأتي يزيد وعلاء وعائشة يدعونني للّعب. إنّهم أبناء أقرب جيراننا. بين أهلي وأهاليهم روابط مميّزة، وكانوا مثلي محظورًا عليهم الابتعاد قيد شبرٍ عن الميدان المُقتضَب الّذي يتوسّط منازلنا. ذلك الميدان هو كلّ حصّتنا من جغرافيّة العالم. لم يكن أهالينا يتغاضون عن تعدّينا حدوده إلّا بتلك الأوقات النّادرة إثر المطر أو في الأعياد.

وأبدًا لم يحدث أن تمنّعت يومًا أو توانيت في تلبية دعوة أصدقائي. لكنّني ذلك الصّباح، وبسببٍ من صدمتي تلك، لم أكن في مزاجٍ مواتٍ. أخبرتهم، ولم أزل ممتطيًا فراشي، بأن يذهبوا دوني فانصرفوا واجمين. انتظرت بعدها لدقائق ثمّ نزلت من معبدي

ورحت أتجوّل وحيدًا، أقلّب الأمر في رأسي مطأطئًا، متحرّجًا من النّظر نحو إلهي الّذي صار فجأةً موضع شكّ.

ولم تكفّ ضحكة أمّي تنهش أحشائي، تمزّقني وتملؤني خجلًا وسخطًا. لقد ضعضعت عقيدتي وملأت قلبي بالضّباب. ربّما لو استقبلت الأمر بجديّتها المعهودة لتقبّلتُ تعديلاتها بطيب خاطر، أمّا وقد صفعتني بتلك السخرية السّاحقة فسأتمسك بمعتقدي بكلّ قواي. سأظلّ أعبد إلهي هذا الأبيض وليكن ما يكون! لا أهميّة الآن لأيّة حقيقة. كبريائي على المحك وعليّ أن أَثبُت على وضعيّتي دون أن آبه لشيء. لكنّني أحتاج إلى إسناد. لن أطلبه من أبي. ستكون له ردّة الفعل نفسها وقد لا يكتفي بالسخرية فيتعدّى لضربي.

حسنًا، لم تعد لي سوى عمّتي صفيّة، وحدها تدلّلني وتوافقني في كلّ شيء.

كانت بتلك الأثناء في الجبل ترعى مواشيها ولن تعود إلّا مع اقتراب المغرب. لا أدري بأيّ جبل بالتّحديد، فبلدتنا محاطة بالجبال من كلّ نواحيها. تحسّرت لأنّني لم أرافقها يومًا إلى هناك، لعرفتُ أين هي الآن فأمضي إليها دونما خشية لأيّ عقاب.

سألني أبي على الغداء ما بي فأجبت مرتبكًا بأن لا شيء. ولم يصرّ. ومنذ انتهاء الغداء إلى حين عادت عمّتي مرّ دهر من الانتظار

الممضّ، ودون أن تنتبه أمّي لأصداء ضحكتها تتواثب في دواخلي مثل خطىً شيطانيّة.

كنت في سطح المنزل حين وصلت عمّتي ضمن حشدٍ من رفيقاتها. طرت إليها، إلى حوش بيت الماشية، وارتميت في حضنها. كانت الغصّة التهمت حنجرتي. أدركتُ بأنّني سأنفجر باكيًا ما أن أشرع في الحديث فبقيت صامتًا.

لم تستشف من سلوكي هذا شيئًا رغم أنّه لم يكن من عادتي استقبالها بمثل هذه المبالغات. ظلّت مستغرقة في أحاديثها مع رفيقاتها، في ذلك المزيج الصّاخب من القهقهات والكلمات النابية.

كانت لعمّتي نظريّتها الخاصّة للحياة، نظريّة تقوم على بندٍ واحدٍ: ليس هنالك من مبرر للعيش سوى المرح. الضّحك طريقتها الوحيدة للوجود، للتنفّس. تمضي سحابة يومها تتدفّق نكاتًا كأنّما تغترفها من بحر. وكان من صميم عقيدتها أنّ النّكتة لا تكون جيّدة ما لم تكن بذيئة. حول هذه النّقطة دارت أغلب معاركها مع أبي. كان يرى سلوكها هذا معيبًا وينال من مكانة العائلة. ورغم كلّ السّطوة الّتي ظلّ يبديها حيال ذلك، والّتي هي جوهر شخصيّته وتطلّ بأقصى درجاتها ما أن يقف على أمرٍ لا يروقه، إلّا أنّه لم يملك في الأخير إلّا أن يقنع بأن تستثنيه من كلّ نكاتها، وأن تتحفّظ على الفاحش منها في البيت على الأقلّ.

كانوا يرونها مختلّة، وكنت أراها أكثرهم رجاحة. ولعها هذا بالنّكتة هو ما حجب عنها حالتي في ذلك الغروب، وهو ما فاقم سخطي إلى حدٍّ جعلني، حين قدّمت لي كوب الحليب الطّازج الّذي تمنحنيه كلّ مساء من ضرع إحدى المعزات، أقذف بالكوب إلى الجدار وأطفر عائدًا إلى المنزل.

وكانت تعرف كم من الصّعب إرضائي في حالٍ كهذه وكم أتعذّب إذا ما تجاهل أحدهم مشاعري، ولذلك فقد ظلّت صامتةً طوال تناولنا العشاء، وهذه معجزة بالطّبع. كان عشاءً ثقيلًا تجرّعته فقط بدافعٍ من الخوف من أبي وتحاشيًا لأسئلته. ومضيت أبتهل في سرّي مع كلّ لقمة أن لا تكون عمّتي حنقت من تصرّفي الأهوج وأن تبادر في التودّد إليّ ما أن نأوي إلى غرفتنا. ويا لسعادتي حين وجدت رجائي يتحقّق هذه المرّة!

كنت سبقتها إلى الغرفة، أشعلت السراج وقبعت جالسًا في زاوية فراشي، متحرّقًا. وما كادت تدلف حتّى أشرق محيّاها بابتسامتها العذبة تلك، الكفيلة بمداواة الرّوح. سوّت فراشها ثمّ اقتربت منّي، ضمّتني وسألتني، أنا أميرها الصّغير، عمّا يحزنني.

أجهشتُ فمضت تعبث بشعري بأناملها، تهدهدني وتسألني باهتمامٍ بالغٍ عن الأمر. أخبرتها بكامل القصّة، صابًّا حنقي على أمّي بلا هوادة.

لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّها ستقف في صفّي، ستُخَطِّئ أمّي كما حدث غير مرّةٍ في مواضيع شتّى. لكنّ ما حدث، ويا لدهشتي، هو العكس! حتّى أنّ ردّة فعلها لم تختلف عن تلك لأمّي. سفعتني بالضّحكة نفسها، رغم أنّه حتّى لو كان اعتناقي للسّحاب آلهةً نكتةً، فعلى الأقل ليست بالنّكتة البذيئة! على أنّ ضحكتها لم تقع في نفسي ذات الموقع الرّهيب. ربّما لأنّها تنسجم تمامًا وشخصيّتها، أو لأنّ سخطي كان بلغ أقصاه وما عاد بالإمكان مفاقمته.

أقرّت آراء أمّي بحذافيرها: فإلهي الأبيض ليس بإلهٍ، إنّه مجرّد مخلوق. الله فوق السّماء، ينظر إلينا من حيث لا يمكننا أن نراه، جالسًا على كرسيّه الطّافي بدوره فوق الماء!

الإضافة الأخيرة ألهبت خيالي لكنّ عمّتي لم تستطع أن تجيبني عن كيف سيتصرّف الله لو أنّ عرشه يغوص في الماء ويغرق. حتّى أنّها اختتمت بطريقة أمّي. هربت تسألني عن يومي وعن أصدقائي فاخترت الصّمت. قامت إلى فراشها ونامت، تاركةً إيّاي فريسةً للسّهاد.

الزّمن الّذي قضيته مُذ نامت حتّى ابتلعني النّوم أنا الآخر كان رحىً جحيميةً علِقتُ بين حجريها ولا منقذ. أن يحكم الآخرون ببطلان إلهك، إلهك الّذي تسببوا هم في اعتناقك إيّاه،

أن يفعلوا ذلك بهذه الخِفّة، أيّة قسوة! تمدّدت الحيرة في دواخلي وتكثّفت مثل ضباب أسود.

وحين نمت أخيرًا لم يزُرني ذلك الحلم. لم أخُض سباقي ذاك. كنت فعلتها عمدًا قبل أن أنام: تدفّقت في فراشي بكامل صحوي، بكامل سخطي وبدافعٍ من الانتقام!

كلّ ذلك الحنق تلاشى ما أن نمت. إنّ هذه القدرة على التّجاوز هي لا شكّ الميزة الأكبر لتلك المرحلة من العمر. تكون الروح منتعشة ودائمة الحركة ما يجعل من المستحيل على انفعالٍ ما أن يركد فيها حتّى يأسن ويفوح عطنًا يخنق الحياة. تكتفي الانفعالات بأن تضع أثرها في اللّا وعي وتمضي، مُخليةً الطّريق للوعي الغضّ ليستمرّ في مسيرته لتلمّس الوجود ووضعيات الأشياء.

لا يمكنني القول إنّني قضيت طفولة مرفّهة، وإن كان ثمّة من تفسير لذلك الحنين الّذي أخذ ينتابني لاحقًا نحو طفولتي فلن يكون فقط ما عشت بعدها من اضطرابات، وإنّما أيضًا، وأكثر من ذلك، لتلك الوفرة الّتي ظلّ الوجود يغدقها على حواسي طوال ذلك الزّمن، حين كانت الأشياء لا تزال محتفظةً بإبهامها السحريّ المحرّض للاكتشاف. وإنّني إذا ما شئت أن أصف مسيري في تلك المرحلة فلن أقول إنّني اجتزتها خطوةً خطوةً وإنّما دهشةً دهشةً.

لم يتعدّ الأثر الّذي بقي لصدمتي تلك بالسّحاب وخزًا خفيفًا ظللت أشعر به لأيّامٍ تاليةٍ كلّما نظرت بتلقائيةٍ إلى السّماء ورأيت سحابًا. وظلّ برنامجي اليوميّ محتفظًا بفقراته ذاتها، عدا

تلك المتعلّقة بصلاتي الصّباحيّة. عوضًا عنها أمضي أنا إلى الأصدقاء بدلًا من انتظار قدومهم كما كانت العادة جرت.

وإذا كنت أشَحْتُ عن السّحاب ولم يعد لها في وجداني ما يتعدّى قيمتها كمخلوقٍ جميلٍ، إلّا أنّني ظللت مسجونًا داخل فكرة الإله. لم يسعني سلخها عنّي أو حتّى تجاهلها. أمست جزءًا من تكويني، تمامًا مثل جلدي وأعضائي. فشلُ أمّي وعمّتي ذاك في إقناعي بتصوّرهما بعد أن نجحتا في سحق تصوّري، لم يلغِ نجاحهما الأصليّ_ مع أبي لا شك_ في غرس فكرة الإله في صميمي، وجوده واحتياجي الدّائم إليه، احتياجًا لا يقلّ سطوةً عن احتياجي إليهم.

وبقيت عاجزًا عن استيعاب كيف أنّ الله لا يتواجد في نطاق الحواس. لماذا لا يفعل؟! طالما ونحن نحبّه وهو يحبّنا، لماذا يتوارى عنّا؟! إنّ حواسي كلّها تتوق إليه، وربّما سيمكنني الاكتفاء بوجوده بمتناول حاسّة أو اثنتين، أمّا هذا الاحتجاب الكلّي الّذي يخبرونني عنه فلا، لا يسعني تصوّره أو تقبّله.

رنوت إلى السّماء، تمعّنت السّحاب وخاطبتها: سأعثر على إلهي أيّتها السّحاب، إلهي وإلهك. وكنت على يقين بأنّ الله سيُظهر لي نفسه بلحظةٍ ما، نعم سيفعل وليس عليّ سوى الانتظار والصّبر.

وانتظرت بثقةٍ إلى أن أثمر انتظاري أخيرًا. حدث ذلك في يومٍ مطيرٍ من أجمل أيّام حياتي. ولكن دعني قبل ذلك أخبرك عن جانبٍ مهمٍّ انطوت عليه صدمتي تلك بالسّحاب، فقد أعادت صياغة تعريفي للمطر. لم يعد هو دموع الله وما عاد هطوله يبعث في قلبي الحزن، وإنّما على العكس، الفرح. وانتبهت أنّ عمّتي تبقى حينها في المنزل، يحبسها الهطل عن الخروج للرّعي، وأنّ رفيقاتها يأتين أيضًا فيُشعلن فضاءنا بالضّحكات، وهو ما يفاقم سعادتي بلا نهاية.

وبالكاد يكفّ المطر حتّى أخرج لأرى أصدقائي بانتظاري فنبتدئ احتفاليّتنا: نشمّر ونخوض في السّواقي الطّارئة المكدّرة، نعفس بأقدامنا البرك الصّغيرة الّتي خلّفها المطر على الحقول والطرقات، نتراشق بقطعٍ صغيرةٍ من كُتَل البَرَد إن أمطرت بَرَدًا ونصغي بافتتانٍ لهدير النّهر يسافر إلينا من جوار البلدة وقد زادته السّواقي عنفوانًا، ثمّ في الأخير، بعد أن ينال منّا الإنهاك، نعود إلى منازلنا، متوجّسين ومتأهّبين لتلقّي التّوبيخ المعتاد من الأمّهات.

تتلقّفني عمّتي حينها وتغمزني، وهي تغافل أمّي، لأسبقها إلى غرفتنا، إلى أن تأتي تنضو عنّي ملابسي المشبعة بالماء والملطّخة بالوحل وتلبسني أخرى نظيفةً ودافئةً. تكون فرائصي مرتعدة فتقرّب منّي الموقد وترمي فيه بقطعة بخورٍ صغيرة لا يلبث فورانُها

يُصَعِّد دفئًا زكيّ الرّائحة يملؤني غبطة. تُجلسني بعدها على فراشي، تلفّني ببعض الأغطية وتذهب لتأتيني بحساءٍ ساخنٍ.

ما كان أحلى تلك الأوقات! أيّة غبطة قصوى كانت تمنحنيها تلك التفاصيل! تدخلني الحالة الشّعورية نفسها الّتي تتوقّعها الأديان من معتنقيها في أدائهم الطقوس، حين لا يعود الوجود الواقعيّ سوى نافذة تطلّ منها الرّوح على وجود آخر مطلق الكمال.

وكانت عادة السّماء أن تبقى إثر المطر ملبّدة، ترسل برذاذٍ خفيفٍ يحفظ للجوّ نداوته، لكنّني فوجئت ذلك اليوم، ما أن كفّت أصابع المطر عن قرع السقوف وسفع الحوائط وخرجت كعادتي، فوجئت بالأرض تتألّق تحت ضوءٍ ساطع. لم تكن قطرات المطر ترجّلت بعدُ عن صهوات ورق الشّجر أو عن الحشائش والصّخور، وأخذت تلك القطرات تتوهّج رجراجةً تحت الضّوء مبديةً الأرض مثل حقلٍ لا نهائيٍّ من الجواهر اللّامعة.

شهقت غبطةً. بدا لي كلّ ذلك غريبًا وقدسيًّا، شيئًا فائقًا لا ينتمي لهذا العالم، وكبّلني افتتان كبير فلم أنخرط في الصّخب المعهود. لا أعرف كم بقيت فاغر الفم مشدوهًا أتطلّع في ألق الأشياء مثل مسحور. لكنّ ذلك كلّه لم يكن إلا توطئة للمشهد

الّذي لاح تاليًا حين ارتفعت ببصري عن حقل الجواهر هذا إلى السّماء.

لم أرَ لحظتها قرص الشّمس وحسب، يتوهّج مثل ياقوتة تدلّت من أسطورة، وإنّما رأيت أيضًا، ويا لدهشتي، ما أخبروني لاحقًا بأنّه قوس قزح، منبثقًا من قمّتي جبلين متقابلين، متقوّسًا عميقًا في السّماء مثل بهاءٍ مستحيلٍ.

خلبني ذلك الطّوق الملوّن. التصقت فيه عيناي وقلبي وصلّيت لجماله المتألّق بخشوع. جاشت روحي بجلالٍ لا يُحتَمَل، وتحدّرت من عينيّ دموع. تلك اللّوحة الكونيّة الّتي امتدّت متألّقة أمام حواسي، بشقيها الأرضيّ والسماويّ، أظهرت لي الوجود مثل كنزٍ لا نهائيّ القيمة، وفير بلا حدّ، يستدرّ الدّمع تأثّرًا واحترامًا.

صلّيت طويلًا ولم يقطعني إلا اصطدام عائشة بي. كان يزيد ناداني مرارًا واستفزّه ذهولي فدفعها لتصطدم بي تعبيرًا عن حنقه. لم أثُر. التفتُّ نحوهم مبهورًا وأشرت بيدي صوب المعجزة، صوب إلهي. نظروا، لكنّ علاء وحده أبدى اهتمامًا. تملّكته الدّهشة أيضًا.

طرت إلى البيت. أمسكت بعمّتي من ذراعها وصرخت فيها، متهدّج الأنفاس، بأن تخرج معي. طلبتْ من رفيقاتها انتظارها لدقائق، إلى أن تعود فتكمل النّكتة الّتي قطعتها بدخولي المجنون،

ورافقتني. وبالكاد خطونا في الحوش خطوتين حتّى اجتذبت ثوبها مشيرًا بيدي الأخرى إلى إلهي البهيّ.

كان الجوّ بدأ يعود إلى تلبّده وغدا القوس أقلّ ائتلاقًا.

صحت محتشدًا: "انظري يا عمّتي، انظري إلى الله"، وفيما التفتت تحدّق في ملامحي باندهاش، تابعت: "عرفت أنّه سيأتي، أنّه سيستجيب دعائي ويأتي. مُذ أخبرتموني أنّه بعيد، أنّنا لن نراه، وأنا أطلب منه أن يحضر ويجعلني أراه".

انتشيت بانتصاري. وكما بميسورك أن تخمّن، لم يكن منها إلّا أن انفجرت ضاحكةً قبل أن تجلس فتخبرني بأنّ هذه الأعجوبة أيضًا ليست الله، وإنّما قوس قزح، يأتي مع قدوم الشّمس إثر المطر!

شعرت بالخيبة ولكن بدرجةٍ أقلّ. سبق وارتطمت بهذا الجدار. ما عاد مفاجئًا. وسواءً هذا القوس السحريّ هو الله أم لا، فالمهمّ أنّه لا يزال واضحًا ملء السّماء وملء كياني، مُطلًّا مثل شيءٍ لا يُصَدّق.

حدّقت إليه موهِّمًا، وعمّتي إلى جواري. ثمّ فجأة التمعت في ذهني فكرة سرعان ما استحالت رغبة حارقة ملحّة: ضرعت إلى عمّتي أن تأخذني إلى هناك، إلى قمّة الجبل. أريد أن أتسلّق القوس إلى قمّته وأترحلق إلى طرفه الآخر. ستكون معي في كلّ ذلك

وسنعود سويًّا. لكنّها عوض أن تأخذني إلى هناك، إلى حيث تذهب يوميًّا للرّعي، فرقعت ضحكة مدوية أخرى! أمسكت على بطنها تتلوّى، بمنخرين مختلجين، إلى أن انتهت لنوعٍ من الشّهيق، فيما بقيت أنا متصلّبًا، بقبضتين متوتّرتين وقلبٍ ضاجٍّ. وفقط بعد أن هدأت قليلًا أخبرتني أنّ ذلك غير ممكن.

لماذا؟!

لأنّ هذا القوس يتبدّد فجأة وقد يحدث ذلك فيما نحن على صهوته. سنهوي إذن، نتكسّر على الأرض ونموت. وانهمكت تضحك من جديد.

حرّرت يدي من قبضتها في احتدامٍ وانفتلت عائدًا إلى أصدقائي. لم أشترك معهم في اللّعب. بقيت أتميّز حنقًا حتّى بعد إدراكي بأنّ عمّتي على حقّ. صدمني القوس بتلاشيه وفكّرت لو أنّ ذلك حدث ونحن نعتليه لكنّا الآن ميّتَين يقينًا. مع ذلك لم يرمّم هذا الإدراك أيًّا من تصدّعاتي.

لماذا يجابهون أكثر تصوّراتي قدسيّة بضحكاتهم السّخيفة؟!

وحين عدت إلى المنزل وجدت عمّتي لا تزال تقصّ على رفيقاتها حديثي معها، مثيرةً عاصفة من الضّحك. صوّبت نحوها عينين غاضبتين فصمتت، ومضيت إلى غرفتنا مُهدَّمًا.

رغم ذلك نجحت تلك اللّيلة في تحقيق أمنيتي. فبعد أن فشلت كلّ محاولات عمّتي لتليني ونامت، وبعد أن تجرّعتُ حنقي إلى آخره ويئستُ، ذهبت وحدي إلى قمّة الجبل. تسلّقت قوس قزح إلى أقصاه وتزحلقت إلى طرفه الآخر. كرّرت ذلك مرارًا، محفوفًا كلّ مرّةٍ بسحبٍ ملوّنةٍ تمسكها من زواياها وتحرّكها حشود من العصافير. ثمّ في لحظةٍ انتبهت أنّي ذهبت وحدي ولم أجلب أصدقائي فتوسّلت القوس أن يبقى إلى أن أعود فأصطحبهم، ووعدني بذلك. وبالفعل حين وصلنا قمّة الجبل وجدناه لا يزال بانتظارنا فظللنا نتسلّق ونتزحلق ونحادث ألوانًا من السحب والعصافير إلى أن صحوت.

وجدت سماء ذلك الصّباح متخمة بالغيوم، تتجشّأ رعودًا كالوعيد. ولم تذهب عمّتي للرّعي. احتضنتها من فوري وأخبرتها بمغامرتي الليليّة. غبطتي بتحقّق أمنيتي رأبت شروخي الوجدانيّة من ضحكاتها. وقضيت يومًا جميلًا رغم تجهُّم طقسه.

لم يهطل المطر ذلك اليوم، وحين هطل في الأيّام التالية كانت السّماء تظلّ بعده عابسة، لم تبتسم بقوس قزح مرّة أخرى إلّا بعد مدّة طويلة، في موسمٍ تالٍ. على أنّ اهتمامي بقوس قزح لم يدم طويلًا. سرعان ما أخلى مكانه لإلهٍ آخر، أرضيٍّ هذه المرّة، انبثق من الطّين ولم يطلّ من السّماء!

حدث الأمر في البداية على سبيل اللّعب. ولكن يتعيّن عليّ قبل ذلك أن أخبرك شيئًا عن طبيعة ألعابنا أنا وأصدقائي. كانت ألعابًا تقوم على فريقين ويعتمد الفوز فيها على التفوّق البدنيّ أكثر منه على البراعة الذهنيّة. اقتضى ذلك أن نكون أنا ويزيد قطبين متقابلين على الدّوام، كوننا متكافئين بدنيًّا، وكان الفريق الخاسر غالبًا هو الّذي يحوي علاء. ظلّت عائشة تبدي من الجَلَد أضعاف ما يبدي، بل إنّها في ما يتعلّق بالإصرار على الفوز كانت تفوقنا جميعًا، ولذلك بقيت القرعة وحدها تحسم إلى أيّ جانب ستلعب هي، إلى جانبي أم إلى جانب يزيد.

ذلك السّباق المحموم لحيازة عائشة بقي يؤذي علاء وإن ظلّ متكتّمًا. كنّا نشعر بذلك أنا ويزيد إلّا أنّنا نغضّ الطّرف ونمضي. في النّهاية، ورغم محبّتنا لعلاء، لم يكن ثمّة في نظرنا ما يفوق الانتصار أهميّةً، وكنّا ندرك تلك البديهيّة القائلة بأنّ عليك لكي تنتصر أن تضمّ الأقوى إلى فريقك. لكنّ يومًا جاء ولم يعد بوسع علاء أن يكظم غيظه أكثر.

كنّا على وشك الاقتراع حين انعطف قائلًا: "العبوا دوني، سألعب وحدي"، ومضى متجاوزًا الميدان موغلًا في البلدة.

لم تعد ثمّة جدوى لأيّة قرعة، كما لم نتمكّن نحن الباقين من اللّعب بصيغتنا الثلاثيّة. قضينا وقتًا مملًّا، وفي الأخير قررنا الذهاب لاسترضاء صديقنا الآبق.

كان يومًا مشمسًا، وقد مضت أيّام دونما أمطار، غير أنّ بعض السّواقي لا تزال جارية. ومتوجسين من غضب أهالينا، تعدّينا الميدان بدورنا ومضينا نبحث عن علاء.

عثرنا عليه سريعًا، جالسًا على ضفّة إحدى السّواقي، أمامه عجينة من الطّين تلوكها يداه باستغراق تامّ.

إلى جانب تلك العجينة وجدنا عجلًا بحجم قبضة اليد. ما عدا الحجم لم يبدُ ثمّة أدنى فارق بين ذلك العجل الطينيّ وتلك الّتي في الزرائب. شُدهنا. بدا لنا ذلك العجل سينتفض بأيّة لحظة، سيمشي، سيحرّك ذيله أو يطلق خوارًا. انتظرنا لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.

أخيرًا، جلست إلى جوار علاء وسألته ما إن كان هو صانع تلك الدّهشة.

أشرق وجهه بابتسامة ظافرة وأجاب: "هذا شيء عاديّ، بوسعي أصنع بهذه العجينة حظيرة كاملة". ثمّ سألني هل أعجبني العجل حقًّا فأجبت متحمّسًا بأن نّعم. قال إنّ بوسعي أخذه لي، على أن أنتظر إلى أن يجفّ وتتماسك مادّته.

كدت أطير فرحًا وشعرت نحو علاء بامتنان لا يوصف، لكنّ يزيدًا وعائشة أبيا إلّا أن يصنع لهما عجلين أيضًا: أليسا بصديقيه مثلما أنا؟! وهدّدا بتدمير خاصّتي إن لم يفعل. وانضممت إليهما مطالبًا إيّاه بذلك. رغبتي بمشاهدة عملية الخلق طغت حتّى على رغبتي باقتناء العجل.

شعّت عيناه. ها هو يصير نجم المجموعة بعد أن ظلّ على الدّوام عنصرها الباهت. اقتطع بيده من تلك العجينة وشرع يشيّد معجزتين أخريين. ويا للانهماك الّذي أبداه في ذلك! عبثًا أمطرناه بوابلٍ من الأسئلة. لم يبد عليه حتّى أنّه يسمعنا. لقد تركّز كيانه كلّه في يديه النّشيطتين، البارعتين أشدّ ما تكون البراعة.

أن يرى المرء تلك القبضة البائسة من الطّين المبتلّ، اللّا مفهومة المعالم، تستحيل شيئًا فشيئًا عجلًا واقعيًّا، المرّة الأولى فالثانية، أيّ إعجاز!

وليتك ترى إلى أيّ حدٍّ عُنيَت تلك اليدان بالتفاصيل، وفقط باستخدام شوكة صغيرة! الأذنان، العينان، المنخران، الذّيل، الأظلاف، ...، كلّ تفصيلٍ، أدقّ تفصيلٍ، بمنتهى الكمال، في العجل الأوّل والثاني وبما يماثل بالتّأكيد العجل المُنجز المهدى إليّ.

وفقط حين انتهى من وضع اللّمسة الأخيرة على التُحفة الأخيرة، عادت ملامحه إلى انبساطها، عادت الحياة إلى شفتيه فتبسّم وإلى صدره فتنهّد.

وبقينا نحن الثلاثة محملقين كلّ إلى عجله، فاغري الأفواه مفتونين. بدا أنّ عائشة أكثرنا افتتانًا. بعد أن تمعّنت عجلها ولامسته بحذرٍ بأطراف أصابعها، التفتت صوب خالقه وسألته ما إن كان بوسعه جعل العجل يتحرّك أيضًا ويتكلّم.

اتّسعت ابتسامة علاء وأجاب بالنّفي، وفي تلك اللّحظة ابتسمت بدوري. فإذا كان علاء، بصياغته العجول على هذا النّحو من الكمال الصوري، برهن على تفوّق مذهل، فلا يزال بوسعي التفوّق عليه أيضًا، وفي اللّعبة ذاتها.

تنحنحت لأستلفتهم ثمّ أخبرتهم بكلّ رصانة بأنّ بمقدوري منح الحياة لهذه العجول، بمقدوري جعلها تتحرّك وتصرخ!

تعلّقت عيونهم في فمي وكان المغرب يهبط. أخبرتهم بأنّ ذلك سيكون هنا صباح الغد، أمّا الآن فعلينا العودة إلى منازلنا، وأومأوا موافقين على مضضٍ ومتشكّكين.

سيّجنا المكان حيث تقبع عجولنا المبتلّة بأغصانٍ اقتلعناها من شجرة مجاورة، وذلك لحجبها عن العيون الفضوليّة، وغادرنا إلى منازلنا في غبطة خالصة.

سألني أبي على العشاء عن سرّ ابتهاجي المبالغ وأجبت بالصّمت المتبسِّم. كذلك لم أخبر عمّتي بشيء. وقضيت اللّيل بطوله مُشرع الأجفان مُطرَب القلب، أنتظر الصّباح بلهفة لا تُحدّ وأفكّر كيف سيمكنني بعث الحياة في تلك الأصنام البديعة.

لحظة أخبرت أصدقائي عن قدرتي على ذلك لم تكن في بالي أدنى فكرة عن الكيفيّة. انسقت حينها وراء ثقة استولت عليّ فجأة بلا منطق، شيء هكذا أشبه بالحدس، وها أنا الآن لم أهتدِ لشيء. رغم ذلك لم أحزن. سلّمت بتفوّق علاء وعلّلت نفسي بتذكيرها بتفوّقي الكبير في باقي الألعاب. غير أنّني في اللّحظة الّتي اقتنعت فيها باستحالة الأمر وجدتني أحقّق المعجزة!

تحلّقنا الأربعة حول عجولنا تلك وقد جفّت تمامًا، وعلى الفور عنّ لي أن أقتبض حفنة من التراب وأنثرها عليها. مضى صوت من داخلي يحُضّني على ذلك، يؤكّد أنّني لو فعلت فإنّ العجول ستتحرك وتطلق خوارًا، ستمتلئ بالحياة وتكفّ عن كونها مجرّد صور، وهذا ما فعلته.

ويا لدهشتنا ممّا حدث إثر ذلك! تحرّكت العجول بالفعل، وعوض أن تطلق خوارًا مضت تحدّثنا بلغتنا!

خلبنا المشهد فجثونا باحترامٍ وتأثُّرٍ بالغَين. بالنّسبة لي لم أكتفِ بالجثو، سجدت مُخبتًا ولم أرتفع من سجودي إلّا حين أوقظتني أمّي.

وجدت الصّباح تقدّم كثيرًا. أخبرتني أمّي أنّ أصدقائي أتوا يسألون عنّي مرارًا.

انتفضت مثل ملدوغ.

"لا لا، لست جائعًا، لا حاجة لي للإفطار"، صرخت من باب المنزل مغادرًا.

عليّ اللّحاق بأصدقائي لأمنعهم من لمس العجول قبل أن أُلقي عليها الحياة بقبضتي السحريّة. لكنّهم ويا للأسف كانوا سبقوني. لا بأس. طلبت منهم أن يعيدوها إلى حيث كانت ففعلوا. وهناك، وكما حدث في الحلم، اقتبضت حفنة من التراب وألقيتها على الأصنام بثقةٍ مطلقةٍ.

لم يحدث شيء! ظلّت العجول متحجّرة! لم تبدِ حراكًا ولم تندّ عنها كلمة واحدة أو صوت!

وبالطّريقة ذاتها الّتي ضحكت بها أمّي من سحابي، وعمّتي من سحابي ومن قوس قزح، ضحك أصدقائي من إخفاقي.

صُدِمت. حملت العجل خاصّتي وعدت إلى المنزل مهشّمًا. سجنت نفسي في غرفتي طوال اليوم وظلّت الضّحكات الثلاث،

ضحكة أمّي وضحكة عمّتي وضحكة الأصدقاء، تتصادى داخلي حتّى المساء، تختلط وتستحيل سيلًا حارقًا. لماذا تُجابَه أكثر أشيائي حميميّةً بهذا القدر من الاستخفاف؟!

كنت أحسب السخرية ديدن الكبار لكنّني أدركت اليوم أنّ الجميع يسخر، الجميع بلا استثناء، حتّى أصدقائي. ولكن ألم يكن من حقّهم أن يسخروا؟! لقد أكّدت لهم أنّني سأمنح الحياة لعجولهم، جعلتهم يعيدونها إلى مكانها وقمت بحركتي الخرقاء تلك الّتي لم تثمر شيئًا. يحقّ لهم إذن أن يضحكوا. إنّه خطئي أنا، خطئي أن وثقت بأحلامي. ولكن أليست الأحلام جميلة رغم ذلك؟! ألم تمكّنني قبلًا من امتطاء قوس قزح؟! وأيضًا من بعث الحياة في الجمادات ومحادثتها؟!

حسنًا، لعلّي أخطأت فقط إذ أفصحت لهم عن حلمي، تمامًا كإدخالي لأمّي وعمّتي في عالمي السّماويّ. سأكفّ منذ اليوم عن مشاركة أحد في أحلامي ورؤاي. لن أخبر بها أحدًا مهما كان قريبًا.

وفي اليوم التّالي لم أمضِ إلى أصدقائي، وحين أتوا هم يدعونني امتنعت. كنت لا أزال حنِقًا وخجِلًا. بقيت في غرفتي حتى دنت الظّهيرة فحملت عجلي وخرجت إلى الحوش. سأنتظر هنا إلى أن تناديني أمّي إلى السُفرة.

جلست على الكرسي الخشبيّ، وضعت صنمي الرّائع أمامي، على صندوق معدنيّ أشبه بالمنضدة، ورحت أتملّاه

باستغراق. وفيما أنا منهمك في مناجاة عجلي الآسر، فوجئت بما يشبه الكمّاشة يُطبق على أذني!

التفتُّ مبغوتًا لأجد وجه أبي. كان ذلك توقيت عودته من صلاة الظّهر. لم يسبق أن وقفت من ملامحه بهذا القرب، ولَكَم بدا فظيعًا!

ملامح مروّعة يؤطِّرها شعر مفزع الغزارة. العينان الحمراوان غالبًا ها هما تقدحان شررًا. أسفل منهما يختلج منخران معشوشبان مثل مغارتَي عفاريت. أدنى منهما، شفتان غليظتان تغطّيان صفّين ناصعين من الأسنان لم يمنع إطباقهما من تدفّق الأسئلة: من أين جئت بهذا الّذي أحدّق فيه وماذا أفعل معه؟!

قبل أن أتمكّن من تمييز هذه الأسئلة أجرى دماغي بسرعة برقيّة مراجعةً لأنشطتي منذ البارحة، أبحث عن تصرّف ربّما يكون بدر منّي واستأهلت بسببه هذا العقاب. لم أجد شيئًا. وظلّت تلك الأصابع الفولاذية تهصر أذني إلى أن صيّرتها جمرة، وفي الوقت ذاته تتدفّق الشّفتان المروّعتان أسئلة.

كان مشهدًا مغرقًا في غرابته وكنت مرعوبًا على نحو بالغ. تبكّمت. لم يمكنني حتّى البكاء.

كانت أوّل مرّة يضربني. ويبدو أنّ بقائي ساكنًا على ذلك النّحو وصامتًا هو ما فاقم غضبه. أخذ يصرخ كالمجنون معيدًا ذات الأسئلة. وكنت أزداد تيبّسًا كلّما تأجّجت ملامحه أكثر. أفلت

أذني أخيرًا ولكن ليهوي على خدّي بصفعة قذفتني في الهواء وطرحتني أرضًا بوجهٍ مشقوقٍ من الدّاخل.

وحينها فقط رأيت أمّي تندفع مهرولة من باب المنزل. أمسكته من ذراعه وصرخت تسأل عمّا يجري، قبل أن تنتشلني إلى حضنها.

أمسك بالعجل وأخذ يلوّح به صارخًا: "ولدك يا امرأة، ولدك يتمسَّح وثنًا! أنا الشّيخ جبل، أُربّي في منزلي وثنيًّا صغيرًا! وفوق ذلك أسأله ولا يجيب، يتحدّاني القرد!"، وقذف بالعجل إلى الأرض وانكبّ يسحقه بنعله إلى أن أعاده ترابًا.

حملتني أمّي إلى الدّاخل لتبلسم جراحي. ومع أنّني لم أكن فهمت شيئًا، إلّا أنّني عزفت عن أن أستفسر. اكتأبت. أيقنت أنّ الوجود معقّد على نحو يدعو إلى القنوط، أنّ ثمّة سقفًا لا مرئيًّا لكلّ شيء، سقفًا واطئًا وصلبًا يجعل كلّ محاولة للتّحليق، مهما كانت بسيطة، تنتهي بوَسْمٍ في الروح وندوبٍ على الجسد.

ليس كافيًا إذن أنْ أتحفّظ على رؤاي، أن أختزنها بتلك المساحة من كياني دون الحلق كما قررت بالأمس. فحتّى لو ظللت متنبّهًا بشكلٍ دائم، حذرًا باستمرار، سيباغتني الوجود بعقابٍ ما، هذا الوجود اللّعين المخاتل!

لم يبدُ أنّني سأتعافى من تلك الحادثة. بالنّسبة للأذى الجسديّ لم يدم طويلًا. خرجت بعد يومين بوجهٍ لا تشوبه شائبة. غير أنّ أذى الأعماق لم يشأ أن ينمحي. ظلّت ملامح أبي الفوّارة غضبًا، القريبة والدّميمة، هي كلّ ما أراه، في صحوي كما في نومي. منظره أيضًا، محتشد الطّاقات نافر العروق يسحق بنعله عجلي العزيز، الوثن حسب وصفه، أيّة بربريّة! وأكثر من ذلك، حيرتي تجاه سير الوجود، يأسي من فهمه أو تحاشي لكماته الغادرة.

حاولت أمّي إخراجي من كآبتي ولم تفلح. إنّها آخر من قد يمكنه ذلك. لا أعرف كيف احتملت العيش بشخصيّةٍ كتلك، بسلوكها الطّافح بالرّسميّة. لا أظنّها رقصت يومًا، وأبدًا لم يكن لها أن تفعل شيئًا لاكتئابي.

وكنت كففت أيضًا عن المضيّ إلى أصدقائي أو تلبية دعوتهم، وحين عاد أبي بعد أيّامٍ ليتودّد إليّ ثابرت على تيئيسه، ووحدها عمّتي صفيّة نجحت في تطبيبي.

لن أبالغ إن قلت إنّ أجمل ما حدث لي في طفولتي، بل ربّما في عمري كلّه، أنّني تشاركت معها الغرفة نفسها لسنوات.

كنت، كأيّ طفلٍ، أضيق بالجديّة، أهوى الصّخب وتخنقني القيود. وكان حرص الكبار على السّمت الرّزين يشعرني بالقرف. كرهتهم بسبب ذلك، أو بالأدقّ: كرهت طريقتهم. ووحدها عمّتي صفيّة بدت لي، من بينهم جميعًا، مثلنا، أنا وعائشة ويزيد وعلاء. ولعلّ ذلك هو ما جعلها تحظى منّي بكلّ الحبّ المخصّص بطبيعته لأبي وأمّي. كانا مهووسَين بذلك الشّيء الّذي يسمّونه الهيبة، فيما تمضي هي متدفّقةً على سجيّتها، بلا كوابح ولا اعتبارات. كانت طفلة كبيرة.

صحيح أنّ علاقتي معها لم تسر دومًا في وئام، غير أنّ خلافاتنا ظلّت تحمل ذات الرّوح لخلافاتي مع أصدقائي، وكان انسجامنا يعود فيرتئب بالسرعة ذاتها.

حين بدا لها أنّني متضرّر نفسيًّا سخّرت كلّ مواهبها لمداواتي. خصّصت لي وقتًا معتبرًا كلّ مساء، تقتطعه بسخاءٍ من حصّة نومها، وأجزلت لي عطاءً حلّ على روحي مثل بلسمٍ سماويٍّ. إنّه القَصّ. مضت تغمرني كلّ ليلة بحكاية جديدة. ما أنْ ننهي عشاءنا ونأوي إلى غرفتنا حتّى تجلس على فراشها، توسّدني فخذها، تُطلق أناملها في فروتي وتشرع في الحكي. وينهمك خيالي من فوره يجسّد كلماتها صورًا تستحيل غبطةً قصوى.

ذلك الخليط السّحريّ من هدوء اللّيل والنّبر العطوف والملامسة الحانية والضّوء الشّاحب، مضى يضفي جوًّا من الأسطورة تنساب فيه الحكاية مثل قاربٍ خرافيٍّ على صفحة نهرٍ فردوسيٍّ. ووجدتني مرّة أخرى في خضمّ الحالة الوجدانيّة الّتي عشتها في عباداتي المهدورة لآلهاتي الآفلة، في ذلك السّفر اللّذيذ من الوجود الرّاهن إلى وجود آخر من غبطة خالصة، مطلق، بلا حدود، على صلة وطيدة بالكمال، بالأبديّة، بالسِّحر وبالشِّعر.

وشُفيت!

ابتسمت لأبي، تسامحت مع دمامته الرّعناء وأحببته. عدت أيضًا إلى أصدقائي، إلى صخبنا المعهود. لم تعد في قلبي أنهى مساحة للحيرة أو الكراهية أو الحزن أو القلق. أقضي نهاري صاخبًا، محلّقًا بحكاية البارحة ومتحرّقًا متى سيحلّ المساء فتأتي معبودتي لتغرقني في سحر جديد، في حكاية جديدة، في صلاة جديدة. على أنّ كلّ تحليق لا بدّ وأن ينتهي كما تعرف بهبوط. وكنت من النّوع الّذي غالبًا ما تنتهي تحليقاته إلى نكوص ساحق وارتطام مدوّ، ودون أن يخلو بعضها من ظرافة مغرقة في غرابتها، تأتي هكذا مثل كوميديا سوداء. وجاء موت عمّتي المباغت واحدًا من أعنف انسحاقاتي.

في أوج شغفي بها واحتياجي إليها، ماتت. الفم المتدفّق سحرًا، امتلأ ترابًا. القلب المُترع بالضّحكات، استحال ترابًا. حلّ الصّمت وهيمن التراب، الحقيقة النّهائية للوجود الدنيويّ.

حدث ذلك بأوّل أيّامي الدراسيّة، ضمن ملابسات أنا شاهدها الوحيد ولم أبُح بها لأحد، ملابسات يستدعي إيضاحها سرد وقائع ذلك اليوم من بدايته.

كان يومًا مكتظًّا، كلّ تفصيل منه يضع بصمة على ما سيأتي من هذه الإجابة.

أنّنا سنلتحق بالمدرسة، كنّا تلقينا هذا الخبر، أنا ويزيد وعلاء وعائشة، مثل بشرى عيد. سيشترون لنا ملابس جديدة، حقائب مدرسيّة، أقلامًا ودفاتر، وسنذهب يوميًّا إلى هناك، إلى قمّة أقرب الجبال حيث تقع المدرسة، ويومًا إثر آخر ولن يعود ثمّة فرق بيننا ومن يكبروننا سنًّا، أولئك الأغرار المتبجّحين!

بالنّسبة ليزيد كان أتقن ليس فقط التمييز بين حروف الأبجديّة وكتابتها، وإنّما أيضًا القراءة. لقد أخضعه والده، الشّيخ، إمام المسجد، لبرنامجٍ تعليميٍّ مسائيٍّ طوال الشّهور الماضية. أمّا أنا وعائشة وعلاء فلم تكن حصيلتنا تتجاوز بضع سُوَرٍ قرآنيّة قصيرة حفظناها مشافهة.

ثمّ حلّ أخيرًا الصّباح المُنتظَر.

لم نكن نعرف الطّريق إلى المدرسة فاقتضت الخطّة أن تأخذنا عمّتي إليها في طريقها للرّعي. كان الجوّ صقيعيًّا، نفذت سياطه إلى جلودنا رغم تدرّعنا بملابس حصينة. ارتقينا طريقًا وعرةً، صاعدةً بلا هوادة، محفوفين بالثغاء، ولقد بذلت عمّتي جهدًا في سياقتنا أكبر من ذاك لتوجيه قطيع الماشية. تفاقمت معاناتها على نحوٍ خاصٍّ حين أقدم جَدْي متهوّر على تشمّم ولعق حقيبة عائشة. لم

تحتمل طالبة العلم القديرة هذه الإهانة ونجحت في تأليبنا. وكادت الرّحلة تنتهي بعودتنا حانقين حين منعتنا عمّتي من ارتكاب مجزرة في حقّ الجدي الأثيم. غير أنّ كلّ ذلك لم يمنع وصولنا أخيرًا، ولَكَم كانت صدمتنا كبيرة!

كان خيالنا نسج للمدرسة صورة لم يكن لأجمل مباني البلدة إلّا أن يقف أمامها متصاغرًا مثل قنّ الدّجاج، وها نحن إزاء مبنىً رثّ، متهالك، أقرب لإصطبلٍ قديمٍ مهجورٍ. جدران قميئة مقشّرة تتخلّلها فجوات مظلمة مضت تحملق في ذهولنا مثل عيون جمجمةٍ عملاقةٍ.

أتُراها إحدى دعابات عمّتي؟!

بقينا مسمّرين ننتظر متى ستخبرنا بأنّها تمزح وأنّ هذا المبنى الجحيم ليس هو المدرسة، لكنّها لم تفعل. وانتبهنا إلى تلك الأسراب من أمثالنا، المتقاطرة إلى هذه الخرابة حاملةً حقائب تشبه حقائبنا. إنّها المدرسة بالفعل!

نفحت عمّتي كلًّا منّا قُبلةً على خدّه ثمّ انتظرت إلى أن جرؤنا على اجتياز البوّابة الحديديّة الصّدئة ومضت مع قطيعها، لنجد أنفسنا في ساحة تتماوج بأشباهنا، أغلبهم يكبرنا.

مشدوهين وخائفين، التصقنا ببعضنا أكثر ومضينا نتملّى الآخرين وقد تحلّق بعضهم قيامًا وقعودًا، فيما انخرط بعضٌ آخر في بهلوانيّات مجنونة.

دقائق وخرج من إحدى الغرف رجل ضخم، متكرّش، ملتحٍ، يحمل مكبّر صوت في يد وفي الأخرى عصًا غليظة. هدر من خلال المكبّر آمرًا الجميع بالاصطفاف.

أيّ ذعرٍ انتابني لذلك! انحشر البكاء في حلقي وكاد يطفر من أحداقي لولا أنّ وجودي ضمن عصابتي الصّغيرة مضى يربّت على قلبي.

اختلج اليمّ البشريّ إثر النّداء الأجشّ وبدأ يتمايز صفوفًا بمساعدة مجموعة من الشبيهين بحامل مكبّر الصّوت، أقلّ تكرّشًا منه. تحت إشراف هؤلاء أيضًا، وعلى إيقاع الأوامر المتدفّقة من المكبّر، قمنا بتأدية بضعة تمارين رياضيّة بخراقة تامّة، قبل أن يشرعوا في سكبنا صفًّا إثر آخر في غرف ذلك الإصطبل المدعو، بُهتانًا، مدرسة.

ولجنا غرفة صفّنا لنجد المشهد من الدّاخل لا يقلّ تشوّهًا عنه من الخارج. جدران ملطّخة، مجعّدة، بلا ملاط، ولن يكون بوسع أحد أن يعلم كيف ولماذا غدا السّقف مغطّىً بالسّخام على ذلك النّحو. الأرضيّة لم تكن فقط عارية من الأثاث وإنّما أيضًا من

البلاط، وتكفي أنهى حركة لتشويرها واستدرار سعالنا. لم تكن بالغرفة الضيّقة لكنّ عددنا كان هائلًا فتكدّسنا فيها واقفين.

دقائق وأتانا رجل مديد القامة، نحيل، أشعث، ذو ملابس رثّة، تحمل إحدى يديه المبرثنتين عصًا رعدتنا خوفًا. صرخ فينا بأن نجلس فجلسنا محتضنين حقائبنا، منضغطين وتاركين ما تبقّى من أناقتنا يتمرّغ في التراب. أخبرنا بأنّه من سيدرّسنا، وأنّ تلك العصا الرّاعبة في يده هي القدر المحتوم لمن يتهاون في أداء واجباته أو يحاول زعزعة سكينة الصّف.

بدا كما لو جاء لينتقم منّا لجُرمٍ لا نعرف أين ومتى ارتكبناه في حقّه. وفقط بعد أن تأكّد من خضوعنا التّام وقد تجمّدنا مُذَلّين، أقحم يده في جيبه، أخرج طبشورةً مضى يخربش بها على اللّوح الأسود خطوطًا ونقاطًا علمنا لاحقًا أنّها حروف الأبجديّة، الحروف الّتي بقينا نثغوها وراءه إلى حدود الظّهيرة، إلى أن صرفنا مثقلين بالواجبات.

غادرنا المدرسة مفعمين بالسّخط، وكانت عائشة أكثرنا حنقًا. لقد تسلّقها الغبار وغطّى تفاصيلها، تمامًا كما هو حالنا، لكنّها أكثرنا اهتمامًا بمظهره. أقسمت أن لا تعود إلى المدرسة مطلقًا وأقسمتُ وراءها، فيما اكتفى علاء ويزيد بالصّمت.

ويبدو أنّنا كُنّا آخر من غادر المدرسة من تلاميذ البلدة. لاحت الطّريق خالية من سوانا.

حين صرنا على مسافة، وقبل أن تبدأ الطّريق بالانحدار، عنّ لي أن أنعطف إلى حافّة الجبل لأطلّ على الوجود من هناك، ضاربًا بتحذيرات عمّتي عرض الحائط. أُغريَت عائشة لمشاركتي ورافقنا علاء على مضض، أمّا يزيد فاستمرّ في طريقه. لقد أوكل إليه والده فتح بوّابة المسجد مع كلّ صلاة، ويتعيّن عليه الآن أن يغذّ السّير ليتمكّن من الوصول بتوقيت صلاة الظهر.

مضيت إذن مع علاء وعائشة إلى حافّة الجبل، ولَكَم بدت الإطلالة مدهشة!

من هناك أمكننا اكتشاف أنّ بلدتنا ليست الوحيدة في هذا الكون، أنّها فقط واحدة من بلدات كثيرة! ويا للنّهر ما أجمله يتلوّى ساريًا في ثقة ووقار! ويا للحقول داكنة الخضرة، ترتعي المواشي على حوافها! والنّاس، يا لكثرتهم! وكم يبدون صغارًا كالنّمال!

امتطينا صخرة كبيرة واستأنفنا نتبادل الاكتشافات ونضفي على الأشياء معاني لا تحتملها. كانت الريح باردة، جذلة ومتحمّسة لاقتلاع شعورنا، ورغم ذلك شعرت بالظّمأ. كنت لا أزال مختنقًا بغبار المدرسة. أخرجت مطريّتي وأفرغتها في جوفي ثمّ عدت مستأنفًا الحديث.

بضع دقائق ودهمتني الحاجة للتبوّل. وما أن وقفت منتويًا النّزول حتّى ومض في وعيي ذلك الحلم، الحلم الأثير حين كنت أقف على حافّةٍ ما ضمن صفٍ لا نهائيٍّ من أمثالي ونتسابق أيّنا ينجز أطول منحنى تدفّقٍ بوليٍّ.

كان ذلك الحلم توقّف عن زيارتي منذ شهور، مُذ أفضيت لعمّتي بعنائي وتكفّلت بمرافقتي إلى الحمّام كلّ ليلة. لكنّني وقد وجدتني الآن أقف على شاهقٍ مشابهٍ لذاك الّذي كان مضمارًا لسباقي، فقد طفا الحلم في ذاكرتي وأغراني لتجسيده.

أتُراني سأتمكّن من الفوز؟! صحيح أنّ المنافسين هنا قليلون، ليسوا بذلك العدد الّذي في الحلم، لكن لا بأس، المهمّ أن أكون أنا الفائز.

وهنا عليّ أن أخبرك أنّ فهمي للفوارق الجسديّة بين الجنسين كان إلى حينها قاصرًا جدًا، بل ومضحكًا. فالفرق بيننا نحن الثّلاثة، أنا ويزيد وعلاء، وبين عائشة، لم يكن سوى أنّ شعرها أكثر طولًا وأنّ نمط ثيابها مختلف، ولا شيء آخر. وصحيح أنّني كنت تلقّيت من أسرتي المفهوم التربويّ الّذي يقضي بتجريم التعرّي أمام الآخرين أو النّظر في عريهم، إلّا أنّني كنت من جهةٍ قد رأيت كم أنّ الكبار يخطئون، ومن أخرى فهؤلاء أصدقائي وليسوا

محض أناس، ومن ثالثة، وهي الأهمّ، كنت راغبًا في خوض المغامرة بشدّة.

طرحت الفكرة فوافقت عائشة باندفاع فيما رفض علاء بهدوءٍ حازمٍ وبنظرةٍ تنمّ عن ازدراء. أشعرتني ردة فعل علاء بالخيبة وكدت ألغي الفكرة لولا تلهّف عائشة. رأيت أنّ امتناعي عن خوض السباق معها وقد أبدت كلّ ذلك الحماس سيكون فعل نذالة، وهكذا وجدتني أمضي في الأمر أخيرًا كواجبٍ أخلاقيٍّ!

"هيّا إذًا يا عائشة"، قلت ناظرًا في عينيها بامتنان: "ولكن تأكّدي أنّ الفوز من نصيبي".

حين رأى علاء أنّنا جديّان، نزل عن الصّخرة مغمغمًا بأنّه سيمضي إلى البلدة دوننا. لم نأبه. تتبّعناه بأعيننا إلى أن غاب فوقفنا وابتدأنا السباق.

أرسلت بصري نحو الأفق، حررت خرطومي وأطلقت له العنان. الفارق الكبير بين زخم التدفّق الواقعيّ وذاك الّذي في الحلم أصابني بالإحباط، لكنّني انتبهت أن لا شيء يتدفّق من عائشة! التفتّ فوجدتها محمرّة الوجه منتفخة الأوداج تدفع بأسفل جذعها إلى الأمام، تحاول عبثًا جعل تدفّقها يحلّق. وكانت محملقة في المدى، لكنّها ما لبثت أن نظرت فيّ ودُهشت.

"ولكن ما هذا؟!"، سألتني في ارتياع، مشيرةً صوب خرطومي وتاركةً نفسها تتدفّق دونما جهد، إلى ساقيها وإلى الصّخرة.

لم أفهم سؤالها، وحين تمعّنتها بدوري تملّكتني الدّهشة أيضًا. لم أجد على جسدها ذلك الشيء! تبكّمتُ. زادها صمتي ارتباكًا. نزلت عن الصّخرة، جلست مستندةً إليها ثمّ بدأت ما تفعله دومًا مع كلّ هزيمة: رفعت عقيرتها بالبكاء.

ولعلّك ستحسبني الآن مبالغًا، أسرد من وحي خيالي، لكن لا. لقد كانت عائشة يتيمة الأب ووحيدة أمّها، وكنت أنا، إلى تلك الآونة، الطّفل الوحيد لأسرتي. لم يكن ثمّة ضمن أسرتينا أطفال من الجنسين لنلحظ الفروق الجسديّة الدّقيقة ونألفها. وكما سبق وأخبرتك، كان أهالينا حازمين في عدم السّماح لنا بتجاوز المساحة المقتضبة بين منازلنا إلى باقي أجزاء البلدة، وبذلك لم نختلط بأطفالٍ آخرين فظلّ إدراك مثل هذه الفروق بمنأىً عنّا. كما أنّ صداقتي مع عائشة وانخراطي معها في اللّعب بقي دومًا تحت نظر الأهل، لم يكن بإمكاننا ولو مجرّد التّفكير بأن نخرق تعليماتهم ونتبوّل مثلًا بمرمى ملاحظة بعضنا. وعمومًا، فإنّ ما حدث إلى الآن لا يُقارن بما تلاه.

بقيت عائشة تبكي بحرقة وظللت جالسًا إلى جوارها، حائرًا بهذا اللّغز الكبير. أخيرًا، تمكّنت من الوصول إلى تفسير ملأني شفقةً وحزنًا: لا شك أنّ أحدًا ما قطع خرطومها في زمنٍ ماضٍ لم يعد بمقدورها أن تتذكّره، المسكينة! على أنّ تفسيري الألمعيّ هذا لا يرقى للتشخيص العبقريّ الّذي توصّلت إليه عائشة لحالتها.

كان لتلك الفتاة روح محاربة. لا تقبل الهزيمة أبدًا، ومن أجل أن تفوز أو أن تبقى على الأقلّ قيد المنافسة كان بوسعها اجتراح أكثر الأفعال جموحًا. لم تكن ارتدت سروالها بعد. شمّرت ثوبها وانعطفت هابطةً برأسها وقد باعدت بين فخذيها لتحظى بأدقّ رؤية ممكنة. ارتبكتُ لكنّني بقيت بلا حراك.

أخيرًا التفتت صوبي متوقفةً عن البكاء، صارخةً في استبشار:

"إبراهيم، انظر.. إنّه هناك، في الدّاخل! عليّ فقط أن أسحبه وسيتدلّى!".

كانت دموعها شقّت أخاديد في غبار المدرسة المترسّب على خدّيها فلاح وجهها مثل أرضٍ معذّبةٍ. عدّلت من جلستها وواجهتني طالبةً منّي مساعدتها في ذلك.

كيف؟!

بأن أحشر أصابعي فيها عميقًا وأجتذب شيئها، سيتدلّى وسيمكننا خوض السباق مرّة أخرى على نحو متكافئ!

رفضت بحزم. خشيت أن أؤذيها. لم أكن أعلم نوع الأذى المحتمل وما كان بوسعي أن أحزره، لكنّني كنت متيقنًا على نحو غامض بأنّ من شأن ذلك أن لا ينتهي بخير.

عادت الدّموع تكتسح أجفانها من جديد. لكنّها عائشة، المحاربة الأكثر إصرارًا وعنادًا. وقفت أمامي محتشدةً، أمَرَّت كمّها على عينيها لأجدني أمام نظرتها الملتهبة تلك الّتي ترتديها كلّما لاحت أمامها نذر الهزيمة وقرّرت الإمعان في التحدّي. هزّت سبابتها أمام وجهي كأنّما لتنذرني وأطلقت أمرًا بأن أبقى بموضعي إلى أن تعود.

أومأت موافقًا فاستدارت على الفور واختفت وراء صخرة مجاورة أصغر حجمًا.

ربّما ليس أكثر من دقيقتين وإذا بصرخةٍ زاعقةٍ تلاها نداء يطلب النّجدة. وثبت إليها لأجدها جالسةً باسترخاءٍ غريبٍ، تنضح عرقًا من كلّ مسامها.

"ما بك؟!"، سألتها جَزِعًا.

"جرحت نفسي"، أجابت في فتورٍ، رافعةً إصبعًا مصبوغًا بالدّم، مشيرةً من ثمّ إلى ما بين فخذيها.

حدّقت إلى حيث يومئ الإصبع فوجدت ذلك الشّق المقتضب العجيب، اكتشافي المدهش لذلك اليوم، على حافّته لطخة ورديّة صغيرة.

ارتعدت اشمئزازًا وهولًا.

"ساعدني لأقف. يجب أن نمضي إلى المنزل"، قالت.

طوّقت عنقي بذراعها فيما حوّطتُ خصرها بذراعي، أوقفتها وعدنا معًا إلى الصّخرة مضمار السباق. تنفّست بعمقٍ مرّتين أو ثلاثًا ثمّ ارتدت سروالها. بدا أنّها تتحسّن.

حملتُ حقيبتينا ومضينا، ومع كلّ خطوةٍ أضرع أن لا نصل إلى البلدة إلّا وقد تعافت تمامًا. وبالفعل لقد عادت لطبيعتها، لحركتها المفرطة، قبل وصولنا بمسافة، على أنّ غيوم سخطها ظلّت مخيّمة. لم تكن تقبّلت الهزيمة بعد. كان ذلك كلّ ما يشغلها.

حين غدونا قاب خطوتين من الوصول لم يفُتها أن تشدّد عليّ بأن أُبقي ما حدث طيّ الكتمان. "ستقتلني أمّي لو عرفت". وبالطّبع فقد ناسبني ذلك. كنّا متيقنَين أنّ من شأن معرفة أهالينا لما حدث، سيّما الجزئيّة المتعلّقة بالجرح، أن يجرّ علينا عقوبة أقسى بكثير من هذه الّتي نعرف أنّنا قد استأهلناها بتأخرنا.

وصلنا لنجد أمّ عائشة بانتظارها على مقربة من منزلها، مزعزعةً. كانت رأت يزيد وعلاء وسألتهما عن عائشة فأخبراها

بأنّها بقيت تتنزّه معي على قمّة الجبل، وكانت على وشك أن تنطلق بحثًا عنّا.

لم يبدُ أنّ علاء أخبرها شيئًا عن السباق. احتضنت ابنتها في تلهّفٍ، مستجوبةً إيّاها عن الغبار الّذي يغطّي شعرها وملابسها. كانت عائشة غسلت وجهها قبيل وصولنا بما بقي من ماء مطريّتها، وكان كفيلًا بطمس آثار البكاء.

وفقط بعد أن اطمأنّت الأمّ على سلامة التلميذة، منحتها على مؤخّرتها قرصةً لاهبةً، متوعدةً إيّاها بعقوبةٍ أكبر في حال تكرّر منها هذا التّأخير. ومن جهتها أعلنت التلميذة أنّها لن تعود إلى المدرسة أبدًا: لقد اكتفت!

وبقيت طوال ذلك واقفًا بالقرب منهما، متوجّسًا من أن تتفطّن الأمّ لشيء.

انسلّت عائشة من بين براثن معذّبتها أخيرًا، اختطفت حقيبتها من على كتفي وواصلت سيرها نحو حوش منزلها. قبل أن تختفي رمتني بنظرة دامعة.

شاعرًا بالأسى على صديقتي، متسائلًا أيضًا ما إن كان الأمر مضى حقًّا بسلام، مشيت خطواتي القليلة المتبقية إلى المنزل.

لم أجد أحدًا بانتظاري. لا تزال عمّتي تجوب مع قطعانها المراعي، ولم يكن أبي موجودًا، أمّا أمّي فمستغرقة في قيلولتها. ومع

أنّ ذلك يعني نجاتي من عقوبة تأخّري اللّا مبرّر إلّا أنّني وجدت انعدام ملاحظتهم أكثر إيلامًا. بتلك المرحلة من عمري كان اللّا اكتراث يعني لي الجحيم.

امتلأت سخطًا نحو أبي وأمّي، وبالأخصّ نحو أمّي. دخلت المطبخ فوجدت غدائي ينتظرني، التهمته في حنقٍ واتّجهت إلى فراشي وغفوت.

أوقظتني يد تربّت على كتفي. إنّه أبي. أمرني بأن أتبعه إلى غرفته في الأعلى، واستدار ماضيًا.

لم أكد أصدّق! إلى غرفته تلك؟! الّتي في السّطح؟!

انتفضت، دخلت الحمّام طرطشت على وجهي بعض الماء وانطلقت أصعد الدّرج وثبًا. طرقت الباب فجاءني الإذن بالدّخول. وجدت الغرفة مغمورة بشمس الأصيل.

مصدومًا، خطوت فيها خطوتين وتوقّفت. كنت تخيّلتها بألف هيئة وأخرى، لكنّ ما وجدتها عليه كان بعيدًا عن كلّ خيالاتي.

أنّها مربّعة الشّكل كبيرة الحجم، كان ذلك بالطّبع معروفًا بالنّظر إليها من خارجها. وكان حجمها الكبير إضافةً لحرص أبي الدّائم على إبقائها محرّمةً على سواه، حتّى على أمّي، يوحي لي دومًا

بأنّها مزدحمة بالأسرار. وهكذا فقد أربكني أيّما إرباك أن وجدتها شبه فارغة إلّا من أشياء بدت عاديّة.

نصف الجدار الأيمن مغطّىً بديكورٍ خشبيٍّ مقسّمٍ إلى أرفف واسعة تحوي كتبًا ثخينة. على الجدار المقابل ثُبِّت نوع من مشجب عُلّقت عليه سِبحات متنوّعة الأطوال والألوان. بلاط الأرضيّة عارٍ إلّا من سجّادة صلاة مقتضبة يربض في أعلاها كرسيّ خشبيّ من النّوع المخصّص للمصاحف، يحتضن مصحفًا عتيقًا. للغرفة نافذة واحدة تستهلك أغلب مساحة الجدار المقابل لي، يقبع أمامها مكتب خشبيّ صغير يجلس فيه أبي الآن، يتمعّن ذهولي بطيف ابتسامة.

وكان من شأن وقوفي على هذا الفقر في التّفاصيل أن يصيبني بالخيبة، غير أنّ شيئًا مميّزًا وجدته في جوّ الغرفة راح يهدهدني. إنّه عطر الكتب القديمة، تلك الرّائحة الأثيرة الفوّاحة من الورق العتيق. كنت تعرّفتها في زياراتي النّادرة للمسجد، من تصفّحي العبثيّ للمصاحف الغابرة، وكانت تخلبني. تترك لديّ انطباعًا بعالمٍ سحريٍّ ثريٍّ وجذّابٍ وتغمرني بسكينةٍ تشبه النّعاس. تلك الرّائحة تكفّلت بجعلي أتلقّى أخيرًا قلّة التفاصيل تلك، النّقيصة الّتي ما كنت لأغفرها، بنوعٍ من التبجيل.

"اجلس يا إبراهيم، اجلس يا بني"، خاطبني أبي في تودُّدٍ وقد قام عن مكتبه وجلس على صدر سجّادة الصّلاة.

جلست مواجهًا له، يفصلنا المصحف الضّخم المستلقي على كرسيّه بوقار. مرّ زمنُ صمتٍ طويل مشبع بالرّهبة، قبل أن يبدأ أبي انهماره. تنقّل بين مواضيع شتّى لم أتمكّن من استيعاب أغلبها، غير أنّ نبرة التّوقير الطّافية على صوته جعلتني أتأثّر.

أوصاني بأن آخذ مسألة التعليم بكلّ جدّ، ليس التعليم الّذي سأتلقّاه في المدرسة وإنّما الّذي سأناله في المسجد حيث سأتلقّى تعليمًا خاصًّا منذ الغد، ضمن مجموعةٍ ربّما ستضمّ أيضًا يزيد وعلاء. سنبقى في المسجد كلّ يوم ما بين صلاتَي العصر والمغرب وسيكون أبو يزيد معلّمنا، سيحفّظنا القرآن ويدرّسنا علوم اللّغة ومسائل الفقه وأشياء أخرى.

قال لي: "كلّ ما يهمّني من مدرستك أن تتخرّج منها سريعًا بشهادةٍ تسمح بالتحاقك بالمعهد العالي للعلوم الشرعيّة". وتوقّف برهةً ثمّ استتلى، مشيرًا إلى المصحف: "مستقبلك هنا يا بنيّ، بين دفّتي هذا الكتاب، كتاب الله. ولذلك يجب أن تحفظه بأسرع وقت ممكن. أعرف أنّك ستفعل. ستصير شيخ علمٍ كبيرًا وسيأتي يوم وتصير إمامًا للطّائفة!".

نطق الجملة الأخيرة بعينين شرهتين فابتلعت ريقًا، ولعلّه لحظ ارتباكي إذ سرعان ما أرخى ملامحه. مدّ يده من فوق المصحف وأمسك بيدي: "أريدك أن تتذكّر على الدّوام أنّي أثق بك يا إبراهيم، بقدرتك على تحقيق حلمي هذا. أعرف أنّك ستفعل. أعوّل عليك يا بُنيّ".

ضجرت وكان المغرب يهبط، صارت الغرفة كامدةً بضوءٍ عليلٍ.

أخيرًا أخبرني بأنّ بوسعي الخروج، وفيما وقفت لأفعل قال لي إنّ هذه الغرفة غدت منذ الآن بمتناولي، أدخلها متى أشاء شريطة أن لا يكون موجودًا فيها هو، وأيضًا إنّه ابتداءً من فجر الغد سيصطحبني إلى المسجد مع كلّ صلاة.

وخرجت غير راغبٍ بالعودة إلى هذه الغرفة مرّة أخرى. كان فضولي نحوها شغلني مديدًا، أمّا وقد تكشّفت لي، وعن لا شيء جذّاب أيضًا، فما حاجتي إليها بعد؟!

وفيما كنت أعبر السّطح نحو بيت الدّرج لمحت عمّتي عائدةً من المرعى، محفوفة بمواشيها. أزاح مرآها كلّ الثّقل الّذي كان جثم عليّ. هبطت الدّرج مثل ريح وهرعت إليها.

ألفيتها في الحظيرة، توزّع المواشي على مراقدها. حلبت لي الكوب المعتاد وشرعت تستجوبني كيف أمضيت يومي مُذ

غادرتنا أمام المدرسة. أخبرتها بكلّ التفاصيل عدا سباقي مع عائشة، واستغرقتْ تُحيل كلّ تفصيل كعادتها إلى نكتة، وتجلجل ضحكًا.

بدا أنّها لن تتوقّف عن الضّحك أبدًا. بالكاد خفّفت من الوتيرة في اجتماعنا القصير مع أبويّ على السُفرة، لتعود مستأنفةً جموحها ما أن أوينا أنا وهي إلى غرفتنا.

كانت لديّ طريقتي الخرقاء في ارتداء ثوب النّوم. غالبًا ما تنحشر ذراعاي في الفتحة المخصّصة للرّأس لأجدني مقمّطًا بغتةً بلا حول. وفيما رحت أتماوج في مأزقي مثل دودةٍ منكودةٍ، استبدّ بها الضّحك حدّ التكوّم. ومرّ زمنٌ إلى أن تمالكت نفسها وحرّرتني، لنبتدئ من ثَمّ طقسنا السحريّ، صلاتنا الأثيرة.

أخيرًا، بعد أن أتمّت الحكاية، ذهبنا لإنجاز آخر بنودنا اللّيليّة: رافقتني إلى الحمّام.

لم أكن دخلت الحمّام مُذ عدت من المدرسة. ما أن جلست إلى المرحاض حتّى عادت الحيرة وتملكّتني. زال تأثير الحكاية لصالح السؤال التّالي: لماذا عائشة لا تمتلك خرطومًا؟! أمسكني الفضول من خناقي.

كانت عمّتي واقفةً أمام باب الحمّام، ممسكةً السِّراج تنتظر خروجي بصبر. فكّرت بأنّها لا شكّ تعرف شيئًا حيال الأمر. ولكن كيف عساي أسألها؟ ستعاقبني لو عرفت بما حدث.

ظللت مزعزعًا: أستفسرها أم لا. قررت أخيرًا أن أفعل.

كنّا صرنا بغرفة نومنا.

"عمّتي، أيمكنني أسألك سؤالًا؟".

كانت تُعِدّ فراشها للنّوم. قرصتني على خدّي مداعبةً، مبديةً استغرابًا محبّبًا من لهجتي هذه المتوجّسة المهذّبة الغريبة كليًّا عن تعاطينا.

"قل يا ولد، سل عمّتك ما تشاء".

"لكن ألن تغضبي؟".

"لا، لن أغضب".

"وعد؟".

"وعد".

"احلفي!".

"ولد، ما بك؟! هيّا.. قل".

"حسنًا عمّتي، سأقول.. أخبريني أرجوك: هل ثمّة فتيات ليس لديهنّ ذلك الشّيء؟".

"أيّ شيء؟!"، سألت بعينين مزرورتين.

كيف عساي أقول لها؟ يا إلهي، ما هذه الورطة؟!

"أفصح يا ولد"، قالت مبتسمةً باستغراب.

"حسنًا حسنًا، سأقول. ولكن تذكّري أنّك وعدتِني".

وبعد دقيقة تهيّب أخرى:

"أعني، هل هناك فتيات لا يمتلكن هذا الشّيء الّذي نتبوّل به؟"، قابضًا الشّيء خاصّتي من وراء سروالي.

بقيت صامتةً لوهلة ثمّ انفجرت ضاحكةً كما لم تفعل من قبل. انهمرت الدّموع من عينيها وراح منخراها يختلجان على نحوٍ فائقٍ، متلوّيةً كما لو من ألم.

لا بأس. اعتدت منها هذا التّلقي. انتظرت إلى أن تمالكت نفسها وخاطبتها بهدوء:

"إذًا؟!".

كرعت ضحكةً أخرى، ثمّ، قارصةً خدّي بوداعة:

"تبًّا لك يا فتاي! تبًا لك! ستقتلني ضحكًا! آه!".

وفيما تمسح عن عينيها الدّمع:

"نعم يا فتاي المجنون، هنالك فتيات لا يمتلكن مثل دودتك الصّغيرة: كلّهنّ أيّها المشاكس، كلّهنّ!".

ارتبكت:

"ماذا؟! كلّهنّ؟!".

"نعم، كلّهنّ. أقسم لك"، وانهمكت تضحك من جديد.

بقيت ساكنًا لبرهة، أحاول استيعاب الأمر.

ولكن أليست عمّتي أيضًا فتاة؟! صحيح أنّها كبيرة، لكنّها على كلّ حالٍ فتاة. أيعني ذلك أنّها أيضًا لا تمتلك خرطومًا؟! أم أنّها تقصد فقط الفتيات الصّغيرات؟!

كان الفضول لا يزال متحكّمًا، وكانت لحظتها تشرب.

وفيما تُقَعقِع قنّينة الماء:

"عمّتي، ماذا عنك؟! أليس لديك أيضًا؟!".

انفجرت. طار من فمها سوطُ ماءٍ ضرب وجهي وتدفّق منخراها ماءً أيضًا. أفلتت القنّينة تتحسّس عنقها وصدرها وتُصارع شهيقًا وحشيًّا. وقفت. أرادت الوثوب نحو الباب لكنّها تعثّرت بغطاء الفراش وسقطت على ركبتيها بيأس. أمسكت كتفي بيدٍ وراحت تهزّني فيما تشهق بذعر.

تبلّدتُ، لم أدرِ ما الّذي يحدث ولا ما ينبغي أن أفعل. أمسكتها من كتفيها مرتعدًا ومحملقًا في عينيها الجاحظتين الدّامعتين. لم تعد تشهق. أرخت ذراعها من على كتفي، وبإصبعٍ يرتعش بالكاد، أشارت نحو الباب، وفقط بتلك اللّحظة تذكّرت أنّنا لسنا وحدنا في هذا المنزل اللّعين.

طفرت إلى باب غرفة والديّ وانهلت عليه بيديّ وقدميّ.

ثوانٍ وصارا بجانب عمّتي، شبه عاريَين.

"لا حول ولا قوّة إلّا بالله. إنّا لله وإنّا إليه راجعون!"، غمغم أبي كافًّا أصابعه عن جسّ عنق عمّتي، وقد وسّد رأسها فخذه.

لم أكن كففت عن هذياني المحموم، أخبرهما بأنّ عمّتي اختنقت بالماء.

"لقد ماتت!"، استأنف أبي متوجّهًا بالحديث إلى أمّي.

ما الّذي يعنيه بأنّها ماتت؟! لم أفهم.

مهلًا! أيقصد أنّهم سيأخذونها إلى هناك؟!

لقد منعوني دومًا، أنا وأصدقائي، من مرافقتهم في مواكبهم القليلة تلك، لكنّهم أخبرونا ما الّذي يفعلونه هناك: يحفرون أخدودًا، يكرعون حمولتهم فيه، يهيلون عليها التراب ويعودون!

أيقصد أبي الآن أنّهم سيفعلون هذا بعمّتي؟! يا له من وحش! لقد عرفت دومًا أنّه يكرهها، لكن لم أتصوّر أن يبلغ هذا الحدّ.

وثبت مصعوقًا، تشبّثت بعمّتي وطفقت أصرخ منتحبًا. أمطرت أبي شتائم بلا عدد، وقاتلت. بأظافري، بأسناني، بقدميّ، بصوتي، بكلّ كياني قاتلت. وكلّما ازدادت محاولات أمّي لتهدئتي، ازددت عنفوانًا. ناوشتها مثل قطٍّ محاصر. لن يأخذوا عمّتي إلى

هناك، إلى قطعة الأرض الكئيبة تلك. فليقطّعوني إربًا، لكن لن أدعهم يأخذونها. عمّتي ستبقى لي هنا، لمواشيها نهارًا ولي في اللّيل. ستبقى تحكي لي كلّ ليلة حكاية جديدة، إلى الأبد، إلى الأبد.

استسلمت أمّي أخيرًا، تنحّت بوجهٍ مخمّشٍ وعينين هاميتين. أرخت رأسها إلى كتف أبي وانهمكت تنشج. وبقيا يتمعّنان التصاقي المستبسل بعمّتي بتأثّر، فيما تمحّصهما عيناي من خلف ستار الدّمع إلى أن بدّدهما النّوم.

حين صحوت وجدتني وحيدًا في غرفة أبويّ، الغرفة تنضح شمسًا. بقيت جالسًا على الفراش لوهلة، بمنأىً عن حدث البارحة، أتساءل ما الّذي أتى بي إلى هنا وأحسّ بثقل ساحق. لكنّ الذكرى سرعان ما دهمتني فهرعت ثائرًا، أناطح الباب الموصد بإحكام.

سيأخذانها! هذان المخادعان! سيأخذانها! سجناني هنا ليتمكّنا من ذلك!

فُتح الباب بغتة فاندفعت محتشدًا. وجدت المنزل ينغل بنسوة مجلّلات بالسّواد. لم أجد عمّتي في غرفتها، فقط بعض رفيقاتها يولولن برتمٍ باهتٍ.

كيف بقيت نائمًا إلى هذه السّاعة؟! ها هم نجحوا في إبعادها عنّي، استغلّوا نومي وفعلوها.

ميّزت أمّي جالسةً في آخر الحشد المتهدّج فشققت طريقي إليها. أمسكتها من كتفيها ورحت أهزّها سائلًا عن عمّتي بصوتٍ مجرّحٍ وعينين سكّابتين.

ذهبت إلى الجنّة. أخذها الله إليه، إلى السّماء حيث ستكون على خير ما يرام. إنّها الآن أكثر سعادة، تراقبني من عليائها، وعليّ أن أكون سعيدًا من أجلها أيضًا!

بدت لي هذه الكلمات سخريةً أكثر منها تربيتات.

لِمَ قد يقرّر الله أن يأخذ عمّتي هكذا فجأة؟! لماذا هي بالذّات؟! لِمَ لم يأخذ أبي مثلًا عوضًا عنها، أو أنت يا أمّي؟! أو إن كان أصرّ على عمّتي تحديدًا، لِمَ لم يأخذني معها؟!

إنّني أحبُّها، أحبُّها!

ألم يخبروني دومًا بأنّ الله يحبّني؟! لِمَ قد يأخذ منّي إذًا من أحبُّ؟!

أمطرت أمّي بهذا الوابل من الأسئلة، يزداد هياجي مع كلّ سؤال.

لم تحر جوابًا.

ولكن لحظة! أمّي تكذب. لم تصعد عمّتي إلى السّماء. لم تفعل. أمّي تحاول فقط إلهائي ليتسنّى لأبي إتمام مخطّطه! أعرف أين عمّتي. بالتّأكيد أخذوها إلى المسجد، إلى حيث ينطلق الأهالي حاملين النّعش إلى المقبرة، كما يحدث دومًا حين يكون لديهم من يوارونه.

يا للخداع! يخبرونني أنّ عمّتي صعدت إلى السّماء في حين نيّتهم أن يدسّوها في التراب!

سأذهب إلى المسجد إذن وأمنعهم. فليفعل بي أبي ما يشاء، لكنّ عمّتي لن ترحل عنّي لأيّ مكان.

اندفعت بكلّ ما بي من قهر، لكنّني ما كدت أبلغ الحوش حتّى وقفت على مشهد جمّدني.

غير معقول!

ملامح أبي، ولكنّه رجل آخر. ما عدا الشّكل الغريب للعمامة، لم يبدُ ثمّة فرق ظاهر، لكنّني ميّزت من أوّل وهلة أنّه ليس أبي. اقتربت في توجّسٍ إلى أن غدوت على بعد خطوة. تسمّرت غارزًا عينيّ في ملامحه. كان في الحوش رجال آخرون لم يعد بوسعي أن أراهم. استحوذ عليّ هذا الرجل.

كان وجهه مكسوًّا بحزنٍ نقيٍّ عميقٍ، وعيناه مخضّلتين. أبي لا يحزن هكذا. أبي لا يبكي. أبي يغضب وحسب.

انتبه الرّجل. حدّق فيّ لوهلة. ابتسم. اقترب. ضمّني إليه وقبّلني.

"لا شكّ أنّك إبراهيم"، واتسعت ابتسامته مضيفًا: "أنا عمّك يا بنيّ!".

وكأنّ ذلك لم يكن كافيًا، أشار نحو فتاةٍ تتعدّى بتلك اللّحظة عتبة المنزل خارجةً صوبنا، معرّفًا إيّاها بـ"زهرة"، ابنته!

تبخّرت عمّتي من ذهني كليًّا. انسللت من بين ذراعيه وجرجرت خُطاي عائدًا إلى أمّي، مُثقلًا بالحيرة وبشيء من الخوف.

دسست نفسي إلى جوار أمّي وهمست أستفسرها عن تلك النّسخة من أبي وعن الفتاة. أخبرتني أنّه عمّي وأنّ تلك ابنته، واحتضنتني.

ذُهِلت.

أين كان عمّي هذا وابنته؟! لماذا لم أرهما من قبل؟! من أين جاءا وهل سيبقيان؟! لكنّني كنت مدركًا أنّ الوضع ليس مواتيًا لأُخضع أمّي الآن لهذا الاستجواب. اكتفيت بالذهول.

دُفِنت عمّتي بعد صلاة الظّهر. لم يسمحوا لي بمصاحبة الموكب. أمرني أبي بحزمٍ بالبقاء، وكان وجود زهرة إلى جانبي قد منحني كامل العزاء فرضخت سريعًا. اصطحبتها إلى ميدان اللّعب، رفقة يزيد وعلاء وعائشة. كانوا علموا أيضًا بموت عمّتي باكرًا وقرروا المجيء لمساندتي وعدم الذّهاب إلى المدرسة. ولنحسن وفادة ضيفتنا، انخرطنا معها في ألعاب مختلفة، متغاضين عن الاختلال النّاشئ عن صيغتنا الجديدة هذه غير القابلة للقسمة المتساوية إلى فريقين.

بدت زهرة جميلة جدًّا، كلّ تفاصيلها تنضح عذوبة. أنا ويزيد وقعنا في غرامها على الفور، وأبدى علاء حيادًا تجاهها، أمّا عائشة فبالكاد كبحت غيرتها: لم تعد هي الفتاة الوحيدة في المجموعة!

خامرني حسّ عظيم بالفخر، فهذه الزّهرة في النّهاية ابنة عمّي، أقرب إليّ منها إليهم. خلبتني، وربّما لو بقيت زمنًا أطول لكانت ورثت عمّتي في وجداني وصارت معبودتي، لكنّها غادرت مع أبيها قُبيل غروب ذلك اليوم.

رحلت زهرة لتعود على الفور حاجتي إلى عمّتي تنهش أحشائي. رحلت فاستيقظ خوفي بكامل عنفوانه، خوفي من وحشة اللّيل وتجهّم الأهل. ابتلعها الغروب كما ابتلع الشّمس فانسلّ الظّلام إلى دواخلي واستشرى.

تسلّقت الدّرج إلى السّطح، دخلت الغرفة المحرّمة وتهالكت إلى كرسي المكتب. ألقيت برأسي إلى الوراء وحملقت في السّقف. هجم عليّ الشّعور بالوحدة مثل جيشٍ من البراثن العطشى. تكوّم البكاء في عنقي ثمّ انهمر غزيرًا من أحداقي.

كيف سأحتمل اللّيل منذ الآن؟! كيف سأحتمل ليلًا بلا حكايات ولا دفء ولا ألوان؟! ليلًا قاحلًا مثل قلبٍ عصفت به لعنة؟! كيف؟!

الحقيقة أنّ ذلك الفيض من الدّمع يشكّل، في سياق إجابتي هذه، نهاية مرحلة وبداية أخرى. وأظنّ من المناسب أن أتوقّف الآن برهةً وأستمع انطباعك. أربكني بقاؤك صامتًا كلّ هذا. أعرف أنّك قد لا تكون معنيًّا سوى بطرح السؤال وأنّه كان من الأفضل ربّما لو اكتفيت بسرد الإجابة لنفسي، لكنّني ما زلت محكومًا بطباعي البشريّة، بحاجتي الأصيلة للمشاركة، وأظنّ من اللّياقة أن تقدّر ذلك. فهيّا إذن، أخبرني عن انطباعك.

بربّك! ما كلّ هذا الصّمت؟!

قل شيئًا، قل أيّ شيء!

أخبرني على الأقلّ ما إن كان صوتي يضايقك، صارحني وسأبوح بباقي الإجابة لذاتي وحسب.

حسنًا، لا بأس. يبدو أنّك مصرّ على صمتك. لك الحقّ في ذلك بالطّبع، لك كلّ الحقّ. على أنّني سأعتبر أن لديّ أيضًا الحقّ في إكمال إجابتي على نحو ما بدأتها. أظنّه منتهى العدل!

ما الّذي عنيته إذن بقولي إنّ دموعي تلك تُشيِّع مرحلةً من حياتي وتستفتح أخرى؟ أتتذكّر حين أخبرتك عن الوفرة الّتي ظلّ الوجود يغدقها عليّ في باكورة طفولتي؟ في الحقيقة كنت توهّمت

ذلك كانعكاسٍ لتوق حواسي الفطريّ لتوسيع دائرة المدركات. لكنّ الواقع أنّ بيئتي كانت فقيرة التفاصيل، كما أنّني ظللت مسجونًا في حدودها. وبذلك فقد كانت سنواتي السّبع الأولى زمنًا كافيًا لارتشاف أغلب التفاصيل الواقعة ضمن الحيّز الإدراكي الممكن لطفل.

فها هي السّماء كفّت عن أن تفاجئني بظاهرة جديدة. السّحاب، الشّمس، البرق، المطر، قوس قزح ثمّ لا شيء جديد. حتّى السّماء الليليّة، والّتي اكتشفتها بأوّل أسبوع من انتظامي في صلاتَي الفجر والعشاء في المسجد، لم ألبث أن اعتدتها. تمتدّ حال الصّحو برقعًا لا نهائيًّا مثقّبًا ببلايين الأضواء الصّغيرة وقمرٍ لا يملّ يكرّر الرّحلة ذاتها كلّ شهر، من ميلاده كخيط هلالٍ دقيقٍ إلى اكتماله قرصًا من الفضّة المنيرة في أسبوعين، ثمّ العودة نكوصًا في أسبوعين أيضًا. أمّا حين تكون الغيوم مهيمنةً فسماء اللّيل محض بلاطة كابية ممتدّة. ثمّ لا دهشة أخرى قد تفاجئك بها تلك السّماء عدا شُهُب تمرُق أمام ناظريك بين حينٍ وآخر وسرعان ما تغدو هي الأخرى مألوفة.

الأرض أيضًا غدا كلّ ما فيها مملًّا، مكرّرًا بإسراف. الجبال المحيطة بالبلدة ظلّت هي ذاتها، الأشجار كذلك والأحياء. حتّى ذلك التّغيير في الأردية ما بين فصلٍ وآخر، غدا بدوره معتادًا. ربّما

البشر وحدهم لا يقطعون عنك مفاجآتهم، مفاجآت غالبًا ما تجلب الاشمئزاز. نعم قد تلتقي بين مدّة وأخرى روحًا بشريّة نقيّة تشعّ في دربك ضوءًا جميلًا ما، لكنّ ذلك لا شيء أمام ما تظلّ تغرقك به الكثير من الأرواح المظلمة من عتام. لكن دعني لا أفلت خيط السّرد أكثر، وهنا سأقول إنّ تلك السنوات من عمري، من السابعة حتّى الرّابعة عشرة، مضت متخفّفةً لحدٍّ بعيدٍ من كلّ شعورٍ عميقٍ وسامٍ. كانت فترة خواء، لم تتوهّج فيها عاطفتي إلّا نادرًا وفقط على هيئة حزن أو حنق، وأبدًا لم يمازجني فيها ذلك الشّعور بالامتلاء على نحو ما كان مثلًا في تمعّني السّحاب وقوس قزح أو في حضن عمّتي صفيّة وجوّ حكاياتها. كانت سنوات بلا روح، وإذا ما جئت لأمنحها عنوانًا ملائمًا فسيكون السّأم.

في بداية تلك المرحلة، بعد أن كان تكرار الظّواهر قد أفقدها بريقها السحريّ وأسلم حواسي لعثّة الروتين، وبتأثيرٍ من الضّخ التوجيهيّ الّذي ما انفكّ الجميع يحاصرني به لأمتثل للإله الأوحد القابع في الأعلى، بعيدًا وبمنأىً عن الحواس، وجدتني مجبرًا على التّسليم. انخرطت بإذعانٍ في الأداء الجمعيّ للعبادات، ولكن دون أن يتعدّى ذلك المظهر. كان التزامًا صوريًّا لم ينفذ للباطن إلا لمامًا وبما يشبه الوميض.

أقلعت عن الوضوء بعد نحو أسبوع من التزامي القسري بصلاة الجماعة. ليس فقط بسبب الملل وإنّما أيضًا كنوعٍ من التمرّد على أبي. فمع إصراره على أن يسوقني إلى المسجد مع كلّ صلاة، ومع عدم امتلاكي ما يكفي من الشّجاعة للرّفض، لم أجد أمامي سوى انتهاك تلك العبادات بالإخلال بشروطها ما أمكن. كنت أشعر في ذلك بقدرٍ من الارتياح وكأنّني أنجزت انتقامًا ما. وفي شهر رمضان أصوم فقط عن الأكل وذلك لاستحالة تناول الطعام دون التعرّض لخطر الانكشاف، أما الشّرب فلم أتورّع عنه يومًا، إذ ما عدا صنبور حمّام منزلنا لم يكن بوسع أحد أن يطّلع على هذا الانتهاك، ولم يحدث أن تبرّم الصنبور يومًا أو أبدى ضيقًا!

على أنّ شعورًا بالخواء بقي يحضرني من هذه النّاحية على فترات، يهمس بضرورة حلول الإله، اعتناقه والامتلاء به. وكانت حواسي تسارع حينها تذكّرني بحقّها في أن تكون هي الوسيلة المباشرة للوصول لذلك الإيمان، وهو ما ظلّ متعذّرًا. كما أنّ الضّرر النفسيّ الّذي خلّفه نهر القهقهات السّاخرة ذاك في بداية علاقتي مع الإله لم يبرح ينتصب ملء كياني، يعلن قبولي الفكرة على نحو ما يتصوّرها المجموع تقويضًا كليًّا لكبريائي واعتزازي بذاتي.

لم يكن صراعًا محتدمًا رغم ذلك أو مستمرًّا. كان نوعًا من تجاذباتٍ نفسيّةٍ تأتي بشكلٍ خاطفٍ على فتراتٍ متباعدةٍ.

والحقيقة أنّني ما كنت لأنوّه إلى هذه الفترة الرّاكدة من حياتي لولا احتواؤها بضعة أحداثٍ سيستدعيها السياق تاليًا، يأتي اتّخاذي قرار قتل أبي على رأسها.

مع أنّ السّبب المباشر لهذا القرار جاء مُباغتًا إلّا أنّه سُبِق ببعض التمهيدات.

في تلك المرحلة توزّعتني ثلاث مؤسسات: المنزل والمسجد والمدرسة. كانت الأخيرة مكمن قوّتي. برهنت فيها على تفوّق ملحوظ. لم يسبقني أيّ من الزملاء، بمن فيهم يزيد وعلاء. أمّا عائشة فقد كفّت عن الدراسة في الرّابع الابتدائي. كان ثمّة قناعة جمعيّة لدى الأهالي بلا جدوى تعليم الإناث، وفي حالة عائشة اتّفقت تلك القناعة ورغبتها.

تفوّقي المدرسيّ لم يشفع لي عند أبي تأخّري في التّحصيل المسجديّ. ففي حين نجح يزيد وعلاء في حفظ القرآن كاملًا في سنتين، لم أكد أنا أتمّ حفظ السُّوَر القصار. استعصى عليّ الحفظ، بل استحال. وحتّى حين أنجح بعد لأيٍ في حفظ سورة ما، سرعان ما تعود فتتبخّر من ذاكرتي.

بذل معي أبو يزيد، الشّيخ، جهدًا كبيرًا بلا طائل. توجّب عليه أن يجيبني عن عشرات الأسئلة حول كلّ آية، وكلّ إجابة تتمخّض بدورها العديد من الأسئلة في انشطارات مجنونة، ودون

أن ينجز ذلك حفظًا ما. يئس الشّيخ منّي أخيرًا وتلقّى أبي ذلك مثل هول.

حاول أبي في البداية أن يحلّ هذا الإشكال بأن خصّص لي وقتًا مسائيًّا يسند فيه جهود صاحبه، لكنّه ما لبث أن اصطدم بذات الصعوبة، ليعلن في الأخير استسلامه أيضًا. وكان ذلك يعني له موت حلمه الأثير، حلمه بأن يصيّرني عالم دينٍ كبيرًا وإمامًا للطّائفة. حزن بشدّة، وأثقلني حزنه بشعورٍ دبقٍ كريهٍ. صحيح أنّني لم أفهم يومًا حلمه ذاك ولم أحسّ نحوه بأدنى دافعيّة، إلّا أنّه كان يعزّ عليّ أن أتسبّب في اغتمامه. لكن ما عساي أفعل؟! لم يكن الأمر بيدي.

فشلي هذا في المسجد لم يلبث أن ألقى بظلاله الكئيبة على تعامل أبي معي في المنزل، صار تعاملًا مسمّمًا يغذّيه شعور عميق بالخيبة.

ولم تكن دروسنا المسجديّة مقصورة على تحفيظ القرآن. كان ثمّة أيضًا دروس الفقه والسِّيَر. أمّا الفقه فسرعان ما صار في وعيي رديفًا للنّوم. يكفي فقط أن يتلفّظ الشّيخ بجملتين منه حتى تتثاءب كلّ خلاياي. وعلى النّقيض أتت السِّيَر، سِيَر الأنبياء وكبار المؤمنين. مضت تعيدني لذكرياتي مع عمّتي، لحكاياتها السحريّة البهيجة، وكانت الأيّام المخصّصة لها هي أجمل أيّامي المسجديّة.

احتلّت الحروب في تلك السِّير جزءها الأكبر، وكان الشّيخ من البراعة في الحكي بحيث يجلّي لنا المعركة فكأنّنا نُطِلّ عليها واقعًا. ذلك العرض المدهش كان يفعمني بالحماسة. ومع أنّ الشّيخ لم يدّخر جهدًا في توجيه عاطفتنا نحو المؤمنين، إلّا أنّني ظللت أنبهر بالتفاصيل لذاتها، بالفروسيّة لذاتها، ببراعة الخطط لذاتها، دون أن أهتمّ بمن الّذي انتصر في النّهاية، المؤمنون أم الكفّار، ودون أن أنتبه كم أنّ ذلك الحياد العاطفيّ يوشك يجلب عليّ بلاءً ساحقًا.

كنت حينها في العاشرة من عمري، وقد اتّسعت حلقة صداقتنا بانضمام آخرين. ولأنّنا مللنا ألعابنا السّابقة، شاعرين بأنّها لم تعد تناسبنا، استنبطنا من تلك السِّيَر لعبة جديدة. ويتعيّن أن أنوّه هنا إلى أنّ عائشة لم تعد ضمن التشكيلة. لقد تنقّبت وبات من شأن أدنى محاولة من أحدنا للحديث معها أن تصيّره علكةً بأفواه الجميع. التحدّث إلى البنات؟ أيّة فضيحة وأيّ عار! لم نفهم هذه الانعطافة في علاقتنا معها غير أنّنا تقبّلناها ككلّ الأشياء الّتي لُقِّنّاها من قبل والتزمناها دون وعي. والحقيقة أنّ تلك اللّعبة ما كانت لتناسبها. إنّها لعبة الرجال الأثيرة، لعبة الحرب.

كنّا نجتمع في الميدان وننقسم إلى فريقين: مؤمنين وكفّار. وكان يزيد وعلاء يشترطان في كلّ مرّة أن يكون فريقهما هو فريق

المؤمنين وأتقبّل الأمر بطيب خاطر ودونما حساسيّة. وكما جرت العادة، ولأنّنا الأقوى بُنية، بقيت على الدّوام قائدًا لجيش الكفّار، يقابلني يزيد في جيش المؤمنين.

أسلحتنا سيوف خشبيّة وتروس من الصّفيح المهترئ. تبتدئ المعركة بمبارزة فرديّة ثمّ التحام الجيشين. وكان المؤمنون يفوزون يومًا ونحن الكفّار يومًا، وذلك باتفاق ضمنيّ لم يختلّ أبدًا.

لا أتذكّر كم دامت لعبتنا تلك أيّامًا، لكنّني أتذكّر تمامًا كيف انتهت.

في ذلك اليوم قدت جيشي ببسالة منقطعة النّظير. نائبي أيضًا أثبت حنكةً تليق بجنرالٍ عظيم. استطاع مع مجموعته إنجاز التفاف عبقريّ باغت به العدوّ، محقّقًا بذلك نصرًا حاسمًا لإمبراطوريّتنا العظيمة، إمبراطوريّة الكفّار، وبضربةٍ تكاد تكون صفريّة. في زمنٍ ضئيلٍ امتلأ الميدان بجثث أولئك المؤمنين الأغرار الّذين داهموا إمبراطوريّتنا بتبجّح الفاتحين. وهناك، تحت شمس الظّهيرة اللّاهبة، رفعت سيفي الأسطوريّ طاعنًا الأفق بلا هوادة، مُلقيًا على جنودي خطبة حماسيّة جعلتهم يهتفون باسمي ملء الدّنيا، أنا القائد الّذي لا يُهزم!

كان انتصارًا باهرًا، واقعةً جديرةً بالخلود! وكان ثمّة قنينة بلاستيكية مرميّة بالقرب، انتشلت غطاءها، ثقبته، مرّرت خيطًا عبر الثقب ووهبت القلادة جنرالي الشّجاع تثمينًا لدوره، منهيًا بذلك مراسيم احتفاليّة جيشي بالنّصر وبالتّالي اللّعبة ككلّ. وكانت صلاة العصر موشكةً فانفرطنا كلٌّ إلى منزله. سنتوضّأ ونذهب لدوامنا المسجديّ.

لم أكن أعلم أنّ أبي ينتظرني في حوش المنزل، يتميّز غضبًا. اكتشفت فقط مع أوّل ضربة من عصاه، ضربة ساحقة في الرّأس لو أنّني تلقيتها من أحد المؤمنين قبل قليلٍ لكانوا انتصروا على الفور وإلى الأبد، ولكانت سنابك خيلهم تقرع الآن بلاطي الإمبراطوريّ. مع ذلك لم يشأ أبي جعلها ضربة يتيمة فمضى يمنحها العديد من الأخوات. رأسي، كتفاي، يداي، رجلاي، مؤخرتي، ظهري.. لم تُبقِ تلك العصا عضوًا لم تنزل عليه مراتٍ ومراتٍ مثل سوطٍ من نار.

لم أبكِ ولم أتزحزح. ليس أنّني كنت لا أزال متمسّكًا بشخصيّة الإمبراطور، بما يتطلّبه ذلك من تحدٍّ وجسارة، وإنّما لأنّ المباغتة صيّرتني كتلةً من بلادة. ثمّ في لحظةٍ من ذلك الجحيم، كزرت على أسناني وحدّقت في جمرتَي عينَي أبي بثبات. لا أعرف كيف تجاسرت على ذلك. لم أحِد عن عينيه قط، وكلّما أمعنت

ازدادت تلك العينان اتّقادًا، إلى أن قرأت فيهما رغبة حقيقيّة في إفنائي، في قتلي.

أفلتَ عصاه أخيرًا، ما كان بقي منها، أمسكني من عضديّ ورماني إلى جدار المنزل بكلّ قواه. رماني مثل شيء بلا قيمة، مثل عبء قذر يرغب بالخلاص منه.

تكوّمت أسفل الجدار أنضح دمًا وكراهية، مواظبًا على طعن عينَي جلّادي بنظرتي الثّابتة.

وبالطّبع لم يظلّ أبي صامتًا طوال ذلك. كأيّ مقاتل، كانت له صرخته: "قائد جيش الكفّار أيّها الحقير؟! أنا، الشّيخ جبل، أربّي في منزلي كافرًا صغيرًا؟! أردتك عالمًا وإمامًا، وتريني فيك قائد كُفرٍ!".

ولم يكن قرّر أن يعتقني. ولولا تدخّل أمّي، التدخّل المتأخّر المُعتاد، لكان ربّما أجهز عليّ.

بقيت طريح الفراش أيّامًا. أين عمّتي صفيّة الآن؟! اكتأبت هذه المرّة وما من طبيب. مضت الآلام تمزّقني جسدًا وروحًا. ثمّ شيئًا فشيئًا أخذ شعوري بالضّغينة يتجاوز شعوري بالألم، إلى أن انضفر فيّ الألم والغضب والكراهية بهيئة قرارٍ حاسمٍ كبير: سأقتل أبي! سأفعل ما أن أغدو كفؤًا لذلك. ذلك الوعيد وحسب بقي يعزّيني. لكم أتحرّق لأفعلها، لأقتصّ من هذا الغول وأغادر

البلدة الكئيبة! وأخذت تتعاظم فيّ من حينها رغبة عارمة للانعتاق، لمغادرة الشّرنقة البائسة والتّحليق في البعيد.

أبي أيضًا بدا عاجزًا عن تجاوز الأمر، وإنّما على طريقته. فمع عجزي عن حفظ القرآن، وأيضًا ما اعتبره هو برودًا في عاطفتي الدينيّة، لم يعد لديه أدنى شكّ في عدم أهليّتي لتحقيق حلمه. كيف سيحلّ الأمر إذن؟ بأن يحظى بالمزيد من الأولاد. بالتّأكيد سيفلح أحدهم في ما عجزت عنه أنا.

عرفت مسعاه هذا بعد أيّام، من المشادّات الّتي أخذت تنشب بينه وأمّي. فبمجرّد أن أفصح لها عن رغبته هذه، حملت هي الأمر على أنّه تصريح مُبطّن بسعيه لأن يمنحها ضرّة. وعبثًا مضى يقنعها بأنّه يريدهم من رحمها هي.

في إحدى اللّيالي اندلعت بينهما مشاجرة نمَت إلى غرفتي. كانت أمّي خلصت إلى أنّ أبي ينتوي الزواج من أمّ صديقتي عائشة: تعرف الوِدّ الدّفين الّذي يكنّه لتلك المرأة الّتي يُعيلها وابنتها! في تلك الليلة اكتشفت أيضًا أنّ أبا عائشة قُتِل في الحرب مفتديًا أبي.

واستنفرت أمّي تبحث من حينها عن علاج يمكّنها من الحمل. وبالفعل تحقّق لها ذلك في غضون أشهر قليلة، وأيّة فرحة كانت حين وضعت!

لم أرَ وجه أبي متهلّلًا كما في ذلك اليوم، فقد وُهِبَ توأمين: الحسن والحسين. أولم في يوم مولدهما عشرة خراف، وفي يوم ختانهما عشرة. أمّي أيضًا بدت متألّقةً مثل زغرودة. من ناحيةٍ رُزقت بتوأمين آيتين في الجمال، ومن أخرى خمدت توجّساتها حيال زواج أبي.

بالنّسبة لي: لقد وفدت إلى أسرتنا دُميتان لا تكفّان عن المواء، دُميتان ألقيتا عليّ المزيد من الظّل حتّى لأوشك أغدو لا مرئيًّا. وكان أكثر ما يستفزّني ملاحظة كم توليهما أمّي من اهتمام وكم تمنحهما من دلال. لم أصدّق أبدًا أنّها منحتني هذا القدر من العاطفة حين كنت لا أزال مثلهما، قطعة مواء صغيرة.

كان هذا هو الحدث المهمّ الثاني في تلك الفترة. ولم تكد تمرّ سنة حتّى وجدتني أمام حدثين مزلزلين، ليس لي فقط وإنّما للبلدة ككلّ.

في البداية، مقتل عائشة. قتلها زوجها ليلة زفافهما، شاب ثلاثونيّ من العاصمة تربطه بها صلة قرابة من جهة أبيها. حين جاء يلجها تفاجأ بالطّريق سالكًا، لا مقاومة ولا دماء. لم يكن ذلك بالجُرم الّذي يُغتفَر. قام عنها ثائرًا ومنحها رصاصة في القلب.

حلّق الخبر من فوره، ملأ الأصقاع وصار وصمةً مُذلّة ليس فقط لأمّ الفتاة، وإنّما أيضًا لجميع أهالي البلدة. "البلدة الّتي تُبقي عذريّة فتياتها بمتناول خراطيم العابرين!".

كان الجميع يعلم عفّة عائشة، عائشة الّتي لم تكن غادرت الطفولة بعد، لكنّ الكلّ بقي صامتًا. "ما حصل قد حصل، وما عاد بوسع الخوض في الأمر إلّا أن يزيد الفضيحة زخمًا وانتشارًا".

وفيما البلدة لا تزال رازحةً تحت هذه الصّدمة، بوغتت بفجيعة من العيار ذاته. فبينما كان اثنان من الأهالي ماضيَين بمواشيهما صوب المراعي الجبليّة، فوجئا بجثّة يزيد بجانب أجمة كثيفة بالقرب من النّهر، بطعنتين في الصّدر مُتخثّرتين. ارتجّت البلدة لهذا النّبأ ودبّ الرّعب في أفئدة الجميع.

"كيف حدث ذلك؟"، مضى الكلّ يتساءل.

كان يزيد أقدم قبل أسابيع على أمرٍ تسبّب في فصله من المدرسة. ضُبط وهو يحاول تمرير رسالة غراميّة لفتاةٍ تسكن منزلًا مجاورًا للمبنى المدرسيّ. وزيادةً في سوء حظّه كان مدير المدرسة شخصيًّا هو من ضبطه. أصدر في حقّه قرار فصلٍ لا يقبل النّقض.

تلك الرسالة صارت لأيّامٍ هي الموضوع الرئيسيّ، بل الوحيد، للتّلاميذ والمدرّسين على حدٍّ سواء. طاف الخبر المنازل المجاورة إلى أن بلغ والد الفتاة الّذي اقتحم المدرسة من فوره،

يرغي ويزبد بأنّه سيقتل ذلك الولد، أي يزيد، ويغسل عاره، لكنّ يزيدًا كان كفّ عن المجيء منذ تلقّيه قرار المدير.

وبالطّبع لم تلبث الرّياح أن حملت الخبر إلى البلدة أيضًا ووزّعته بين الأهالي. وكان الشّيخ أبو يزيد أكثر انسحاقًا به من ابنه. لم يُحمَل الخبر على أنّه لطخة مهولة في سجلّ يزيد وحسب، الفتى حافظ القرآن وحامل مفاتيح المسجد، وإنّما أيضًا في سجلّ والده، الإمام والخطيب. اُعتُبر بمثابة رِدّة أقدمت عليها العائلة عن كلّ تاريخها النّاصع.

في تلك الأيّام بدأ الكلّ يتحاشى يزيدًا عداي. أردت المضيّ في صداقتنا وكأنّ شيئًا لم يكن، لكنّ التداعيات كانت ضعضعته لحدٍّ بعيدٍ. طلب أن أتركه أنا أيضًا: يحتاج البقاء وحيدًا لفترةٍ. فهمت رغبته وانسحبت.

وكان مقتل عائشة، الحدث الّذي جاء تاليًا بأيّام، قد صرف الأهالي عن فضيحة يزيد، وها هي جثّته تُعيده لصدارة اهتمامهم.

في البداية أشارت أصابع الاتّهام نحو والد فتاة الرسالة، لكنّ التحقيقات ما لبثت أن برّأته. يا للحيرة! من يكون القاتل إذن؟!

شيئًا فشيئًا أخذ ينمو تحليل بأنّ الشّيخ هو من فعلها. لقد قتل ابنه ليتخلّص من العار الّذي حاق به جرّاء فعلته. التزم الشّيخ

الصّمت إزاء هذا الزّعم، فاعتبر الأهالي صمته توكيدًا. أكبروا منه هذا الفعل وعادت عيونهم تأتلق نحوه بالإجلال القديم. "لقد أثبت بقتله ابنه صرامةً أخلاقيّةً لا تُضاهى، حتّى أنّه لم يكتفِ فقط بقتله وإنّما رمى جثّته لتأكلها النّسور والهوامّ، لولا أن عثر عليها الرّاعيان ليقوم الأهالي بدفنها. يا له من رجل!".

كان شهرًا مزدحمًا بالحزن وبالصّدمة. وإذا كان هوّن عليّ مقتل عائشة، في واقع انعزال يزيد حينها، وجود علاء إلى جانبي، فإنّ سفر هذا الأخير لأسابيع إثر مقتل يزيد جعلني أواجه ذلك الهول وحدي، وكان جحيمًا مضاعفًا.

رغم ذلك فإنّ تيّار الزّمن نجح كعادته في طمر حزني من ذلك الفراق النّهائيّ والصّادم لصديقيّ فعادت الأيّام لجريانها الرّتيب، وظلّت على ذلك إلى أن دهم حياتي حدث مفصليّ أسدل السّتار على هذه المرحلة معلنًا ابتداء أخرى تشبه في احتدامها سنوات الطفولة الأولى، وإن بأبجديّات مختلفة.

كنت عائدًا من المسجد عِشاءً إلى المنزل. الطّريق خاوية والوجود مغمور بضوءٍ نُحاسيٍّ لبدرٍ يُرصِّع سماءً بلا غيوم. النّسائم تهفهف في وداعة والجوّ يعبق برائحة الشِّعر والمعجزات. وانبثقت الفتاة أمامي هكذا فجأةً وكأنّما من جسد الطّريق، تشعّ جمالًا لا يقاوم.

لم أكن رأيتها من قبل ورغم ذلك لم أتلبّك. بدوت كما لو أنتظر قدومها منذ زمن غابر وعلى أتمّ الاستعداد له. توقّفتُ. ابتسمتُ بافتتان وبقيت محدّقًا في جسدها التامّ الحسن، الملفّع بالضّوء والواقف منّي على بعد خطوات.

ابتسمت هي الأخرى، أسبلت رموشًا طويلةً وشبّكت أصابعها مطأطئةً. ازددت افتتانًا، تقدّمت نحوها واحتضنتها. أمطرتها قبلات ورُحنا نهوي مخدَّرَين إلى أن اضطجعنا متماوجَين ومتداخلَين كأنّما عن تصميمٍ بأن نصير جسدًا واحدًا.

ارتعد قلبي عن لذّةٍ واصطخب دمي بلحنٍ جديدٍ بدا آتيًا من عرسٍ في الجنّة. تدفّقتُ شيئًا ما على دفعاتٍ وندّت عن كلّ دفقةٍ شهقة التذاذٍ جعلت جسدي يطفو مثل ريشة، محيلةً كياني كلّه إلى محض روح. كلّ ثانيةٍ من تلك اكتنزت من اللذّة ما جعلها تبدو

أبديّة. لكنّ ذلك الإحساس سرعان ما استحال رعبًا بالكثافة ذاتها وفي أقلّ من ثانيةٍ. تناهت إليّ خطىً تقترب وانغرز الخوف في قلبي مثل برثنٍ. استيقظت مذعورًا.

لم تكن خُطىً. كانت طرقات أبي المعهودة على باب غرفتي. إنّه وقت صلاة الفجر.

تمطّيت في تثاقل، تثاءبت وجرجرت خُطاي إلى الحمّام. كان خوفي من الفضيحة غادرني لكنّ إحساسي بتلك اللّزوجة الباردة في سروال منامتي أثار فيّ القرف ومنعني من استعادة شعوري المحلّق ذاك.

بقيت في الحمّام لدقائق، واقفًا بالقرب من السِّراج، ممسكًا بسروالي ومحدّقًا في البقع الدّبقة الفوّاحة برائحة كريهة مميّزة. ابتسمت رغم قرفي. عرفت أنّ هذا هو ما يحدّثنا عنه مُقرّر الفقه المدرسيّ لهذا العام وأيضًا ما كان سبق وحدّثنا عنه الشيخ في الدروس المسجديّة. إنّه البلوغ، الشيء الّذي سمعت عنه كثيرًا دون أن يمكنني فهمه. وها أنا الآن أدركه، ويا له من شعورٍ رائعٍ، لذيذٍ، مُدوِّخٍ!

ثمّ انتبهت لأمرٍ جعل فرحتي تتّسع وتكبر: إنّني ماضٍ في تخطّي مرحلة استنادي على الأسرة، فها أنا أصير رجلًا، وفي أقرب

وقت سأصير مستقلًّا بذاتي. لكنّ ذلك يعني أيضًا أن أغتسل الآن. يا إلهي! في هذا البرد؟!

رميت بسروالي، توضّأت نصف وضوءٍ وارتديت سروالًا وثوبًا نظيفين ثمّ مضيت إلى المسجد. وهناك هِمت أستعيد، منذ تكبيرة الإحرام، تفاصيل الحلم المنصرم، أستجرّه مغمض العينين وشاعرًا بالروحانية ذاتها وبالحسّ الكثيف الخالد نفسه، واستيقظت أيضًا بالرّعب ذاته في الرّكعة الثانية وأنا أنتبه كيف أنّ خرطومي قد استطال مُقبِّبًا ثوبي بشكلٍ ملحوظ. أتُرى لاحظني أحد المصلّين إلى جواري؟ يا للفضيحة!

انتهيت من الصّلاة متوجّسًا، بروحٍ وجسدٍ ضامرَين. انسحبت من الصّف وأرخيت ظهري إلى الجدار. أرسلت بصري إلى السّقف واستسلمت لشعورٍ ضاغطٍ بالخزي. ليس فقط لخشيتي الافتضاح وإنّما أيضًا لحِسٍّ طارئٍ بأنّني أتمادى في الاستهانة بالإله الّذي يُفترض أنّ هذه الصّلاة تمضي نحوه، والّتي لا أوفّر أيّما فرصة للعبث باشتراطاتها. فها أنا اليوم أصلّي دون أن أكون اغتسلت من دنسي، وفوق ذلك لم أتورّع وأنا في خضمّ الصّلاة عن استدعاء حلم يقف من وظيفتها على النّقيض. ومزّقني ذلك أيّما تمزيق.

من حينها، كلّ ذرّة من كياني مضت تتلظّى ظامئةً للأنثى، وسرعان ما أدركت أيّ طاحونة شرهة وقعت فيها: من أين لي

بأنثى هنا، في هذه الصّحراء الذكوريّة الكئيبة، حيث الوجود الأنثويّ باهت، مجلّل بالسّواد ومحروس بعيون دائمة اليقظة؟! إنّه المستحيل بعينه. لا، ليس ثمّة هنا سوى الجدب، القحط والظّمأ.

وكانت النهايات الوحشيّة الّتي مُني بها يزيد وعائشة تجعلني أرتعد لمجرّد أن يرد إلى ذهني أدنى خاطر لاقتحام مغامرة ما. وفوق ذلك فإنّ الدروس المسجديّة أخذت تزداد تحديدًا. أمست شبه محصورة في معاني التعفّف والتّسامي عن الشّهوات.

الجسد هو العدوّ اللّدود للرّوح، في الأوّل يتركّز كلّ ما هو حيوانيّ وفي الثاني كلّ ما هو سماويّ. إنّهما طرفا نقيض، اتجاهان متعاكسان، الأوّل يقود نحو الوحل والثاني نحو الله، وكلّ خطوة يقدم عليها المرء لا يمكنها إلّا أن تكون إمّا صاعدة نحو السماويّ، الجليل والسّامي، أو هابطة نحو الطّين النّتن الرّذيل.

لَكَم كان هذا التّلقين يبدو مُقنعًا في لحظته ومؤثّرًا!

كانت تلك المعاني تبدو كما لو أنّها ترتق تمزّقاتي الآتية من اضطرام الرّغبة مع استحالة الإشباع. أستمع الشّيخ فتخالطني سكينةٌ ما وأجدني مندفعًا للإقرار بأنّ الخير كلّ الخير في تكريس الذّات للسماويّ والابتعاد الكلّي والشّامل عن كلّ ما من شأنه إيقاظ الحيوان الكامن فينا. وكان التزام ذلك يبدو لي لحظتها أكثر سهولة من ارتشاف الماء. لكنّني ما أن يحلّ المساء وأعود إلى غرفتي

وأطفئ السّراج وأندسّ في فراشي حتّى يأخذ دمي في الغليان. يصهل منغِّمًا اللّحن الأثير الّذي اندلع في شراييني مع فتاة الحلم. يستحيل الفراش قطعة من جهنّم وتتنامى داخلي أصوات متخاصمة لجوجة، هذا يقول شيئًا وذاك يردّد عكسه، هذا يسوق حججًا وذاك يأتي بحجج مناقضة.. تتصارع الأصوات، تصطخب، لا التقاء مطلقًا، أزفر، أتنهّد، أزيح عنّي الغطاء، أجلس، أشدّ شعر رأسي، أعود فأستلقي، ...، وهكذا إلى أن أنام ممزّقًا وبلا أملٍ في الخلاص.

نَجَم عن هذا الانطحان النّشط تغيُّر جذريّ في اتّجاه سير حواسي. ففي حين كانت تندفع في الطفولة تتحسّس في ولعٍ ما هو خارج عن الذّات، ها هي الآن ترتدّ بالقوّة نفسها نحو الدّاخل، تنظر وتنصت وتتلمّس وتتذوّق وتشمّ عالمها الجوّاني الفاقد للنّظام، الفوّار والمتضخّم باطّراد. وانعكس ذلك على طبيعة علاقتي مع النّاس، مع الأهل والأصدقاء. تقوقعت منكفئًا على ذاتي، فلا مشاركة ولا صخب ولا ألعاب. وبقدر ما كانت لحظات الوحدة تعذّبني في الطفولة صارت تعذّبني الآن لحظات الاختلاط بالنّاس. أمسى مجرّد التقاء أحدهم أو الاضطرار لاستماع حديثه يسبّب لي ضجرًا شديدًا أجهد لإخفائه. إنّ ذلك يقطعني عن جسّ دواخلي وهو ما يعني المزيد من التّأخير في الوصول إلى الانسجام!

نفوري ذاك من المخالطة لم يستثنِ أحدًا، إلا أنّه في ما يتعلّق بعلاء، المتبقّي الوحيد من أصدقائي المقرّبين، كان ثمّة سبب أكثر خصوصيّة.

تدرك بالطّبع أنّ التغيّرات النفسيّة في هذه المرحلة تأتي مضفورة بتغيّرات جسديّة ليست بأقلّ وضوحًا وصخبًا. مضيت أزداد طولًا بشكلٍ يكاد يكون ملحوظًا كلّ شهر، تحدّدت عضلاتي وغدت أكثر اتّساقًا، البشرة الّتي كانت جرداء تمامًا أخذت تكتسي بالشَّعر، وصارت أمّي تناديني من غرفتها، لدى حديثي مع شقيقيّ في دخولي المنزل: يا جبل، فقد صار لي الصوت الثّخين نفسه الّذي لأبي.

ولأنّني كنت وعلاء بالعمر نفسه، كان الطبيعيّ أن تُلاحَظ على جسد صديقي التغيّرات نفسها. لكنّ ذلك لم يحدث على هذا النّحو. نعم طرأت عليه تغيّرات، لكن من نوعٍ آخر. والحقيقة أنّني لم أكن انتبهت طوال زمن طفولتنا كم أنّ علاء يتميّز بوسامة فائقة، بجبينه الشّاسع وحاجبيه البديعين وعينيه الذّكيّتين وأنفه النبيل وشفتيه المكتنزتين. كلّ ما كنت لحظتُه هو خفوت منسوب طاقته الحركيّة وقدرته على الاحتمال مقارنةً بي وبيزيد. أمّا الآن فها أنا أقف على تفاصيل حيّرتني. فبينما اخضرّت شواربنا، أنا وباقي الزملاء، وبزغت لحانا، ظلّ وجه علاء أجرد ناصعًا. ولم يقف

الأمر على ملامح الوجه. مضى جسده يفصح عن انحناءات وتكويرات أبدته مغايرًا لحدودٍ بعيدةٍ. صوته أيضًا بقي ناعمًا رغم استبساله في خوشنته. وصارت له طريقته الخاصّة في المشي والحركة. وكانت نتيجة ذلك أن أضحى مجرّد التقائي به يفعمني بالإرباك. لم أكن وحدي في ذلك بالطّبع وإنّما الكثير أيضًا، وربّما الجميع.

وإذا كان جسد علاء اختار هذا النّوع من النّمو الرّهيف فإنّ ذلك أتى منسجمًا ورهافة روحه. كانت عيناه تمتلك من قدرة النّفاذ قدر ما تكتنز من جاذبيّة، فلم يخفَ عليه ما تثيره مغايرته الجسديّة من اضطرابٍ في نفوس الآخرين، وكان تأثير ذلك أن انكفأ هو أيضًا ولكن عن الجميع عداي. بقي مصرًّا على مصاحبتي، وهو ما ظلّ يفاقم عذابي باستمرار. ذلك أن جنوحي للعزلة لم يكن ليعفيني من التزام اللّياقة. كنت أتحاشى الآخرين ما أمكنني، ولكن حين ألتقي أحدهم أو أضطرّ لصحبته أبقى قيد الدّماثة المفروضة، فكيف بي أمام علاء؟!

وكما أخبرتك، فإنّني لم أستغرق الكثير من الوقت، مُذ خالطت دمي تلك الرّغبة اللّاهبة، لأدرك أنّ عثوري على أنثى في بيئتي تلك وتحقيق أدنى إشباع هو أمرٌ يناهز رؤية الجنّ والمشي على الماء. يئست، ولكن دون أن يخفّف يأسي من لوعتي المحتدمة

وشغفي المجنون. وهكذا لم أنتبه إلّا وقد سلكَت رغبتي طريقها صوب علاء! استحوذ عليّ جماله الأنثويّ ولم يعد بمقدوري الإفلات. صار مجرّد التحديق في وجهه برهةً أو تملّي مشيته وحركته لثوانٍ كفيلًا بإشعال دمي، ولا ألبث لحظتها أنتعظ ولو في المسجد، في الحَلَقة وبوسط الدّرس.

وكنت إذا ما نجحت في مغالبة نفسي طوال النّهار فإنّ اللّيل يأتيني به بإصرارٍ وبلا اكتراث لممانعتي. يدسّ طيفه في فراشي أو يحملني وإيّاه على جناح الحلم إلى فردوسٍ ما ويستدرجني لمعابثته. ودومًا ما ينتهي الأمر بشعورٍ ساحقٍ بالذّنب. على الفور ينتصب في أعماقي قاضٍ لا يرحم، يجلدني ويبصق في تفاصيلي في مونولوجٍ ضارٍ ينتهي دومًا بشعورٍ لزجٍ بالكراهية، كراهية نفسي وعلاء والوجود برمّته. على أنّ هذا الشعور يبدأ من فوره بالاضمحلال بمقابل تنامي موجة الهوس من جديد، والّتي سرعان ما تبلغ أوجها في حلقة تعذيبٍ فتّاكةٍ بدت أبديّةً.

والواقع أنّ تعليمنا المسجديّ لم يعد في تلك المرحلة محصورًا في جانبه النّظري وإنّما انضاف إليه أيضًا جانب عملي. مضى الشّيخ يأخذنا إلى النّهر مرّةً أو اثنتين في الأسبوع، يعلّمنا السّباحة والرّمي، وأحيانًا يأخذنا أبي. "المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن

الضّعيف، وطائفتنا في مرمى حقد الأمم والطّوائف الأخرى على الدّوام، ومن عساه يكون لدين الله إن لم يكن نحن؟!".

لم أتحمّس لهذا التنظير ومع ذلك مضيت منساقًا مع القطيع ومتفاديًا أيّة مماحكات من شأنها تنشب بيني وأبي في حال تلكّأت. لكنّ هذا النّشاط ما لبث أن صار بالفعل هواية ممتعة. كنت أوّل من أجاد السباحة من المجموعة وأفصحت تدريبات الرماية عن تمتّعي بموهبة حقيقيّة في القنص.

كانت السباحة تنعشني، تملؤني بتلك السعادة الأزليّة، سعادة الجسد في انغماره بالماء، وبذلك الخدر اللّذيذ للعضلات في اصطراعها المرح مع التيّار، إضافةً للفخر الّذي يحسّه المرء في ميدان يتفوّق فيه على أقرانه. كنت أخوض عكس التيّار لمسافات هي عند الباقين في نطاق المستحيل. نخرج بعدها إلى الضفّة، نعرّض أجسادنا للشّمس تدسّ الدّفء تحت جلودنا وتُفعِمنا بحسٍّ كثيفٍ بالتجدّد، ثمّ نرتدي ثيابنا ونمضي إلى أرضٍ منبسطةٍ اتّخذنا منها ميدان رماية.

كان هذا الترتيب في محلّه تمامًا. ففي حين تكون العضلات أُنهكت بالسّباحة تأتي تمارين القنص باعتمادها السّكون التامّ للجسد وقد خضع للذّهن المصوّب بتركيزٍ نحو نقطةٍ. يتّكئ عقب البندقيّة ما بين صدرك وكتفك، إصبعك على الزّناد، خدّك إلى

جانب جسد البندقيّة وبؤبؤك نقطة طرفيّة في خطٍّ مستقيمٍ يمرّ عبر مؤشّر التّسديد وينتهي بالهدف. تحبس أنفاسك، تروّض نبضك، تنتظر بصبرٍ وتُطلق في لحظةٍ بين دقّتَي قلب. عمليّة بارعة وشعور مذهل، احتجت لإتقانها ثلاث تجارب ثمّ لم يحدث أن وفّرت بعدها هدفًا قط.

وكان إعجاب أبي غادرني منذ سنوات لكنّ عينيه أخذتا تلتمعان إعجابًا لمواهبي الطّارئة، ودون أن يُحدث ذلك فيّ أدنى أثر. بدا أنّ شيئًا لم يعد بوسعه تغيير عاطفتي نحوه، عاطفة البغض المُبرّرة بما سبق.

زمن تلك النزهات الأسبوعيّة كان هو وقت السّعادة الوحيد المُستَقطع من زمن تلك المرحلة، المصنوع من تمزّقاتٍ وحيرةٍ. أعود منها إلى المنزل منهوكًا، وفي المساء يبتلعني النّوم قبل أن تنجح تلك النّار في الانسلال إلى شراييني وإضرامي، وهو ما جعلني أتّخذ من السباحة لاحقًا نشاطًا شبه يوميّ، سيّما في الإجازات والعُطل المدرسيّة الطويلة. أتسحّب وحيدًا من البلدة إلى النّهر، إلى منطقةٍ غير تلك المحدّدة لتمارين المجموعة وحيث ليس من العادة أن يكون ثمّة أحد، أنضو ثيابي وأنهمك في مغالبة التيّار حتّى التّعب. أمضي إلى طقسي هذا عادةً في الضُحى وأعود

منه قُبيل أذان الظّهر، وأحيانًا منذ الظّهيرة إلى صلاة العصر، وقت دوامي المسجديّ.

لم تكن تلك الرياضة حلًّا نهائيًّا لتأزّمي ذاك بالطّبع. كانت فقط تعزّز من مقاومتي. وكان لخروجي وحيدًا إلى النّهر ميزة على خروجي مع المجموعة، ذلك أنّني أكون متخفّفًا ممّا يفرضه وجود علاء من عبء. ظلّ يأتي ضمن المجموعة ولكن فقط ليشارك في تمارين الرماية، أمّا السباحة فلا. كان الجميع يفهم أسبابه ويشيح محرجًا، وهو ما ظلّ يثقلني بمشاعر بغيضة لا أنجح في تبديدها سوى بإلقاء جسدي في النّهر ومصارعته. والواقع أنّ تلك النّزهات الجماعيّة لم تدم طويلًا. تحقّق غرضها بإتقان الأغلبيّة للسباحة والرماية، وبقيت فقط نزهاتي الفرديّة لم أقلع عنها إلى ذلك اليوم حين فوجئت بعلاء يتعقّبني.

كنت قطعت أغلب المسافة وصرت على مقربة من النّهر. تناهت إليّ هسهسة خطىً فالتفتُّ لأرى علاء على بعد أمتارٍ. أجفلت. تلبّك هو الآخر، ناداني ملوّحًا ثمّ اقترب مترددًا إلى أن وقف أمامي، متورّد الوجه ماضغًا ابتسامة تقطر رجاءً. سحقتني ابتسامته تلك وامتصّت استغرابي من تعقّبه لي.

أتراه لا يعرف إلى أيّ حدٍّ يؤلمني تعبير الرّجاء هذا؟! ألا يدرك أنّني أتحاشاه فقط لفرط ما أحبّه؟! لأنّ عاطفتي نحوه

مشتعلة بما يكفي لإضرام كلينا لو استجبت وعُدنا لالتحامنا الّذي كان؟! ألا يرى كم من الضّروري تجميد صداقتنا والاكتفاء بما تحمل الذّاكرة والوجدان من ألقها الطفولي؟! ألم ينتبه كيف أنّني أنا بالذّات لم أعد طفلًا وإنّما عمودًا من اللّحم الملتهب برغباتٍ الظّلام وحده يعرف انفلاتاتها؟! ألم يتفطّن لكلّ هذه التشوّهات تنخر روحي؟! أيظنّ مثلًا أنّني أقلّ تألّمًا منه في هذه المجافاة؟! ألا يعرف كم أجهد في مغالبة ثورتي كلّما رأيت أحدهم يتملّاه بعينين شهوانيّتين؟! ألا يدرك أنّني أعاني من وضعه البائس هذا واللّا مفهوم ربّما أضعاف ما يعاني؟!

دهمني هذا السّيل من الأسئلة الّذي سرعان ما تبخّر في تحديقة علاء الثابتة، تحديقة مزيج من ترقّب واستجداء. تملّكني لوهلةٍ حسّ بالغرابة ثمّ انفجر في وعيي هجسٌ رهيب: ماذا لو أنّ أحدهم يمرّ الآن بالقرب فيراني مع هذا التجلّي الصّارخ للغواية، هنا لوحدنا في هذا المكان النّائي المحفوف بالأجمات والأماكن المثالية للاختباء؟! ويلي! ستسلخني الألسنة!

"إبراهيم، ما بك؟! أدري. أزعجك لحاقي بك. أعتذر. لم أفكّر أنّ ذلك سيسوؤك إلى هذا الحدّ!". واربدّ واغرورقت عيناه.

كرهت نفسي أنا الكتلة الفوّارة بالتناقضات، وكرهت النّاس، المخلوقات البغيضة الّتي لا تجيد سوى اللّمز وتدفعني

الآن لدهس الإنسان الأقرب إلى قلبي. نعم، عليّ أن أدهسه وأمضي لئلّا أمنحهم فرصة اتّهامي وتلطيخي.

"أرجوك يا علاء عُد إلى البلدة. لا داعي لوجودك هنا، عُد أرجوك"، توسّلت.

أبى، فقررت أن أعود أنا. مضيت خطوتين فقط وإذا به يمسكني من ذراعي ويستلفتني. انفجر منتحبًا وشرع يسوطني بعتابٍ مريرٍ.

لماذا أتحاشاه؟! ألا أتذكّر ما كُنّاه؟! كلّ تلك السنوات والشهور والأيّام كيف تمكّنت من تجاوزها ببساطة؟!

إنّه يعرف لماذا يتحاشاه الآخرون، يعرف تمامًا ويتعذّب من أجل ذلك. لماذا يُعاقَب على شيءٍ لم يتعمّده ولا يقع في نطاق إرادته؟! إنّه يكره جسده، يكرهه حدّ التقزز. يودّ جسدًا طافحًا بالرجولة يؤهّله للمضيّ في حشد الرجال بثقة وافتخار. لكنّه عاجز أمام مشيئة الهرمونات. لم يعد يحتمل حياة كهذه. صار يهجس له بين حين وآخر أن ينتحر ويتخلّص من هذا الوجود الجحيم. تعذّبه نظرات الآخرين، يعذّبه تعاطيهم. لكنّ ذلك كلّه لا شيء أمام ألمه منّي أنا، من نأيي عنه ونبذي له وأنا صديقه الوحيد وأعزّ إنسانٍ على قلبه.

سبق ورأيت الكثير من الدّموع لكن ليس بذلك الحجم. كانت الدّمعة تتحدّر من عينه مثل غيمة، ومع كلّ واحدةٍ يشطب قلبي مخلبٌ ما. صدمني حديثه عن الانتحار. تخيّلت الأمر وصُعِقت. لن يكون انتحارًا بل جريمة قتلٍ أنا فيها أكبر المساهمين. أرعبني ذلك وفاقم نقمتي على نفسي وعلى النّاس. تلاشت كلّ الحسابات السّابقة وبقيت أمام الحقيقة العاطفيّة الواقفة أمامي، حقيقة إنسانٍ معذّبٍ أنا أشَدّ معذِّبيه وبيدي وحدي صكّ انعتاقه.

لا أهميّة الآن لأيّ شيء آخر. فليذهب المجتمع إلى الجحيم. لن تحكمني هواجسه المشوّهة واحترازاته السّخيفة.

"أعتذر"، همست مطأطئًا وشاعرًا ملء روحي بأنّني كنت ارتكبت جرمًا مشينًا في حقّ صديقي وفي حقّ نفسي، جرمًا محفوفًا بالتشوّهات ومدفوعًا بها.

نطقت هذه الكلمة وأنا أعنيها تمامًا. كنت بالفعل أعتذر من أعماقي، ودون أن أتوقّع ما سيكون لها من أثر مبالغ. بسرعة الضوء انقلب ذلك الكيان المعذّب بهجةً خالصةً. وثب إليّ ومنحني أصدق عناقٍ، وفي تلك اللّحظة غشيني فرح غامر طهّرني.

أمّا عن لحاقه بي إلى هنا فليست هذه المرّة الأولى. منذ فترة وهو يلحقني دون أن ألحظه. لقد ظلّ طوال زمن رحلاتنا الجماعيّة تلك يتحرّق إلى السّباحة، يرغب بشدّةٍ أن يتعلّمها كما الآخرين

وكان يمنعه ما يدريه من وضع جسده الإشكالي. لكن ها هي تلك الرّحلات الجماعيّة انتهت وصار بالإمكان أن أعلّمه أنا دون أن يخشى شيئًا. هو يخشى الآخرين أمّا أنا فلا، أنا إبراهيم صديقه الأوحد، يعرف جيدًا أنّني لست مثلهم. ولكن ما بي أنظر إليه الآن هكذا؟!

أوه، هل أظنّ أنّه لم يلحق بي إلّا من أجل أن أعلّمه السباحة؟! لا يمكن! ألم أنتبه لإصراره الدّائم على كسر عزلتي مُذ جنحت إليها قبل عامين؟!

صرنا الآن ماضيَين صوب النّهر، متحاذيَين وصاخبَين كسابق عهدنا. كان يتحدّث كالمطر، كلّ ما فيه ينضح طفولة: إشراق عينيه ذاك، تهلّل ملامحه والحركة النّشيطة ليديه، ومن كلّ ذلك سرى تيّار عذوبةٍ غمرني بسعادةٍ بالغة النّقاء، سعادة يحسّها المرء فقط بوجوده في حيّزٍ ملائكيّ. كان آخر عهدي بشعورٍ كهذا في تلك الأيّام الألِقَة من باكورة طفولتنا.

أن أعلّمه السباحة؟ أيّ مطلب بسيط! بوسعي الآن أن أمنحه روحي حتّى مقابل بقائه جذلًا على هذا النّحو. أمّا عن النّاس فأنا لا أفعل أيّ خطأ. متى كانت جريمةً أن يتنزّه المرء مع صديقه؟! النّاس ليسوا الله. لن أسمح لهم بأن يتحكّموا بحياتي،

أن يصمّموا حركتي ويقرروا اختياراتي وفقًا لمزاجهم الجمعيّ اللّعين.

وصلنا إلى النّهر أخيرًا، إلى مكاني المعتاد. ومنذ تلك اللّحظة بدأ طقسي النفسيّ يغيم. لم يكن حدث شيء حين نضوت ملابسي. كنت لا أزال محلّقًا بسماوات الطّريق. ابتدأ الأمر مع خلع علاء لملابسه، ملابسه الكثيرة الفضفاضة.

كان شيئًا لا يُصدّق. أخذ قلبي يخفق من صدغيّ، رَشَح جسدي عرقًا واتّقدت أذناي. علاء أيضًا تضرّج وطفق يتحدّث مشيحًا بنظره، متحاشيًا التقاء عيوننا.

بشرة ناصعة برّاقة كما لو من العاج، وعوضًا عن عضلات الصّدر كان له نهدان، وبدت عجيزته محشورة في سرواله مثل إغواءٍ مُلحٍّ، وما بين صدره وعجيزته خصر ضامر أبدا جسده مثل تُحفةٍ من خطوطٍ متعرّجةٍ بانسيابٍ مُعجز.

لم أميّز بالضّبط ما كان يغمغم ويبدو أنّه أيضًا لم يميّز غمغمتي. كانت مجرّد محاولات خرقاء لتغطية ارتباكنا. وكنت أعرف أنّه آتٍ، فوران الدّم ذاك. خطر لي أن أرتدي ملابسي دونما تبريرٍ وأطلق قدميّ للرّيح عائدًا للبلدة. أحسست خطرًا داهمًا ينتظرني إن لم أفعل. بالتّأكيد علاء شخص طيّب، صديقي الأقرب وضحيّة لعبة الهرمونات، نعم أثّر بي انفعاله السّابق، عتابه

الصّادق، لكن ما ذنبي أنا في كلّ ذلك؟! أليست لديّ أنا أيضًا هرموناتي، هرمونات تحرّضني الآن للانقضاض؟! لا، ليس عليّ الاستمرار في هذا المأزق. فلأعد إلى البلدة، فلأعد.

باللّحظة الّتي هممت فيها بالانصراف طالتني رشقات من ماء النّهر، ينضحها علاء بكفّيه، يمازحني. لم يعد مرتبكًا. عاد لوجهه صفاؤه الجذل ذاك. أنعمت فيه النّظر فخلبني. كان النّهر أيضًا بمنتهى الصّفاء، يشفّ سطحه عن قاعه، وكانت الشّمس غزيرة الضّوء معتدلة الحرارة، وحشود من العصافير تغنّي لحنًا بديعًا يحتفي بالحياة ويمجّدها. وهكذا مضى كلّ شيء يشدّني بخيوطٍ متينة لا مرئيّة صوب علاء، صوب النّهر، فاستجبت مخدّرًا ومستسلمًا لصهيلٍ أخذ ينمو في دواخلي ويتكوّم.

لا يمكن إنجاز تمارين السباحة دونما ملامسة. وفي النّهر انضافت إلى جسد علاء فتنة أخرى، لدونة لذيذة أتت على ما بقي من قدرتي على التصبّر والمناورة. كلّ عضو من جسدي مضى يطالبني بالاقتحام، بأن أنشبه في كتلة الغواية اللّدنة هذه، يغوص فيها وينصهر. كنت موقنًا بأنّ علاء لن يمانع، وحتّى لو، سأتمكّن منه سريعًا.

كنت مغمورًا في الماء حتّى صدري فلم ينتبه علاء لذلك التوتّر الرّهيب في الأسفل. وفيما مضت هذه الاعتمالات تتفاقم فيّ،

لم يبد أنّه لحظ شيئًا. ظلّ يجدّف بذراعيه وقدميه بعشوائيّةٍ وسذاجةٍ، طافيًا بفضل يديّ الممدودتين تحت بطنه والملتهبتين رغبة.

أخذ دمي ينطح أوردتي على امتدادها مثل وحشٍ مُثار، وانبعث صوت من أعماقي يبرّر اندفاعتي بأنّها تنسجم والمشهد الطبيعيّ المحيط، الضّاج بالحياة والمُتخفِّف من الهواجس.

سأفعلها الآن. لم يعُد بمقدوري الاحتمال. يخيّل إليّ أنّ ماء النّهر يتبخّر من حرارة جسدي. سيغفر الله لي بالتّأكيد، هو يعلم أنّني قاومت قدر استطاعتي.

وفي اللّحظة ذاتها لاستسلامي لنداء الرّغبة، تناهت إليّ من على مقربةٍ من الضفّة خشخشة منتظمة لأوراقٍ يابسةٍ.

تخشّبت. تفتّقتْ غشاوة اللّذة عن عينيّ فانطلق بصري في الأنحاء، بصرُ فريسةٍ تتوجّس صيّادًا.

لم أرَ أحدًا. تفحّصت مرارًا ولكن لا أحد.

تمالكت نفسي أخيرًا واستعدت شيئًا من طمأنينتي، لكنّ قواي كانت خارت لحدّ بعيد، وقد انحسرت الرّغبة بما يكفي لأمسك بزمامي.

أفلتُّ علاءً، ابتسمت بخراقةٍ وأخبرته بأنّني مضطرّ للخروج لقضاء حاجتي. اصطبغ حياءً وأشار متفهّمًا. ولّيته ظهري ولم أزل في الماء كي لا يلحظ ما بقي من انتصابي، وانطلقت سريعًا

إلى وراء إحدى الأجمات. كانت اللّزوجة ملء سروالي ولم أزل منتعظًا. انهمكت أعالج نفسي هناك إلى آخر دفقة.

وكالعادة، في اللّحظة التي انتهيت فيها من ذلك تغيّر كلّ شيء. جسدي الّذي كان يتفجّر طاقةً خمد مثل جذوة غُمست في ماء، روحي الّتي كانت تخترق السّماوات نشوانةً بدت كما لو انتكصت لأعماق وحلٍ منتنٍ، هذا الّذي تهذيه العصافير، وكان قبل لحظاتٍ نشيدًا فاتنًا، استحال نوعًا من ضجيجٍ. وحين وقفت ودُرت حول الأجمة عائدًا إلى النّهر، لم أرَ فيه صفاءه، تجلّى مجرّد مسرحٍ لمؤامرةٍ تُحاك ضدّي، مؤامرة ستسحقني بأيّة لحظةٍ بلا ريب. أمّا علاء، وقد تجمّد محملقًا في عبوسي، فقرأت في عينيه خوفًا ويأسًا.

كرهته، استقذرت هيئته وامتلأت حنقًا على نفسي: كيف استُدرجت إلى هذا المستنقع؟! كيف وافقت أن يصحبني هذا الكائن إلى هنا؟! خطر لي أن أقتله، أن أطبق على جيده وأغمس رأسه في النّهر حتّى تلاشي الفقاعة الأخيرة. لكن لا، لن أفعل. سأكتفي فقط بالعودة لاستراتيجيّتي السّابقة، أتحاشاه وينتهي الأمر.

ما به الآن ضامر هكذا، مُستجدٍ مثل كلبٍ مخبول؟! اللّعنة!

"سأعود إلى البلدة"، نخرت مرتديًا ثيابي.

لم يفُه. كان لا يزال في النّهر على بعد خطوة فقط من الحافّة، مشى خطواتٍ ذليلة ومخذولة إلى كومة ملابسه، ارتداها ولحقني بشفتين مزمومتين وسحنةٍ ذابلةٍ. بدا أنّ كلّ خطوة من عودتنا تمحو فرحةَ وانطلاقةَ أختها في قدومنا. شعرت بخطاي ثقيلة كما لو أجرّ خلفي جيفة. لم ألتفت صوبه أدنى التفاتة ولم أوجّه له كلمة. هو أيضًا احتفظ بصمته إلى أن وصلنا.

كان نداء العصر موشك. واصلت إلى البيت، اغتسلت في تقززٍ ومضيت إلى المسجد بروحٍ مثلّمةٍ.

تلك الحادثة جثمت على وجداني لزمنٍ مديدٍ تالٍ، تشعرني بالعجز وانتفاء الخلاص. كان يحدث أن أذكّر نفسي بأنّني لم أبلغ القاع في سقوطي ذاك، لم أتحطّم هناك كليًّا بما لا يترك أملًا بالترميم والتعافي، أيضًا بأنّ ما من بشرٍ اطّلع على أيٍّ من تلك التفاصيل، وكان استحضاري هاتين النّقطتين يهدهدني شيئًا ما. لكنّني لا ألبث أعود فأجلد نفسي بأنّ ما حال بيني وقعر الهاوية لم يكن وازعًا من داخلي، من صميم إرادتي الحرّة. لو كان كذلك لوسعني الآن أن أطمئنّ لعدم إمكانيّة الوقوع تاليًا في شَرَكٍ مماثل. لكنّ الحقيقة أنّ خوفي من النّاس هو الّذي أجبرني على ذلك التّراجع الطّفيف، خوفي من الانكشاف أمام أعينهم وتحطّم صورتي المفترضة، خوفي من أصداء خُطاهم تقترب مترصّدة، خوفي من أن أناولهم بيدي السكين ذاتها الّتي نحروا بها يزيد وعائشة ليغرسوها في صدري أو يمزّقوا بها كرامتي وشرفي.

آهٍ! الشّرف! هأنذا أتحدّث عن الشّرف! أينسجم الشّرف مع الجُبن؟! إن لم يكن الشّرف نابعًا من صميم الذّات، إن لم يشعّ من الأعماق ابتداءً، ألن يكون أشدّ النّاس مكرًا إذن هم الأكثر شرفًا؟! أولئك الّذين يمتلكون، إلى جانب سوء الطويّة، من حدّة الذِّهن

وبراعة الاحتياط ما يمكّنهم من التعمية على انتهاكاتهم بخفّة واقتدار؟! أيّ شرفٍ هذا الّذي لا يحضر إلّا بين الجموع ويتلاشى في الخلوات؟! أيّة قيمةٍ لطهارةٍ لا نحسّها في دواخلنا بل نمضي نُثبِتُها عنّا بالاستشهاد بخلوّ ذاكرة الآخرين من ما ينفيها؟!

لم تكن العفّة هي من أوقفني هناك. جُبني هو الّذي فعل. فمع أنّني تمكّنت من تخدير حساسيّتي تجاه رقابة السّماء، لم يمكنني تلبية نداء الرّغبة مشيحًا عن رقابة النّاس. لكنت على الأقلّ سأجد في اللّذة ما يعزّيني ولو مؤقّتًا. لكنّني ويا للهوان أعبد هذا الجمع من النّاس أمثالي. لا صلاة تعلو صلاتي للصّورة الّتي أتخيّلها لي في أعينهم. أجل، النّاس هم آلهتي. هذه هي الحقيقة. أخافهم أكثر من أيّ شيء آخر، ولا يردعني سواهم. أيّ انحطاط!

هذا التّشريح لحالتي جعلني أحنق على نفسي كثيرًا. رأيت كم أنّني ضعيف، بلا حول. تملّكني حسّ بالخزي لما لمست فيّ من خَوَر. ثمّ في ذروة حنقي رأيت ردّ الفعل الأنسب، الّذي من شأنه ترميم كبريائي وإثبات إرادتي الحرّة، أن أتنكّر لجميع هذه القوى الّتي تتناوشني: المعنى السماويّ وصورتي المُفترضة في ذهن المجموع ورغبتي الحسيّة. نعم، يجب أن أتحرّر من سلطانها جميعًا، ونهائيًّا. لكنّ قليلًا من التمعّن أوصلني لاستحالة ذلك. بالنّهاية، لست سوى مجموع هذه القوى، هذه الأصوات المتباينة الّتي يمور

بها صدري بلا توقّف. إنّ إمكانيّتي الوحيدة لتحقيق حريّة مُطلقة هي بأن أقفز على اشتراطات هذا الوجود كليًّا، أي بأن أموت، وأنا أجبن من أن أمضي إلى الموت بقدميّ.

مع ذلك لم أيأس. بقيت أتتبّع هذه الخيوط في دواخلي بإصرار، في الليل والنّهار، وحدي وبين الجموع، في المنزل والمدرسة والمسجد. وكان أن توصّلت من كلّ ذلك إلى قناعةٍ بدَت راسخةً أشدّ ما يكون الرّسوخ. أيقنت أنّ مخرجي الوحيد هو بأن أتشبث بقيمةٍ ما كليّةٍ، قيمةٍ تُرتِّب فوضاي الدّاخلية وتنظُم خُطاي بمنطقٍ ما.

إنّ شساعة كياني المعنويّ، بتناقضاته من أطماع ومخاوف واشتهاءات وكوابح وآمال و..، حين جئت أقارنها بمحدوديّتي الماديّة، على صعيدَي الكينونة والزّمن المتاح، أدّى بي ذلك لإدراك البديهيّة التّالية: أنّ من المحال أن أتمكّن من تلبية كلّ تلك النّداءات دُفعة واحدة. إنّني مضطرّ باستمرار لاختيار أيّها أُلبّي. وما أن أفعل، أكون أشَحت، مؤقّتًا على الأقلّ، عن البقيّة.

هذه الاشتراطات الّتي لا سبيل لي لتفاديها مضت تخبرني بوضوحٍ تامٍّ بأنّ الحريّة الممكنة في وجودي الرّاهن إنّما هي نسبيّة، ضئيلة على نحوٍ صادمٍ. فكيما أحقّق في داخلي قدرًا من النّظام، فإنّ ذلك يستوجب تحرّري من كثيرٍ من الأشياء، تحرّرًا يقتضي بدوره،

بالضّرورة، بالزّمن نفسه ومن خلال العمليّة ذاتها، رضوخي لأشياء أخرى!

"حسنًا يا إبراهيم"، خاطبت نفسي: "عليك أن تقبل هذا الاستنتاج كحتميّة، وأن تختار القيمة الّتي من شأن اعتناقك إيّاها تحقيق أكبر قدرٍ من وئامك المنشود".

على الفور استبعدت أن تكون صورتي المتخيّلة في ذهن النّاس هي تلك القيمة. مجرّد التفكير في ذلك ينال من تقديري لذاتي على نحوٍ مروِّع. إنّني هنا أقوم بعمليّةٍ خطرةٍ بقدر ما هي أساسيّة: أختار إلهي بوعيٍ، ليس أقلّ من ذلك. ولم أجد أكثر مدعاة لاحتقار الذّات من أن يمنح المرء من هم أمثاله هذه المكانة.

بذلك وجدتني على بُعد خطوة واحدة من حسم هذا السِجال. أيّ القوّتين أختار: المعنى السماويّ المتغلغل في أعماقي رغم ما ينتابني إزاءه من شواش، أم هذه القوّة الفوّارة في دمي، بما يَعِدُني الاستسلام لها من لذاذةٍ وإمتاعٍ؟!

لن أدع مجالًا للأحكام المُسبقة، لن أسمح للسّماء بأن تزعُم لنفسها قيمةً تتجاوز ما للأرض أو العكس، ولا للرّوح بأن تدّعي أفضليّةً ما على الجسد أو العكس. في هذه اللّحظة كلاهما سيان، سأنتخب منهما ما يعدني بأكبر انسجامٍ ممكنٍ.

معتمدًا فقط هذا المقياس، سُرعان ما حُسِم الأمر لصالح السّماء.

من ناحيةٍ، كنت خبرت كم أنّ للشّهوات طبيعة مخاتلة. إنّها تستعر فيك، تستحوذ عليك، تنسلّ إلى أعصابك واعدةً إيّاك كلّ مرّةٍ بسعادةٍ بلا شوائب، بانتشاءٍ بلا منغّصات، لكنّك ما أن ترضخ لها ملتمسًا تحقّق وعودها حتّى تصدمك ليس فقط بتلاشيها، وإنّما أيضًا بإتيانها نتائج عكسيّة: يحلّ عِوَض السّعادة والانتشاء حزن عميق، كآبة راسخة وحسّ بالمهانة والخزي. على الدّوام تتكشّف وعودها، ذات المظهر المبدئيّ الرّاسخ، عن سرابٍ سريع التّلاشي يعقبه جحيم ساحق. من ناحيةٍ أخرى أيضًا، كنت أُدرك ما تنطوي عليه بيئتي من فقرٍ ومحدوديّةٍ، الأمر الّذي يجعل من تأليهي لرغائبي نوعًا من تجارةٍ خاسرةٍ، إذ كيما أُنجز لهذا الإله صلاةً واحدةً، تلبيةً واحدةً، أكون نزفت من الجهد ما يفوق قيمةً، بما لا يُقاس، المكافأة المرجوّة. والحاصل أنّني ما كنت لأتجشّم كلّ هذا العناء لأسلم نفسي في آخره لإلهٍ مزاجيٍّ محدودٍ، يأخذ منّي أضعاف ما يعطي.

بالمقابل، بدا لي المعنى السماويّ يردم لحدٍّ بعيدٍ هذه الثّغرات.

أوّلًا، هو لا يضع نفسه في حال خصامٍ أبديّةٍ مع جذور الرّغبات، بل يكتفي فقط برسم طريقٍ محدّدةٍ لإشباعها. تسليمي المطلق له لن يصنع بيني واشتهاءاتي قطيعةً نهائيّةً مريرةً. إنّه

وحسب سيقنّن سيري إليها. ثانيًا، فإنّ اعتناقي إيّاه، الاعتناق الحقيقيّ لا الصوريّ الّذي تمثّلتُه قبلًا، سيحرّرني من سلطان النّاس، من سهري المتوفِّز لحراسة صورتي المتخيّلة في أذهانهم، إذ لن أعود عابئًا سوى برقابة السّماء. أخيرًا، وجدت هذا التّسليم وحده يُشبع فيّ توقي الأصيل إلى المُطلَق، إلى الحقيقة الكليّة والمستحيلة في هذا الوجود، وحده يُضفي على خُطاي قيمةً لا نهائيّة، معنىً يحرّرها من سجن اللّحظة ويحلّق بها في فضاء الأبديّة، وحده ينفخ في محدوديّتي البائسة روح الخلود.

وأظنّ بوسعك تتصوّر إلى أيّ حدٍّ اغتبطت بهذه النتيجة وتحمّست لها. أنّني توصّلت أخيرًا إلى الإيمان، وبالاعتماد فقط على إمكاناتي الذّاتيّة من تحليلٍ وتركيبٍ، ومن تقليب النّظر بين عوالمي الدّاخليّة الموّارة وتعقيدات العالم الخارجيّ، بدا لي ذلك إنجازًا خارقًا. ترمّم تقديري لذاتي، بل وتضخّم.

"لقد انتصرت!"، انبثقت هذه الصّرخة من أعماقي وراحت تتصادى فيّ مثل أنغام عرس. لم تعد طريقي إلى القيمة تمرّ من آراء الآخرين وتلقيناتهم. صرت أتلمّسها بحساسيّة روحي، بإرهافها لصوت الحقيقة وتمييزه في هذا الكون من الصّخب المتنافر المجنون.

وتفجّرت فيّ، نتيجةً لذلك، طاقة هائلة جديدة، نوع من عزمٍ فولاذيٍّ سخّرته لصَون تصوّري الجديد. حتّى أنّ حواس الجسد كفّت عن مطالبتها بأن تتعرّف الله بآليّتها المباشرة. رضخت لاندفاعة الرّوح تلك وانكمشت قانعةً عن هذا الدّور. بذلك، وإلى أن جاءت النّكسة التالية، تمكّنت من قضاء شهورٍ من الاستقرار انتقلت فيها حياتي لمستوىً آخر تمامًا.

لم أعُد ألتذّ لشيءٍ قدر تلبيتي نداء المؤذّن. أَخِفُّ إلى المسجد مغتبطًا، وما أن أقف لأصلّي حتّى أنعم بنوعٍ من الشّعور بالامتلاء، بالكليّة، بالامتداد اللّانهائيّ. تبدو الحدود المفترضة بين الجسد والرّوح والمعنى السماويّ وقد تبدّدت. بتلقائيّةٍ مدهشةٍ، دونما عناءٍ، ومنذ التّكبيرة الأولى، أجد وعيي بكينونتي يتركّز في كونها المزيج المُعجز للعناصر الثلاثة وقد اتّحدت بانسجامٍ مثاليٍّ. تتملّكني عاطفة كثيفة وَرِعَة، وَجد جليل يظلّ راسخًا فيّ حتّى لزمنٍ بعد انتهاء الصّلاة.

لم تعد نظرتي للنّاس محكومة بالتوجّس والحذر. صارت مفعمة بحسّ الإخاء. فاضت روحي بالسّلام وراحت تغمر به الوجود من حولي. لم أعد أنفر من علاء على نحو ما كان، وإنّما مع إبقائي معه مسافة حسبتها ضرورية للأمان، مسافة تضمن خنق أدنى رغبةٍ منذ اختلاجتها الأولى.

وبالطّبع لم يكن لي أن أنعم بهذه الصّيغة الجديدة من الوجود الهانئ لو أنّني لم أعزّز قناعتي الوليدة بوسائل أثبتت فعاليّة كبيرة، أوّلها الرياضة البدنيّة. لم تعُد هي السباحة. استبدلتها بالعَدو والتسلّق. كلّ تفاصيل الجبال المحيطة بالبلدة أمست تعرفني جيّدًا، كلّ الطّرقات أيضًا، المروج والحقول. وما كان أشدّ اتّصال رياضتي تلك بنضالي الكلّيّ الكبير!

كلّ مرّةٍ أتسلّق جبلًا، ينبعث همس دافئ من أعماقي يقول لي: انظر كم أنّ الصّعود يتطلّب جهدًا، كم أنّه مهدّد بأدنى زلّة قدم وكم تحتاج لإنجازه من وعيٍ وجسارةٍ. ثمّ، ما أن أبلغ تلك الذّرى فأقف منتصبًا بتشامخ، فاردًا ذراعيّ للنّسائم تَعُبّ شفاهُها الباردة سواقي العَرق المتفصّد عن جسدي مُحدثةً فيه أثر سيلٍ من القُبَل، وفيما أطلق نواظري بانتشاءٍ في اللّوحة الطبيعيّة المترامية، البديعة التنوّع والانسجام، ومن انغماري بذلك الشّعور بالسموّ الّذي يضفيه وعيي بعلوّي الماديّ عن سائر الموجودات، يعود ذلك الهمس فيقول لي: والآن؟! أبقي ثمّة من قيمة للجُهد الّذي نزفته حتّى الوصول؟! لترٌ من عَرَق، التواء كاحل، بضع خدوش في السّاقين، انقصاف ظُفرٍ أو اثنين، ما قيمة ذلك مقابل تنعّمك بهذه اللّحظات من حسّ التفرّد، حيث الرِّفقة الوحيدة الممكنة ملائكة وسُحُب ونسور؟!

تلك الرياضة شكّلت منفذًا رائعًا لطاقتي الجسديّة. لم تعد تركد فيّ على شاكلة كآبةٍ آسنةٍ وسُهادٍ حرّاقٍ. مع ذلك لم أكتفِ بها. مضيت أسندها بنوعٍ من رياضة روحيّة تقوم على الصّوم والذِّكر. فأنّي عثرت على إيماني، اقتضى ذلك امتثالي لدواعيه وانصياعي لإرشاداته. ولأنّني كنت مقتنعًا بأنّ الخصم الأعتى الّذي يجب عليّ تركيز مجهوداتي لهزيمته هو تلك الرّغبة اللّاهبة تجاه الأنثى، فقد بحثت عمّا تقوله الإرشادات في هذا الشّأن ووجدت أنّ عليّ الاستعانة بالصّوم والأذكار.

من حينها، مدجّجًا بكامل عزمي الوليد، أخضعت نفسي لنظام صومٍ صارمٍ. مضيت أصوم يومًا وأفطر يومًا. وفي الأيّام الّتي أفطر فيها، أقسر نفسي على نظامٍ غذائيٍّ باهظ التّقتير. لم أدّخر جهدًا في معركتي تلك، أقسم لك!

وصار وقتي النّهاري مشحونًا بالانشغالات: الذّهاب إلى المدرسة، العَدْو والتسلّق، الصّوم والأذكار، الاستغراق في المذاكرة،...، إلى أن اطمأننت أنّه لم تعد ثمّة ثغرة نهاريّة واحدة بوسع أنهى هاجسٍ ينسلّ منها إلى عالمي الدّاخلي وإرباكه.

وكنت لحظت ببداية تلك الفترة أنّ علاقة والدي بالشّيخ أبي يزيد لم تعد كسابق عهدها. طفا على تعاطيهما نوع من البرود بل وحتّى الضّيق. لم يخفَ عليّ ذلك رغم أنّ الأسباب ظلّت محتجبة.

اقتنصتها فرصةً وصارحت أبي برغبتي الكفّ عن التزام تلك الحَلَقة المسجديّة: لم أعد أجد فيها أيّ جديد، كما أنّني بتُّ أحتاج تخصيص زمن أكبر لإنجاز فروضي المدرسيّة، سيّما مع إقبالي على الثّانويّة العامّة. سُقت لأبي هذه الحجج مع أنّ دافعي الأساسيّ كان الرّغبة في تقليص زمن اضطراري للتّواجد مع علاء لحدّه الأدنى.

قبل ذلك كان ثمّة عامل ساعد في دفع علاقتي بأبي نحو التّعافي، يتمثّل في أنّ شقيقيّ الحسن والحسين أخذا يُظهران قدرات باهرة في الحفظ والاستيعاب. لم يتجاوز عمرهما الخمس سنوات، ورغم ذلك صارا يجيدان القراءة والكتابة، وأضحت دماغاهما الغضّتان تتشرّبان السُّوَر القرآنيّة بسرعة تشبه المعجزة، مدفوعَين بحمّى منافسةٍ لم يوفّر أبي أيّما وسيلة لإذكائها. ولك أن تتصوّر أيّ بريق صار يشعّ من عينَي أبي إذ يراقب نموّهما! لم يعد يساوره أدنى شكّ في قابليّة حلمه للتحقّق. ليست إلّا سنوات قليلة ويصير لديه، في منزله ومن صلبه، عالِما دينٍ كبيران، وما الّذي سيمنع أن يغدو أحدهما إمامًا للطّائفة؟! اطمئنانه هذا أنساه خيبته بي. كما أنّني كنت جنحت إلى التّسامح معه نزولًا عند اشتراطات وجودي الجديد، حيث عصيان الوالدين أو إضمار الشرّ لهما أو لأحدهما من الكبائر. حتّى أنّني شعرت بتأنيب الضّمير حيال قراري الغابر بأنّي سأقتله. استغفرت الله عن ذلك مرارًا ولعنت الشّيطان.

وافق أبي على طلبي بسرورٍ ظاهرٍ. اغتبطت بذلك وأخطرته بأنّني منذ الآن سأنتقل للسّكن بتلك الغرفة الّتي في السّطح، الغرفة المحرّمة. ابتسم وربّت على كتفي متفهِّمًا. كنت مدفوعًا لهذه الخطوة أيضًا برغبتي تأكيد التّغيير الحاصل وحراسته، تأكيده لذاتي بكلّ وسيلة ممكنة، حتّى بأن أغيّر غرفة نومي وفراشي.

الجدير بالذّكر أنّ ما أمسى يغريني لتلك الغرفة هو ما صرفني عنها سابقًا: شُحّة تفاصيلها ومظهرها المتقشّف. من حينها صارت تلك الغرفة هي منزلي داخل المنزل. لم أغيّر فيها شيئًا سوى أن صففت كتبي المدرسيّة في رفٍّ إلى جانب تلك الزّمرة المهيبة من الكتب العتيقة، وأيضًا بطّانية جعلت أفرشها على الأرضيّة العارية كلّ مساءٍ، أنام عليها دونما لفاع وأقوم بطيِّها وإخفائها بمجرّد استيقاظي لصلاة الفجر.

وإذا كانت نهاراتي اكتظّت على هذا النّحو فإنّ لياليّ لم تعد أقلّ اكتظاظًا. منذ عودتي من صلاة العِشاء إلى مسكني الجديد، أنهمك أوّلًا بتأدية ما بقي من واجباتي المدرسيّة، أنتهي منها ثمّ أستغرق في قراءة صفحاتٍ طوالٍ من القرآن، وأختتم بسلسلةٍ ممتدّةٍ من التّسابيح والابتهالات.

أيّ جاذبيّةٍ كان يكتسيها ذلك الزّمن!

أنّني وحدي هناك في تلك الغرفة، لا رفقة إلّا بضعة كتبٍ مُسِنّةٍ لا يكفّ عبقها السحريّ يتأرّج، وسراج شحيح ينوس على زاوية المكتب مضفيًا مزاجًا كهفيًّا لا أعرف كيف تسلّل إلى وجداني باعتباره ديكورًا أساسيًّا من أجل عبادة ناجعة، أيّ حسٍّ كثيفٍ بالنُّسُك كان يفعمني به ذلك! أيّ حسٍّ بالجلال، بالاصطفاء!

أخيرًا، ماضغًا ابتسامة وقورة، أضمّ برفقٍ دفّتي المصحف على صفحاته، أرفعه بمحاذاة وجهي، أمنحه قبلة من الأعماق وأعيده لمستقرّه في كرسيّه المهيب. أقوم بعدها عن السجّادة المقتضبة، أفرش بطّانيتي وأستلقي عليها كأنّما مباشرةً على الأرضيّة القارسة الصّلدة، وعلى الفور أجدني إزاء الوقت الأكثر خطورة في يومي كلّه.

لم يكن طويلًا ذلك الزّمن منذ استلقائي حتّى نومي. لعلّه لا يتجاوز بضع دقائق. انكبابي على تأدية كلّ تلك الأنشطة طوال اليوم مضى يقطع على السّهاد كلّ طريق إليّ. على أنّ ذلك الضّرام في دمي، الضّرام الّذي ما انخرطت في كلّ هذا النّضال إلّا لإطفائه، جعل يتّخذ من تلك الدّقائق القليلة حيّزه الزّمني الأمثل للمقاومة. لم يستسلم مطلقًا، وأنا بدوري لم أستسلم.

وكيما أمضي في خنقه بهذا الوقت أيضًا، حيث لم يعد بإمكاني الانهماك بعملٍ ما حركيٍّ ومناورة صوتي الدّاخلي، أخذت أرسل وعيي، منذ أنْ أغمض عينيّ استجلابًا للنّوم، إلى الماضي، أستجرّ أحداثه بنَهَم وتدقيقٍ.

لم يبدُ أنّ جزئيّة واحدة من ماضيّ قد تبدّدت. كلّ تفصيل عشته بدا محفوظًا في زاوية ما من ذاكرتي مثل مستحاثة، ما أن أُعمِل فيه اهتمامي حتّى يطفو متألّقًا بكامل جوّه، معيدًا ذات الانفعالات. بدا الأمر حسيًّا على نحوٍ مدهش. كان جسدي جزءًا أصيلًا من ذلك السّفر، وإلّا فما هذه الابتسامة الّتي ترتسم على شفاهي كلّما مررت بذكرى فرح، وهذه التقلّصات في عضلاتي والغصّة في حلقي حين أمرّ على مشهد حزن؟!

حنوّ عمّتي ومرحها، منافسة يزيد ورعونته، انطلاقة عائشة وصخبها، هدوء علاء ورصانته، ذلك الحسّ المزيج من الدّفء والضّيق والتبرّم لحظات يوقظني تدفّقي البوليّ على الفراش، ألق تلك الأصباح البهيّة، صخب الأيّام المطيرة، دفء البخور وشذاه، ألعاب الطّين المعجون، القهقهات بأنواعها، ...، كلّ التفاصيل كانت تنتظرني هناك في بئر الذّاكرة، ومع كلّ ليلة يزداد ولعي بنبشها وتدقيقها فأبدو مثل رجل يتفحّص كنزًا عثر عليه في أحلك ظروفه!

الحقيقة أنّ ذلك الدّأب أخذ مع الاستمراريّة ينسج لي، من مادّة ماضيّ نفسها، ماضيًا آخر، ماضيًا مزيدًا يمكنني القول. يغشاني النّوم كلّ ليلةٍ في خضمّ استجراري تاريخي الشخصيّ، وما أن يفعل حتّى تنهمك قوى اللّا وعي تصوغ من جديدٍ الأحداث المُستَجَرّة، تفعل ذلك في الغالب بمزاجٍ فنتازيٍ أضفى مزيدًا من المتعة.

غير أنّ شيئًا واحدًا مضى ينغّص عليّ رحلاتي تلك. إنّه هجس الكشف عن روابط الأشياء ومن ثمّ إطلاق الأحكام. منذ الوهلة الأولى لانتزاعي المشهد من غياهب الذّاكرة إلى شموس الوعي، لم يمكنني الاكتفاء بالولوج فيه وحسب. تعيّن عليّ أيضًا الاستسلام لتحرٍّ لجوجٍ ما انفكّ يحضر بكامل أدواته، أدوات

كشف واستقراء لم يتوانَ يُعمِلها في كلّ التفاصيل باحثًا بلا كللٍ عن خلفيّتها وعلائقها ببعضها. وعبثًا مضيت أحاول إزاحته. بصفاقةٍ لا تُحدّ، يعلن عن نفسه كلّ مرّة كشرطٍ مبدئيٍّ لإقلاع الرّحلة. لم يكن بمقدوري أمام تصلّبه سوى الامتثال مع الإمعان في غضّ الطّرف عن إزعاجاته ما أمكن. يومًا إثر آخر وتمكّن اللّعين من ضعضعة ليس فقط نشاطي الجزئيّ ذاك، وإنّما وجودي كلّه. حدث ذلك حين أطلق في أعماقي صرخته الرّهيبة: أنت قاتل!

نعم، قاتل! ليس مرّةً فقط، بل مرّتين! لم أقتل محض أناس، وإنّما الأحبّ!

عائشة، رفيقة طفولتي، لم يقتلها زوجها. أنا الّذي فعلت. الرّصاصة الّتي فجّرت قلبها أطلقتها أنا، هناك على قمّة الجبل بالقرب من المدرسة حين دعوتها لذلك السّباق السّخيف الّذي أودى ببكارتها! حتّى أنّني قتلتها مرّتين، مرّةً حين دفعتها لتثقب بكارتها، وثانيةً بنوعيّة السّبب الّذي جعل الآخرين يتناولون اسمها من حينه مثل وصمة!

أيضًا عمّتي صفيّة، قتيلتي الأخرى الّتي واريتها بفصلٍ من المهزلة نفسها، عمّتي وقد دسست في حلقها تلك الضّحكة الخنجر بسؤالٍ لا يقلّ سخفًا!

سقطت من جديدٍ في تلك الآلة الوحشيّة من الشّعور بالذّنب، تمضغني تروسها بلا توقّف. انسحقت كليًّا. بقيت لأيّامٍ عديدةٍ مسجّىً على فراشي مثل جثّة، ينخرني الأسى واليأس والحيرة.

أبي وأمّي وشقيقاي أظهروا اهتمامًا حقيقيًّا. أخذوني إلى المشفى مرّات، سهروا إلى جواري وكوّموا بجانبي الأدوية، غير أنّ دائي ظلّ أمضى من أدويتهم.

لم يكن ثمّة من يمكنني أبوح له. لا أحد. وحتّى لو كان هنالك، ما عساه ينفع البوح في شأن كهذا؟! تلك الصّرخة القاسية: أنت قاتل، أصابتني بالجحيم، وأنّى لمصابٍ بالجحيم أن يبرأ؟!

بأيّام انهياري تلك، كان يحدث أيضًا أن أسحب نفسي للحظاتٍ من تحت سياط الشّعور بالذّنب وأطلق عقلي بآليّاته المجرّدة في دربٍ من السّبب والنتيجة. حينها، كان وجودي يتلخّص بالتّالي: أنّه وجود من العبثيّة والسّخف بحيث جعلني أنسج بنفسي مشنقتين مميتتين لإنسانين هما الأحبّ إليّ. ومِمّ؟! من بولةٍ واحدةٍ!

آه! يا له من وجود! كم هو حقيق بأن أتبوّل عليه برمّته!

وينتهي بي الأمر كلّ مرّة إلى الضّحك، أضحك ملء حزني ويأسي، أضحك مثل شيطان.

لم يعد لدى أمّي أدنى شكّ في أنّني ممسوس. ألم تحذّر أبي مرارًا من تماهيه مع رغبتي الانعزال بتلك الغرفة أغلب أوقاتي؟ فليتفضّل الآن، ها هي النتيجة! انفرد شيطانٌ ما بابنها البِكر، راقبه أيّامًا ولياليَ وحين تأكّد من وحدته دلف إلى جسده واستوطنه!

ما به يحملق فيها مستغربًا؟! ألا يوافقها؟! ما تفسيره إذن لنوبات الضّحك الّتي ما فتئ الفتى ينخرط فيها منذ بداية مرضه؟! عليه أن يستدعي الشّيخ أبا يزيد دونما تأخير، ليأتي فيقرأ على ابنها الأوراد القرآنيّة اللّازمة لإخراج الشيطان الّذي تلبّسه!

ولو أنّ أبي لم يقطع على أمّي استرسالها ذاك في التشخيص، من يعلم إلى أين كان سيمضي ذلك الفصل من حياتي. أمرها بحزمٍ بأن تبتلع تكهّناتها. "الولد محموم، طبيعيّ أن يهلوس".

لم أهتمّ لسجالهما. ذلك الجدار الأسود الّذي انتصب أمامي شاهقًا بلا نهاية، ممتدًّا بلا نهاية، سميكًا بلا نهاية، استحوذ على كامل اهتمامي. ما عساي أفعل إزاءه، أنا المجرّد إلّا من أظافر بائسة ليس بوسعها تحفر فيه أدنى أثر ولو بقيت تخمشه أبدًا؟!

"لقد هُزمت"، اقتصر صوتي الداخليّ أيّامها على هذا الاعتراف المذلّ. رفعت يديّ علامة الاستسلام، واستحالت روحي رايةً بيضاء منكّسة.

حان الوقت لأُقدم على خطوتي الأخيرة، الخطوة الّتي لطالما ثابرت على كبحها بأوقاتي العصيبة. لم يعد لي الآن منها بُدّ.

دومًا ما ينعتون من يعجز عن الانسجام مع وجوده بأنّه ضعيف، مريض، مجنون، والحقّ أنّ العكس هو الصّواب. كيف لقويٍّ عاقلٍ أن يحتمل وجودًا كهذا؟! وحدهما البلادة والجُبن يفسّران قدرة الكائن على المضيّ إلى النّهاية المحتومة، بلادة استسلامه لتلك الإرادة الغامضة المهيمنة بالمُطلق، المسمّاة بالقَدَر، المتواجدة أبدًا فوق المنطق والّتي لا تتوانى تسحق الكائنات وكأنّما مكرّسة وحسب لإلحاق الضّرر. فإن لم تكن البلادة متأصّلة في الكائن فعلى الأقلّ أن يكون جبانًا بما يكفي لأن يتصالح مع التشوّهات، لأن يأخذ مسألة المعنى كشيءٍ ثانويٍّ، لأن يكفّ عن تطلّب نظامٍ ما للأشياء، لأن يحتضن الأضداد ويمضي بها دونما ثورة أو ارتباك.

فليستمرّ الجميع في هذه اللّعبة السّخيفة إن شاؤوا، أمّا أنا فلست بالمجنون أو المستهتر أو الجبان. سأغادر. لعبة لم يكن لي قرار ولوجها، ليكن لي على الأقلّ قرار مغادرتها.

تخيّرت الوقت الّذي يكون فيه الجميع منشغلًا، أبي وأمّي وشقيقاي، وذهبت إلى المطبخ، امتشقت سكينًا، صعدت إلى غرفة السّطح وأوصدت على نفسي الباب. "جثّماني فقط سيخرج من هنا".

لقد سئمت كلّ هذا، سئمت أخوض لججًا لا تبرح تُراكم فيّ شواشًا إلى شواش، سئمت واكتفيت.

جالسًا على كرسيّ المكتب، قابضًا سكيني بتصميمٍ وكلّ ذرّةٍ من كياني تتفجّر لعنات، قرّبت النّصل من رسغي الأيسر، أغمضت عينيّ وأوعزت ليمناي إنفاذ الحكم.

انتفضت!

هكذا بغتة وجدتُني واقفًا، قابضًا بيدي اليمنى معصمي الأيسر، متطلّعًا في الخدش السّطحيّ ومنصتًا لرنين النّصل على بلاط الأرضيّة!

أقسم لك، حين صعدت إلى الغرفة، حين أوصدت على نفسي بابها، حين جلست متأهّبًا على كرسي المكتب، لم يكن بقي فيّ أقلّ قدرٍ من المقاومة. كنت ممتلئًا بقناعتي بصوابيّة خطوتي، وقد أذعنت روحي كليًّا، حتّى أنّ مشهد المصحف الضّخم، فاردًا جناحيه على كرسيّه، لا أدري على أيّة سورة، لم يُثِر فيّ أدنى رغبة للتراجع أو لإعادة التفكير.

ما الّذي حدث إذن؟!

لا أدري. بدا وكأنّ جسدي بتلك اللّحظة الحاسمة، وقد وجد نفسه على شفا أن يُهدم، اتّخذ قراره باستقلاليّة تامّة عن سلطة الرّوح وقوّة الوعي. نوع من غريزة بدائيّة أمسك بالزمام وفرض إرادته، رفع حدّ النّصل عن أديم رسغي ورمى به بعيدًا بلمح البصر!

ولعلّك ستتوقّع أنّ أوّل ما شعرت به في الثّواني التّالية هو ذلك الحسّ المهين بالجُبن، بأنّي لم أمتلك ما يكفي من الجسارة لألقي بنفسي في فم العدم على نحو ما كنت قررت، لكن لا. كنت فقط متفاجئًا ممّا حدث، ومتحيّرًا. كنت مدركًا تمامًا أنّ من أحبط قراري لم يكن وعيي، وإنّما قوّة أكبر وأكثر عمقًا. ليس شأنًا يتعلّق بالجسارة أو بالجبن، وإنّما بنوعٍ من آليّةٍ غامضةٍ حملتني لدقائق تالية بعيدًا عن فكرة الانتحار، أحاول فهم ما حدث، تفسيره.

لم أصل إلى شيء. ظلّ الأمر مبهمًا. لم أقدر حتّى على صوغ فرضيّات. والحاصل أنّني حين عدت لوعيي بخطّ الزّمن بعد ذلك إلى ما قبل ردّة الفعل المبهمة تلك، لم أعد متحمّسًا لفكرة الانتحار. بقيت جالسًا على كرسيي كالمسلوب، وكأنّ فكرة الانتحار والأفكار الّتي سبقتها وأدّت إليها تنتمي لماضٍ سحيقٍ، بعيدٍ كلّ البعد.

قطرة دمٍ واحدةٍ سرعان ما تجلّطت، كانت هي حصيلة تلك العمليّة الّتي أردتها مجزرة. ألقيت برأسي إلى الوراء وأغمضت عينيّ، أحاول الاسترخاء. لا أدري كم بقيت من زمنٍ على هذه الحال قبل أن أعود فأستجرّ الأحداث وأدقّقها، الأمر الّذي انتهى بي أيضًا إلى الضّحك!

رأيت كم أنّ المنطق الّذي استندت إليه في محاكمتي لذاتي، والّذي أدّى إلى إدانتي، ساذج ومُضلِّل. بالتّأكيد فقداني لعمّتي ولعائشة أتى كنتيجة لخوضي ذلك السباق مع الأخيرة بتلك الظّهيرة المشؤومة، لكن إن كان عليّ استقراء الأحداث من هذا المنظور من السّبب والنتيجة، لماذا أقف بمنتصف المسافة؟! لماذا لا أمضي في ذلك إلى أبعد نقطة ممكنة؟! لماذا لا أستمرّ فأنظر في السّبب الّذي أدّى بي لاقتراح ذلك السباق من أساسه، السباق الّذي بقدر ما ينتظم في خطّ الأحداث كسببٍ، فهو أيضًا يأتي بدوره نتيجةً لسبب؟!

لم يتطلّب الأمر منّي لنسف منطق محاكمتي ذاك سوى أن أمضي فيه أبعد بضع خطوات:

ما الّذي ذكّرني بذلك السباق بتلك اللّحظة على قمّة الجبل؟ أن دهمتني الحاجة للتبوّل في جوّ يشبه ذاك في الحلم! ما الّذي أدّى بي لتلك الحاجة لحظتها؟ أنّني كنت شربت الكثير من الماء منذ

الصّباح! ما الّذي اضطرّني إلى ذلك أيضًا؟ كمية الغبار الّتي كنت تنشّقتها لساعات في صفّي الدّراسيّ!

حسنًا، يكفي إلى هنا لإثبات أنّني لست بقاتلٍ، فها هي كامل المسؤوليّة تنصبّ على الغبار!

أليس أمرًا يثير الضّحك فعلًا؟!

إنّ وجودي بكامله ليس سوى تفصيلٍ بسيطٍ متناهٍ ضمن الآلة الهائلة من الوجود الكلّيّ. إنّني لا أكاد أكون في هذه الآلة المعقّدة حدّ الرّعب أكثر من ذرّة غير مرئيّة في أحد مسنّناتها العملاقة الّتي لا تحصى، المتحرّكة أبدًا بمنطقٍ مستعصٍ على الإحاطة والإمساك.

بيد أنّ إدراكي هذا لضآلتي لم يمنع أن أبتسم من أعماقي، فالمهمّ الآن أنّني تمكّنت من إثبات براءتي. تملّكتني تلك السّعادة الّتي يحسّها من يدهمه الفرج بعد زمنٍ عسيرٍ مديدٍ. تنشّقت نفَسًا طويلًا طويلًا، كأنّما لأسحب إلى رئتيّ كامل أكسجين الغرفة. فتحت عينيّ لأرى أوّل ما أرى المصحف، فاردًا جناحيه على كرسيّه لا يزال. حشرجت غبطةً وأنا أفكّر بأنّ عودتي لدأبي السّابق لا تزال ممكنة، وأنّ المصحف لم يخدعني في توصيفه لشكل وجودي بأنّه ضربٌ من ابتلاءٍ ساحقٍ، شكلٌ من مكابدةٍ لا تنتهي.

قمت عن الكرسيّ، أعدت السكين إلى مكانها في المطبخ، دخلت الحمّام توضّأت وانطلقت إلى المسجد. كان المغرب يوشك أن يؤذّن.

على هذا النّحو استعدت انسجامي، عدت بي لصيغة الوجود تلك قبل النّكسة. فقط عوضًا عن انتهاجي السّفر إلى الماضي كاستراتيجية للهروب من سعير الرّغبة في الزّمن الضّئيل قبل النّوم، اتّخذ سفري وجهةً جديدةً، نحو المستقبل، أمضي في تصوّر ما ستغدو عليه حياتي منذ تحصّلي على الشهادة الثانويّة، حين أغادر البلدة للدراسة الجامعيّة في العاصمة، كيف أنّني سأنتهي من ذلك أيضًا وأسافر لبلدانٍ كثيرةٍ بعيدةٍ، ...، هكذا أمعن في صوغ حياة بلا متاعب، هادئة وبسيطة، أجمل ما فيها أنّني سأكون سيّد نفسي.

حمل لي ذلك متعةً تتجاوز تلك في استجراري الذّكريات. كنت هناك مقيّدًا بمنطق الواقع، وها أنا أحلّق هنا كيفما أشاء في سماء من التخييل. وفي حين كانت الخلفيّة العاطفيّة للسّفر بوجهته السابقة تُنسج من مادّة الحنين، ها هي الآن تُحاك من خيوط الأشواق، ولقد فضّلتُ دومًا الأناقة الرّوحيّة الّتي تضفيها الأشواق بألوانها الزّاهية، بما تتركه من انطباعٍ بالخفّة والمرح، على

تلك الّتي يضفيها الحنين بألوانه الكتيمة، بانطباعاتها من جلال وفخامة.

ورغم أنّ الأيّام عادت تمضي بعد ذلك منصاعة، إلّا أنّ زمامها لم يلبث أن عاد فانسلّ من يدي من جديدٍ مثل انزلاق سمكة، غائصًا في بحر الحيرة والمجهول. حدث ذلك بأحد الأصائل حين فتحت لي نافذةً إلى الجحيم، جحيم لاح في بدايته مثل جنّة، مثل فردوس!

أن أفتح نافذة غرفتي لتجديد هوائها، كان دأبًا يوميًّا منذ انتقلت إليها قبل أشهر. بقي دخولها محرّمًا على أمّي وشقيقيّ، وانقطع عنها أبي أيضًا فأمسى تنظيفها وترتيبها حصرًا عليّ، واحدًا من الأعمال اليوميّة التّافهة الّتي أنجزها بشكلٍ آليٍّ دونما حضور ذهن. لكنّني في ذلك الأصيل، خلافًا للعادة، لم ألتفت عن النّافذة فور أن فتحتها، ذلك أنّ عينيّ وقعتا على مشهدٍ جمّدني، خلبني.

مثل انبلاج فجر مُنتظَر، مثل تحقّق أمنية مستحيلة، سطعت بمتناول بصري، مرتديةً ثوب نوم أزرق اللّون طويلًا، تنبثق منه ذراعاها العاريتان مثل جدولين من نور، وينسكب شعرها الفاحم على كتفيها وظهرها بغزارة شلّال. كانت مولّيةً إيّاي ظهرها، ماضيةً من غرفة نومها إلى حمّامها الواقع منها على بُعد أمتار. منزلها، كما هو حال منازل المعسرين، ليس سوى حوش بُنيت بداخله ثلاث غرف متباعدة شُيّدت على دفعات بما لا يوحي بأيّة وحدة.

مشت خمس خطوات بتمامها، خطوات تركت فيّ انطباعًا بموسيقى فوق بشريّة. ويبدو أنّ مستوى أرضيّة الحمّام كان مرتفعًا بعض الشّيء عن أرضيّة الحوش، ذلك أنّها في دخولها شمّرت ثوبها مفصحةً عن نحو شبر من ساقيها، ساقين هما الغواية وقد تجسّدت.

اختضّت أحشائي لوعة، اعتركت في صدري جياد محمومة ورشحتُ عرقًا كما لو أُطهى.

لا أدري كم أبديّة استغرقتها في انتظاري خروجها، مضطرب الأنفاس، ملصقًا عينيّ في باب الحمّام، متشبّثًا بقضبان نافذتي بتحرّق سجينٍ لم يرَ الشّمس منذ دهر. لم أعد أرغب من دنياي سوى بأن أتمعّن وجهها للثّوان الّتي سيستهلكها عبورها التّالي.

احتياجي الدّفين المتراكم، إضافة للمباغتة الّتي اعتمدها الموقف، صيّرا عينيّ أكثر حِدّة من عينَي صقر، وها هما تلتهمان وجه الحوريّة في خروجها. إنّه الوجه الصّبيح نفسه الّذي كان قبل سنوات، حين كان لا يزال بوسعي النّظر فيه دونما حرج، قبل أن أكبر فيحجبه عنّي النّقاب.

طوال وقوفي على هذا المشهد واستغراقي في تداعياته، لم أكن التفتُّ لحقيقة أنّ هذه المرأة ليست إلّا أمّ صديقتي الرّاحلة عائشة.

كنت صائمًا ذلك اليوم، ولكن فقط إلى حين رأيتها. فبعد أن حجبتها عنّي جدران غرفتها ثانيةً، وبدأ وعيي يعود بالتّدريج، أحسست البلل يغمر سروالي الدّاخليّ.

أيّ ذنبٍ اقترفت! أيّ ذنب! لقد هتكت سِتر جارتي الّتي في عمر أمّي، أنشبت حواسي في جسدها وارتشفت مفاتنها حتّى السُكْر، يا لي من دنيء!

بالرّغم من ذلك لم تتمكّن مرارة شعوري بالذّنب هذه المرّة من اجتثاث حسٍّ راسخٍ بالسّعادة. كانت جميلة، جميلة فوق قدرتي على الاحتمال. ليس أنّ القحط الّذي عانيته ببيئتي في كلّ ما يتعلّق بالأنثى قد مارس عليّ لعبة السّراب فأرانيها جميلة خلافًا للواقع، مطلقًا. كانت بالفعل فاتنة.

والحقّ أنّ معاناتي تلك مع علاء، المعاناة الّتي لم يكن أوارها انطفأ، جعلتني أكثر تقبّلًا للذّنب الجديد. على الأقلّ، الاشتهاء هنا يمضي في مجراه. نعم ثمّة اعتبارات تجعل من اشتهائي لأمّ عائشة بالذّات فعلًا شائنًا، لكن بالنّهاية ورغم كلّ شيء، لن يعدو الأمر أنّ رجلًا يشتهي امرأةً. لا شذوذ في ذلك.

أمسيت مسكونًا بذلك الجسد. لم تعد تفاصيله تفارق خيالي أغلب أوقاتي، وبات من صميم نشاطي اليوميّ أن أنغرس في كرسي المكتب أمام النّافذة منذ الظّهيرة حتّى الغروب، لا تكفّ عيناي تمسح ذلك الدّرب المقتضب من غرفتها إلى حمّامها، تترصّد خروجها إليه. وفي الوقت ما بين مسحٍ عيانيٍّ وآخرٍ، وفيما أحاول مطالعة درسٍ ما، تبقى أذناي متنبّهتين مثل مجسّين عملاقين، ما أن

تلتقطا أنهى صوت من جهة منزلها حتّى أثب إلى نافذتي وأكمن، ملتهب الحواس، لتلك الفتنة البضّة.

في الأيّام الأولى من ذلك، بأوقات معيّنة منها، حين يمسك القاضي داخلي بالزّمام، بقيت أجلد ذاتي بعتابٍ قاسٍ. لكنّ ذلك لم يدم طويلًا، إذ لم تكد تمضي بضعة أيّام حتّى مررت في وِردي القرآنيّ اللّيليّ بسورة يوسف.

بدت لي هذه السورة ليلتها كما لو أُنزلت للتوّ، كأن لم أكن قرأتها من قبل عشرات المرّات! من قبل، لم أكن أقرأها. كنت أهذيها وحسب. تنزلق عيناي على حروفها دون أن تلامسني. نَغَم التّرتيل فقط كان يجعلني أتخشّع. أمّا الآن فها أنا أتلقّى كلّ حرف منها بتلهّفِ جائعٍ لرغيفٍ طازج. شعرت كأنّها لم تُنَزّل إلّا من أجلي، كي تخبرني بهذا التّوقيت بالذّات بأنّ للجمال سطوة تبرّر ضروب الاشتهاء، حتّى أنّه، حين يكون جمالًا مبالغًا، يبرّر هوس الإشباع ولو اتّخذ طريقًا منحرفًا!

كنت أنفر من كتب التفاسير. لم أرتح لها يومًا. يختلط فيها الإلهيّ بالبشريّ على نحو مشوِّش. وحين يُشكل عليّ لفظٌ ما ألوذ بالمعجم، أفتّش في المرادفات حتّى أعثر منها على ما يجلّي المعنى وأمضي. وهنا، حين قرأت سورة يوسف هذه المرّة، يرويها الله على نبيّه وعلى النّاس، لم أحتج لا لكتب التفسير ولا للمعاجم. كلّ

شيء صاف وواضح وقريب، كلّ لفظ يحظى بمعناه من فوره. وكان أكثر ما لفتني أنّ نبرة الله في القصّ لم تحوِ لبطلة القصّة، الملكة المتزوّجة الّتي يتلخّص دورها بسعيها المهووس لأن تزني، أيّ تقريع! بل على العكس طغى عليها التسويغ، فها هي هذه الملكة العاشقة حين تتناهى إليها نميمة نسوة المدينة، يتحدّثن عن هوسها بفتاها، ترسل في طلبهنّ، تجلسهنّ صفوفًا، تناول كلّ واحدةٍ منهنّ سكينًا وفاكهةً ثمّ تأمر معشوقها بأن يتجلّى، وما أن يفعل حتّى يسلب، لشدّة جماله، وعيهنّ إلى حدّ لم يشعرن بالنّصال تغوص في لحم أيديهنّ!

كانت الملكة واقعة تحت سطوة غريزتها، وقد ألهبها جمال الفتى فنصبت له قصرها مصيدة. حاولت معه في البداية بألوان الإغراء، لكنّها على كلّ حال كانت أعدّت لكل الاحتمالات. إن لم يأتِها راغبًا، سيأتيها مكرهًا. كلّ الأبواب موصدة، لا مجال له ليهرب. وحين حاول أن يفعل، كانت بلغت بها حمّى الرّغبة أن اندفعت لاغتصابه بضراوة لبؤة. أنشبت فيه أظفارها وناوشته إلى أن مزّقت ثيابه!

والواقع أنّ المرء حين يحبّ بصدق، فعدا عن أنّه لا يأخذ محبوبه بالإكراه، هو أيضًا لا يتوانى في أن يفتديه إذا ما اقتضي الأمر، أمّا هذه المرأة فما أن بوغتت ووجدت نفسها تواجه خطر

العقوبة حتّى ألقت بيوسف كضحيّة دون أن يرفّ لها جفن، بل ومتوعّدة بعد ذلك بأنّها لن تتوانى في سبيل إشباع رغبتها منه في تعريضه لأشدّ صنوف العذاب! لم يكن ما يدفعها إلى الفتى إذن شغف روحٍ بقدر ما هو سُعار جسدٍ، فوران رغبةٍ حسيّةٍ.

وحيث إنّ يوسف كان، رغم عفّته وتقواه، "هَمّ بها" لولا أنّ قوّةً ما من خارج كينونته وغير محكومة بإرادته تدخّلت، فقد عزّز ذلك من قناعتي بأنّ الله إنّما يريد بهذه القصّة إخباري مقدار تفهّمه لضعفي البشريّ إزاء الجاذبيّة الحسيّة الّتي يفيض بها الجسد الّذي عثرت به قبل أيّام، الجسد ذو الجمال الاستثنائي.

وبالطّبع، كان هذا أكثر من كافٍ لإلجام القاضي في داخلي فمضيت في الأمر مذّاك بحسٍّ القابض على صكّ غفران مؤكّد، كيف لا وهو مرقوم قرآنًا!

من حينها لم يعد بمقدوري الصيام. لم أكفّ أتبلّل كلّ يوم بمجرّد أن تلعَقَ عيناي تينك السّاقين اللّذيذتين في اجتيازهما عتبة الحمّام. وأضحى خروجي للهرولة والتسلّق نادرًا، يمضي الأسبوع أحيانًا دون أن أنجز رياضتي هذه ولو مرّة واحدة. وحيث إنّني كنت فترتئذٍ أجتاز الثانويّة العامّة، السّنة الدراسيّة الّتي تتعلّق على نتيجتها جُلّ آمالي المستقبليّة، ولتعويض وقتي النّهاريّ الّذي أبدّده أمام النّافذة، استبدلت بالمذاكرة طقسي التعبّديّ الليليّ ذاك من

قراءة قرآن وصلاة وتسبيح. أمّا عن أحلام اليقظة الّتي كنت أستعين بها قبل النّوم لتحملني بعيدًا عن لهيب الاشتهاء، فصارت تدور كليًّا في فلك الجارة، حوريّتي المستحيلة، ما يعني أنّني استسلمت أخيرًا لذلك اللّهيب وقد استندت إلى ما اعتبرته تسويغًا سماويًّا.

تُرى، لو أنّها تعرف إلى أيّ مدىً أنا مشغوف بها، ما عساها تكون استجابتها؟! صحيح أنّها تكبرني سنًّا بكثير، أنّها من جيلٍ وأنا من آخر، لكنّ ذلك لا يمنع أن تكون زوجتي.

زوجتي؟! ألست مبالغًا؟! فحتّى لو افترضنا أنّها علمت بمشاعري نحوها وأنّها، جَدَلًا، بادلتني إيّاها، محالٌ أن يتقبّل النّاس ذلك، سيّما أهلي. أمّي بالذّات، وهي الّتي كافحت زمنًا لتتجاوز هاجسها بأنّ أبي سيتزوج تلك المرأة، ستأتي بثورة، ربّما بمجزرة!

بهذه الأسئلة والهواجس مضيت أستفتح نشاطي الذهنيّ ذاك كلّ ليلة. يتشكّل إزائي جدار منيع يحجب عنّي حوريّتي فأشيح عن تناول الأمر بإطاره الواقعيّ مفسحًا المجال لخيالي، يصوغ لي مع محبوبتي نعيمًا من مادّة الفُحش يبلغ انتعاظي فيه حدًّا أشعر معه كما لو عضوي يتمزّق.

على أنّني كنت عاهدت نفسي أن لا ألوذ بالاستمناء مهما بلغت معاناتي في ذلك. مقتديًا بالنّبي يوسف، توجّب عليّ أن أبذل

أقصى مجهود ممانعة، أن لا أستسلم لرغبتي كليًّا، أن أثبت لله أنّه لا يزال رغم كلّ شيء هو القيمة الّتي تحكم حياتي فأستحقّ بذلك عطفه وتجاوزه عن ضعفي، وها أنا أمنع يديّ من التدخّل لإطفاء نار الرّغبة وهي تغتذي على دمي!

كان ذلك التدفّق يحدث نهارًا من تلقائه، بمجرّد أن تتجلّى معشوقتي كاشفةً عن ساقيها، لكنّه يبقى في اللّيل متمنّعًا مهما أوغلَتْ خيالاتي فُحشًا.

والحقّ أنّ إصراري ذاك لم يكن بلا جوائز. ظلّ يفعمني بذلك الشّعور من تقدير الذّات الّذي يحسّه المرء في تمكّنه من كبح رغبة حسيّة ملحّة، وأيضًا فإنّ الأحلام لم تتوانَ تنجز دورها المُنقِذ. ما أن يغمرني النّوم إلّا ويجزل لي اللّا وعي من عطائه الرّائع. يمضي في تضخيم ما كان من أحلام يقظتي مضفيًا قدرًا أكبر من الحسيّة جعلني أستيقظ كلّ فجرٍ بروحيّة من قضى ليلته مع عروسه المشتهاة، وبالطّبع أيضًا بسروالٍ مبللٍ، ما يعني اغتسالًا بالماء البارد في جوٍّ من الصّقيع، لكن من عساه يعبأ لضريبة تافهة كهذه!

ولكن أليس أنّها انتبهت لاهتمامي أخيرًا، لتحديقاتي المشبوبة؟! ألم تغدُ ترسل عينيها، في اجتيازها ذلك الدّرب الضّئيل، نحو نافذتي وإن كالوميض؟!

بلى، لقد رصدت ذلك بوضوح.

أم تراها أوهام التمنّي تشوّش حواسي؟!

لا، ليست أوهامًا. لقد لاحظتني بالتّأكيد. بل لا أستبعد أنّها صارت مشغوفة بي، وإلّا فلِمَ أضحت تطيل بقاءها في الحوش على غير عادتها، مرتديةً ثيابًا تفصح عن جسدها أكثر كلّ يوم؟! نافذتا غرفتها أيضًا لم تعودا موصدتين أغلب الوقت كالسّابق، صارتا تُفتحان معظم النّهار، وكم مرّةً انبثقت من إحداهما، مرتفقةً الحافّة مطلّةً برأسها تتملّى في ولهٍ مشتل الورد ما بين غرفتها وسور الحوش؟! صحيح أنّها تتجاهلني في كلّ ذلك، أنا القابع في مكمني متحرّقًا، لكنّ ذلك بالتّأكيد عن قصد: تريد تأجيجي أكثر!

كدت أُجَنّ من الحيرة. يجب أن أتيقّن من الأمر، أتهتمّ لي حقًّا أم أنّ ملاحظاتي تلك ألاعيب سراب. لم أملّ أقرّر كلّ ليلة بأنّي سأستلفتها في الغد، سأناديها، سأشير لها بيدي، سأفعل أيّة حماقة من شأنها توصلني لمعرفة ما تشعر به نحوي، بل، ويا لانسحاقي، لمعرفة ما إن كانت انتبهت لاهتمامي من الأساس. لكنّ ما أبقى أجمعه في ليلي من شجاعة ظلّ يتبخّر فور انبلاجها أمامي نهارًا. تُخدّر النّشوة حواسي في البداية، ثمّ يأتي بعدها ذلك الاحتمال الجحيميّ بأنّها قد تصدّني فيجتثّ عزمي من جذوره.

أن يكون كلّ ذلك وهمًا، مع استمراريّتي فيه، فهو لا شكّ مؤذٍ، لكنّني أفضّل البقاء تحت سياط الشّك هذه إلى الأبد على أن أستيقظ يومًا على يقينٍ بأنّه وهم.

جاء رمضان ذلك العام وأنا على هذه الحال. وكيما أصون صومي، مضيت ألازم المسجد طوال النّهار، لا أغادره إلى المنزل إلّا لضرورة. التزمت ذلك رغم أنّ اليوم الواحد ظلّ يمضي مثل عامٍ من العذاب، تزحف ساعاته وثوانيه بطيئةً دبقةً مثل ديدانٍ على جلدي. لم يكن صومي عن الأكل والشرب هو ما يستهلكني، بل صومي عن تمعّن المحبوبة. فليكن، المهمّ أن لا أخيّب ظنّ الله بي!

كنت أشحذ عزمي لذلك أيضًا بأن أمنّي نفسي بأنّني إذا ما نجحت في هذا الامتحان فإنّ الله سيهبني حوريّتي كجائزة، سيلوي عنق المنطق والأقدار ويأتيني بها، أليس هو القادر على كلّ شيء، المجزل عطاءه لعباده المخلصين بغير حساب؟!

وكان من عادة أبي في رمضان، كغيره من الموسرين، أن يتصدّق بمبالغ ماليّة وببعض الحاجيّات على المعسرين من أبناء البلدة. كان ثمّة نظام يسير عليه في ذلك هو وأمثاله، يذهبون بصدقاتهم إلى الشّيخ أبي يزيد وهو يوزّعها بناءً على ترتيبٍ مسبقٍ بينهم وإيّاه. لكنّ علاقة أبي مع الأخير كانت، كما سبق وأخبرتك، تأزّمت لسببٍ لم أعلمه، وهو ما جعله يوزّع صدقاته في رمضاننا

هذا بنفسه. وكانت أمّ عائشة على رأس قائمة أبي. وليس فقط لخشيته إيقاظ غيرة أمّي امتنع عن الذّهاب إليها بشخصه، وإنّما أيضًا لأنّها وحيدة في منزلها، وألسنة النّاس حادّة وتقطع. أوكل إليّ بهذه المهمّة.

لم يسعني أخذ الأمر إلّا على أنّه ترتيب سماويّ، قَدَر من تلك الّتي يتجلّى فيها الكرم الإلهيّ، الإقرار والمكافأة. حملت بيديّ الكيسين ومشيت الخطوات القليلة من منزلنا إلى منزلها. كنت مع ذلك ممتعضًا من الإيحاء الّذي يحمله تكليف أبي لي بالأمر. ما زلت في نظره طفلًا ليس في ذهابه إلى بيت المرأة ما يغري النّاس للتقوّلات!

"لا أيّها الغبيّ!"، زجرت نفسي: "إنّه فقط لا يتوقّع أنّك قد تحمل هذا النّوع من العاطفة لامرأة في عمر أمّك، امرأة هي أيضًا أمّ صديقة طفولتك المقرّبة". وهصرت قلبي غصّة ما.

بقلبٍ وَجِلٍ، ناديتها من باب الحوش، ولم يجئني صوتها إلّا إثر النّداء الثّالث، بأن أدفع الباب وأدخل. فعلت مُتَعتَعًا بألف شعور وآخر. استقبلني أريج المشتل مثل هَدهَدة. مشيت خطوتين إلى ركن غرفتها وتوقّفت. وفيما كنت أهِمّ بمناداتها مرّة أخرى إذا بها تسطع باسمةً: "أهلًا إبراهيم!".

تبلّدت، خارت ركبتاي وشخصت ببصري بتلك الطريقة لرجلٍ يحدّق في قرص الشمس بعزّ الظّهيرة. ناولتها الكيسين مضعضعًا ودون أن تسعفني بديهتي بأيّما كلمة. كانت مرتدية ثوبًا محتشمًا بعض الشّيء، وإنّما حاسرة الرّأس ومبتسمة. وفيما أناضل للتّحكّم بقدميّ المرتعدتين من أجل انسحابٍ لائقٍ، استبْقتني بالسؤال عن حالي.

تجمّدت لوهلة ثمّ تأتأت بأنّي بخير.

"الحمد لله.. طمأنتني!"، نبست محتفظةً بابتسامتها، ثمّ على الفور، ناظرةً الآن صوب نافذتي: "افتقدتك في الأيّام الماضية فمضيت أتساءل ما إن كنت بخير!".

ازدردت حنجرتي مرارًا، أغالب بكاءً دهمني بإصرار. بتلك اللّحظات لم يعد جمالها مؤثّرًا على نحو ما كان، أقصد لم تعد استجابتي له هي الانتشاء. وعيي بما بلغه ارتباكي أفقدني ثقتي بنفسي وقذف بي في تلك الرّحى من السّخط على الذّات.

"في الحقيقة.. أنا.. أقصد.. حسنًا"، وقد غطّى العرق تفاصيلي. أحسست وجهي يتبخّر. اقتنعت بأنّي أكثر الخلق فشلًا وإثارةً للسخرية والرّثاء.

ازدادت ابتسامتها اتساعًا ولم تنبس.

"حسنًا، أعتذر!"، فقط بهذه الجملة أسعفتني أخيرًا بديهتي المترنّحة!

"لا بأس، لا تعتذر"، ثمّ، من صميم ابتسامتها تلك الّتي لم تكفّ تنمو: "إن أحببتَ، سأنتظرك في العاشرة مساءً!"، واستدارت ماضيةً نحو ما يبدو مطبخها، تحمل بيديها الكيسين، مخلّفةً إيّاي بمكاني مثل وتد، وأيّ وتد!

المفاجأة الّتي فجّرتها في وجهي بجملتها الأخيرة فاقمت ارتباكي حدّ الخبال.

"أجل، أجل.. فليكن!"، دحرجت وراءها هذه الكلمات، ومضيت أقتلع خطاي من حوشها كما لو قدميّ ممغنطتان والأرض فولاذيّة.

لم يمكنني العودة إلى المنزل. سيلحظون ارتباكي ولن أفلت من تحرّياتهم وتخميناتهم. أيضًا لم يكن وضعي النفسيّ يسمح بالمضيّ إلى المسجد. أسلمت قيادي لقدميّ تجرّانني دونما وجهة، وأدرت عينيّ إلى داخل جمجمتي، أتمعّن الفوضى الّتي خلّفها اللّقاء.

كنت مستاءً من نفسي لأبعد حد. شعرت بأنّي لست أهلًا للتّعاطي مع الواقع، أنّي، مثل أيّ جبان، مهيّأ وحسب للعيش في عالمٍ من التخييل، هناك حيث تنمو الرّغبات وتتحقّق دونما أخطار

ولا محاذير، حيث البطولات سهلة والموجودات أقلّ شيئيّة من فقاعاتٍ سيكفيك لتبديدها فقط أن تفتح عينيك. إنّني وللأسف الشّديد لا أمتلك جرأة تلك الملكة العاشقة في سورة يوسف، ولا ذلك الاستعداد الواقعيّ للاستجابة الّذي أبداه الأخير بلحظةٍ ما. أبدًا، لن أمتلك من الجسارة ما يكفي لخوض مغامرات كهذه. أمّا هي فلا شكّ أنّها الآن تضحك، تسخر من هشاشتي، هشاشة الفتى الّذي أفنى نهارات كثيرة يترصّدها ثمّ ما أن وقفت أمامه حتّى ارتعد وطفَت في عينيه دموع الخشية والارتباك!

آه! يا للصنديد الّذي انتظرته!

حتّى دعوتها تلك لي لزيارتها مساءً لا يمكنني فهمها سوى في سياق رغبتها المزيد من التسلية، المزيد من الاستمتاع بخراقة الفتى المرتجف البائس. لكن لا، لن أذهب. سأمزّق هذه الصّفحة من حياتي وأنساها كأن لم تكن. إنّ تصوّراتي لإشباع رغباتي مُقدّر لها أن تبقى حبيسة الخيال، فحتّى لو حَبَتني الأيّام فرصةً سانحةً لأعيشها واقعًا سأجد كياني كلّه يرفض ذلك، يرفضه بمرارة وبشيء من الذّعر، تمامًا كما حدث اليوم.

استغرقني هذا السّبر، لم يقطعني عنه إلّا المشهد المكرور الحزين للشّمس في نضالها اليائس ضدّ الأذرع الخفيّة العملاقة تجتذبها بإصرار إلى وراء الجبل، إلى حيث ستخفيها طوال اللّيل.

كانت قدماي حملتاني بعيدًا، باتّجاه النّهر. سحبت نفسًا عميقًا وزفرته ببطءٍ كأنّما لأكنس عن صدري كلّ ما كان، وعدت أدراجي حثيثًا إلى المسجد، لصلاة المغرب.

إلى هنا إذن كنت اتّخذت قراري بطيّ هذه الصفحة إلى الأبد، لكنّ هذه القناعة عادت لتعلن نفسها محض هراء ما أن تناولت عشائي وخرجت لصلاة العشاء! تلك الثّقة وذلك الشعور بالقدرة، اللّذان يحسّهما المرء لدى امتلاء معدته بعد يوم صومٍ طويلٍ وشاقّ، حين يعود للعروق زخم النّبض، غمراني ونقلاني لأتمعّن الموقف من زاوية أخرى، ما أدّى بدوره إلى قناعة مختلفة، قُل معاكسة. وجدت كلّ تفصيل طبيعيًّا تمامًا، لا يحوي أدنى إبهام وليس فيه ما يدعو لاتّهام الذّات على نحو ما كنت جنحت.

بالنّسبة لها سبق وكانت زوجةً وأمًّا. تجربتها هذه تبرّر ولوجها في الأمر بذلك النّحو المباشر والمطمئنّ، تمامًا كما أنّ افتقاري التّام لهذا النّوع من التّجارب يبرّر تلبّكي. حتّى أنّ ارتباكي ذاك لا بدّ وأن ينتظم الآن في سلسلة الأحداث نقطةَ قوّةٍ لي. سيظهر جليًّا لحوريّتي أنّها حُبّي الأوّل، أنّ هذا الفتى لا يزال عالمه مسيّجًا بذلك الخِفر العذب لجسدٍ بكرٍ وقلبٍ مُصانٍ. أيضًا فإنّ قماشة المساء الكتيمة وهي تغلّف الكون أضفت عليّ اطمئنانًا بأنّ كلّ ما قد يحدث سيظلّ محجوبًا عن أعين المخلوقات، أمّا عيون

الخالق فسأنتظر منها ذلك "البرهان" الّذي أسعفت به النبيّ يوسف لحظة تمكّنت منه الرّغبة. إنّي على يقين بأنّها ستسعفني به أيضًا حين يقتضي الأمر، فقد بذلت جهدي من أجل ذلك!

انتظرت في غرفتي إلى أن دنا الموعد، بوجيبٍ يتنامى في صدري مثل أصداء طبولٍ تقترب. ليس عن خوفٍ بقدر ما عن حماسة، حماسة المرء لدى استعداده ولوج أماكن لم يطأها قبلًا، أماكن واعدة وخطرة.

والحقّ أنّ الأمر كان فقد الكثير من الخصائص الّتي تجعل من توصيفه بالمغامرة دقيقًا، فقد أعلنت المرأة موقفها المرحِّب صراحةً، حتّى أنّها هي من اقترح اللّقاء وضرب موعده، كما أنّ منزلها على مرمى بضع خطوات، وهي مسافة لا تنطوي على أدنى احتمال بعيون مترصِّدة، أيضًا فإنّه منذ انتقالي للسّكن بغرفة السّطح هذه لم يحدث أن باغتني أيّ من أهلي بزيارة مسائيّة، فلا مجال لانكشافي عندهم، هذا فضلًا عن أنّ البلدة برمّتها تكون في حلول العاشرة أوغلت في سُباتها الثّخين.

كلّ ما سأحتاجه إذن لإنجاز الأمر أن أدلّي السُلّم المعدنيّ المتنقّل_ هذا الّذي نستخدمه لبعض الشؤون، والّذي لحسن الحظّ يظلّ في السّطح دومًا_ أستخدمه للنّزول ثمّ أخفيه بالقرب من

حوش منزل حوريّتي إلى أن أعود فأتسلّقه إلى غرفتي حين ينتهي اللّقاء، اللّقاء الّذي أتمنّى أن لا ينتهي أبدًا!

كلّ تفصيلٍ محسوب بدقّة. نسبة المخاطرة منعدمة. أن تتقصّدني الأقدار هكذا على سبيل العناد، سيكون هو التّفسير الوحيد لحدوث أدنى مفاجأة، أقلّ انكشاف.

على هذا النّحو مضيت في الخطّة، وبالفعل تمّ الأمر على أكمل وجهٍ وأحسنه. في الموعد المحدّد بالضّبط كنت أدفع باب حوش منزلها، الّذي بالطّبع لم يكن موصدًا، وما أن دلفت وأغمدت الرّتاج حتّى استقبلني صوتها الهامس المرحِّب من نافذة غرفتها الأقرب. صرت في الجنّة حرفيًّا، إنّما فقط إلى أن فتحت لي باب غرفتها!

كنت مهتاجًا تلك اللّحظة، ليس هياج الرّغبة وإنّما انتشاء الفتى الغِرّ وقد وجد نفسه ينجز الاقتحام الّذي كان يئس منه مضفيًا على شخصه أخيرًا صفة المغامر، الصّفة الحلم لتلك المرحلة من العمر. على أنّني أيضًا، وبكلّ تأكيد، لم أكن انطلقت إلّا متوخيًا الجائزة المتمثّلة في الانصهار بجسد المحبوبة حدّ الإشباع والاكتفاء. كان هذا عشمي المُضمَر رغم مثابرتي في محاولات إبقائه بمستوىً ما أدنى من الوعي، الوعي الّذي عليه أن يبقى على دورانه

في فلك الله وبكامل الأهبة لاستقبال البرهان المنقذ في اللّحظة الحرجة.

أوصدتِ الباب سريعًا، ولكن، ويا لعَجَبي، كي ترتدي على الفور سيماء الرّزانة! انفتلت ماضيةً إلى أعلى الغرفة ببطء وصمت، تاركةً إيّاي متجمّدًا بمكاني، ينحسر هياجي أمام المدّ الكاسح للحيرة المفاجئة.

أجلت عينيّ في الغرفة بشيءٍ من الانكسار. ما من تفاصيل كثيرة. أثاث قليل ومتواضع، إنّما ناصع النّظافة ومرتّب، ما يترك انطباعًا بشخصيّة رفيعة الذّوق تعوزها المادّة. النّصف العلويّ من الأرضيّة مشغول بفراش وحيد متّسع، أسفل منه قليلًا منضدة واطئة من تلك الّتي قد تستخدم للكتابة، يقبع عليها سراج تترنّح شعلته بوهنٍ يحرّض على التّثاؤب، ثمّ لا تفاصيل أخرى سوى خزنة ثياب بسيطة تستند إلى جدارِ أسفلِ الغرفة.

بدا ذلك كلّ شيء، وها قد مرّت قرابة الدّقيقة منذ جلوس المحبوبة على طرف فراشها، الجلوس الصّامت المُتحجِّر، فيما لا أزال أنا لدى الباب مُسمّرًا مثل أبله.

التّناقض الصّارخ بين إيحاءاتها النّهارية تلك، أيضًا همسها المتبسّم لدى ولوجي الحوش قبل لحظات، وبين ركودها هذا المفاجئ والمبالغ، أربكني تمامًا. ساطني حسّ بالغرابة وأخذ الأمر

يتشكّل في وعيي، وإن على نحوٍ غائم، بصورة التّهديد والفخّ. لكنّ هذه الصّورة تبدّدت في ثانيةٍ حين انشقّ جمود ذلك الوجه، الوجه المشتهى، الوجه الحلم، عن ابتسامة بدت رغم اقتصادها وعدًا بسعادة لن تنتهي.

"ما بك؟! أم أنّك جئت فقط لتقف عندك؟! هيّا.. اقترب واجلس"، انهمرت مشيرةً بيدها إلى الطّرف المقابل من الفراش، على مبعدة منها، ما تكفّل باجتثاث حسّي الريبيّ واستعادتي ما كان من حيويّة.

اقتربت وجلست حيث أشارت، ومنذ تلك اللّحظة تمثّلت عاطفتي بذلك الفرح المتّزن المتعقّل الآتي من كونك وإن لم تحقّق مأربك تمامًا إلّا أنّك تقترب بأسرع ممّا كنت تحلم.

منذ وهلتها الأولى أخذت الجلسة صيغة الاستجواب، أنا من يتلقّى الأسئلة. أشعرني ذلك بالضّيق بدايةً، لكنّني سرعان ما انهمكت في الأمر بسعادة غامرة، بل وبتطلّبٍ واستجداءٍ داخليّين لم تضطرّني للإفصاح عنهما. كانت أسئلة عادية، عن أحوالي، دراستي، أصدقائي وأنشطتي، ومع كلّ سؤال يتكشّف لي أكثر مقدار ما كنت في حاجةٍ لاستجواب كهذا، استجواب يخضعني له شخص لا يمتلك عليّ أيّ نوع من السلطة عدا سلطة الحبّ الّذي

أكنّه له، شخص لا يلوح وراء أسئلته وعيدٌ ما ولا تجدك مضطرًّا لهندسة إجاباتك بناءً على تخمين نواياه المستترة.

كنت أزداد انسكابًا مع كلّ سؤال، وسعادةً أيضًا، ولولا أنّها لفتتني لاقتراب وقت السّحور، لما انتبهت أنا ربّما حتّى الشّروق. وقع عليّ تنبيهها مثل دلوٍ من الماء البارد. صعد بي من قاع الشّمالة إلى ذروة الوعي في ثانيةٍ واحدةٍ.

"أوه، أجل!"، نطقت بعد سكوتٍ ذاهلٍ قصيرٍ.

قمت مرتبكًا وخطوت مغادرًا، لكنّني توقّفت لدى الباب ملتفتًا نحوها باستجداءٍ ظاهرٍ. أردت سؤالها ما إن كان بوسعي تكرار الزيارة، ومتى؟! لم أقدر. كمّمني الخجل! لكنّ صوتها الباسم جاءني فيما أدير مقبض الباب وكأنّما قرأت أفكاري: حين يكون الوقت مناسبًا لزيارةٍ تاليةٍ، ستشير لي بطريقةٍ ما وسأفهم.

تلقّيت وعدها هذا مثل أجنحة طرت بها جذلًا إلى غرفتي على الفور.

بعد تناولنا السّحور ذهبت وأبي والتّوأمين لصلاة الفجر في المسجد. كانت صلاةً مزدحمةً بحوريّتي. وحين عدت لم أنم. بقيت سابحًا في فضاء اللّقاء العجيب المنصرم.

أحدث حقًّا أم أنّه محض حلم؟!

لم يمكنني التوصّل لحقيقة شعورها نحوي على نحوٍ قطعيٍّ. لماذا بعد أن ألمحت لي نهارًا بوعودٍ مسائيّةٍ مبالغةٍ عادت فارتدت الرّصانة ما أن جئتها في الموعد المضروب؟!

مع ذلك، أليس أنّها حتّى في استجوابها لي ظلّت تنضح دفئًا لا يفسِّره سوى الحبّ؟!

أوف يا إبراهيم! يا لك من أحمق! ما كلّ هذا التشكك؟! ما الّذي قد يدفعها لتدعوك إن لم يكن أنّها تحبّك؟! حتّى أنّ خلوّ اللّقاء من أيٍّ من الملامسات الحسيّة إنّما ينمّ عن سموّ عاطفتها، ذلك السموّ الّذي يعطي الروح كامل المساحة ولا يأتي الجسد إلّا لاحقًا كتتمّة. أمّا عن نبرة الحزن تلك الّتي ظلّت تطفو على صوتها، والمنسجمة أيضًا وحزن عينيها الّذي بقي واضحًا رغم شحّة الضّوء، فما الّذي قد يُتوقّع منها غير ذلك، هي المرأة الّتي فقدت زوجها أوّلًا ثمّ ابنتها الوحيدة، وتعيش وحيدةً منذ سنوات، منطويةً على فتنتها؟!

أجل، هذا هو. ليس ثمّة ما يدعو للاستغراب أو الريبة. والآن عليّ أن أنام قليلًا. لكنّني قبل ذلك مدين لله بشكرٍ جزيل، الله الّذي منحني هذه الفرحة العارمة بلحظةٍ أنا بأمسّ الحاجة إليها، الله الّذي لن أكفّ ألزم نفسي بأن لا تخيّب ظنّه أبدًا!

تكرّرت زياراتي لها كثيرًا بعد ذلك، أحيانًا على رأس الأسبوع وأحيانًا على رأس العشرة أيّام، وكأقصى حدّ على رأس العشرين يومًا. ظلّ تحديد الموعد راجعًا لها، تومئ لي حين يكون مناسبًا إمّا من حوش منزلها أو من نافذة غرفتها، حيث ظللت مثابرًا على تملّيها كلّ يومٍ على نحو ما سبق.

لزمنٍ طويلٍ نسبيًّا لم يتغيّر نمط تلك اللّقاءات في شيء. ظلّت على شاكلة لقائنا الأوّل. لم يُثِر فيّ ذلك حنقًا ما أو يأسًا. كنت أتفهّم الأمر. في النّهاية على الأشياء أن تأخذ وقتها.

الحقيقة أنّ رغبتي أيضًا، وهو ما كان يبدو لي غريبًا ولكن دون أن أمعن في محاولة تفسيره، لم تكن تتأجّج إلّا بالأزمنة الفاصلة بين اللّقاءات، ثمّ تشرع في الامتثال والتعقّل ما أن أغدو أمام المحبوبة. يغدو شغفي بها شأنًا روحيًّا بالدّرجة الأولى ويصير الجسد إضافة ثانويّة. على أنّني بقيت أنتظر بصبرٍ تحقّق هذه الرّغبة أيضًا. ظلّ يقينٌ ما يخالطني بأنّ ذلك موشك.

أطول فترة انقطاعٍ كانت لدى استعدادي وخوضي امتحاناتي الدراسيّة. انكببت أيّامها على المذاكرة، استغرقت فيها كليًّا. نتيجتي هذا العام لم يعد يتعلّق عليها فقط تحليقي عاليًا فوق أسوار البلدة، وإنّما أيضًا إقناع حوريّتي بالخطوة الّتي اعتزمتها بشأننا.

لم أفاتحها بعدُ بالمسألة. سأفعل مع إعلان النّتائج. بالنّسبة لها، ومنذ سنوات، لم يعد لديها أيّ سبب للبقاء هنا. أجزم أنّ العَوَز وحده ظلّ يمنعها من المغادرة. أنا أيضًا سأحلّق إلى العاصمة ما أن أحوز شهادتي الثانويّة. وطالما والأمر كذلك، أليست الخطّة الأمثل أن أصطحبها معي فنتزوّج هناك؟!

في البداية لن يعرف أحد، وستكون المبالغ الماليّة الّتي سيمنحنيها أبي كمصاريف دراسة كافيةً لإعالتنا معًا إلى أن أتخرّج من الجامعة، ثمّ لا يهمّ بعدها إن عرف الجميع. أكون غدوت حرًّا تمامًا ومستقلًّا، لا سلطة لأحدٍ عليّ، لا لأبي ولا لغيره، وسيصير بمقدوري تدبّر شؤوني مع زوجتي من عملي بمجالي التخصصيّ.

لَكَم أتحرّق إلى ذلك، إلى تلك الحياة الألقة الّتي تنتظرني فقط على مسافة أشهرٍ. فلأستبسل في المذاكرة إذن، فلأستغلّ في سبيل ذلك كلّ دقيقة وثانية.

تلك الصّورة الّتي نسجتها في خيالي لشكل حياتي المستقبليّة فجّرت طاقاتي الذهنيّة على نحو مدهش. أمام ذهني ذاك، المستثار بالصّورة الحلم، لم تعد تصمد أعقد مسائل المنهج الدراسيّ. جسدي أيضًا لم يعد يتلكّأ أو يتبرّم. لا مطالبات بساعات نومٍ كافية، بنظامٍ غذائيٍّ جيّدٍ، برياضةٍ واستجمام. هكذا على مدى أسابيع انهمك كياني كلّه في تأدية مهمّته الوحيدة، مهمّته المقدّسة

الوحيدة: أن يضمن أدائي في الامتحانات حصولي على تقديرٍ يتيح لي السّفر إلى العاصمة، إلى الجامعة وإلى العُشّ الحميم المُنتظَر.

حتّى بعد إتمامي الامتحانات، وفيما أنتظر بلَهَفٍ نتيجتها، لم أفاتح المحبوبة بنيّتي تلك. من الخطأ أن أتعجّل. فلتُعلَن النّتائج أوّلًا ثمّ سيصير كلّ شيءٍ أسهل. وقضيت شهورًا أخرى أتقلّب على جمر الانتظار، يقتاتني الترقّب ويذيبني الشّوق، شوقي لما قرّرت أنّه سيكون.

على أنّني بدأت ألمح في عينيها في زياراتي تلك الفترة بريقًا فسّرته بأنّه الفرح، الفرح وقد أخذ يفصح عن نفسه في ملامحها مؤكّدًا رسوخه في أعماقها. لَكَم أسعدني ذلك! ها أنا أنجح في إسعاد إنسانٍ أحبّه، أنجح في انتشاله من غَياباته وطواحينه.

لم أعرفني مهذارًا إلّا في أحاديثي معها. على الرّغم من تعدّد زياراتي تلك وطول زمنها النسبيّ إلّا أنّ أحاديثي لم تنضب أبدًا. أحيانًا، في زمن انتظاري الزيارة التّالية، كنت أفكّر بأنّني قد بدّدت كلّ مدّخراتي من الكلام، أنّني تطرّقت إلى كلّ شيءٍ ولم يعد بوسعي المزيد، لكن ما أن أغدو أمامها حتّى يتبيّن خطئي. يمتدّ الوجود في نفسي رحيبًا على نحوٍ مستحيل الاحتواء، يزداد رحابةً كلّما نجحتُ في أن أنتزع منها ضحكة واضحة أو تأثّرًا باديًا.

بيد أنّني بقيت أتحاشى تمامًا المرور بسيرة عائشة، بأيٍّ من ذكرياتي معها، وكنت أستغرب كيف أنّ ذلك لم يستلفت المحبوبة. بدت بدورها، وهو ما حيّرني أيضًا، وكأنّها تتحاشى ذلك مثلي. حتّى أنّها لم تقدّم لي سؤالًا واحدًا قد يفضي بي للحديث عن عائشة رغم أنّ جلّ جلساتنا ظلّت محتفظةً بصيغة الاستجواب، حيث أنا من يتلقّى الأسئلة.

وجدت في صيغة الاستجواب تلك راحتي. من ناحية، كنت في حاجة لأن أتحدّث عن نفسي كثيرًا سيّما وأن ليس لي أصدقاء حميمون، وأنّ الوحيد الّذي لي منهم هو أكثر من أنزع لاجتنابه. ومن ناحية أخرى لم أكن أعرف عنها الشيء الكثير، على أنّ ما أعرفه كان كافيًا لأدرك أنّها عاشت حياة منقوعة بالحزن، فما الّذي سيضمن إذا ما حاولت دفعها لتتحدّث عن نفسها، أنّ ذلك لن يتسبّب في نكء جرحٍ ما في أعماقها، جرحٍ الله وحده يعلم كم انتهب زمنًا من عمرها حتّى اندمل؟!

بسببٍ من حزنها الكثيف ذاك، وبدافعٍ من رغبتي التّخفيف عنها، مضيت أتقمّص في جلّ أحاديثي معها شخصيّة الفَكِه. مهما يكن الموضوع بعيدًا عن حقل الفكاهة، أظلّ حريصًا أن أحكيه من زاويةٍ تضمن بعض المرح. كان ذلك يسلّيها، وهو ما جعلني أبالغ فيه حتّى بلا اعتبارٍ لإمكانيّة أن تعتقدني أحمق. لكنّني، بإحدى

أماسينا تلك، قبل موعد إعلان النّتائج بقليل، وجدتني فجأة أفقد تلك الشخصيّة.

أخذني الحديث ليلتها إلى عمّتي صفيّة. ورغم أنّ الفكاهة وعمّتي كانا قرينَين، إلّا أنّ شعوري بالفقدان طغى لحظتها على كلّ شيءٍ ولم يمكنني مغالبته. كان لجوّ غرفة المحبوبة، بضوئه الشّحيح ودفئه العاطفيّ، الشّيء الكثير من جوّ غرفتنا تلك أنا وعمّتي، وها هي روح تلك الأسمار البهيّة في طفولتي تحوّم الآن تحت سقفي أنا والمحبوبة، وتمتدّ من العدم ذراعٌ عملاقةٌ أخذت تضغط على عنقي أكثر مع كلّ جملةٍ. لم يمكنني التوقّف أيضًا. بلغ حضور عمّتي أن غطّى على كلّ شيء، وإلى أن لم أملك في الأخير إلّا أن أجهش باكيًا.

إلى حينها، ولا أعرف ما إن كنت ستظنّني كاذبًا، ومنذ بداية العلاقة، لم تكن حدثت بيني والمحبوبة أيّة ملامسةٍ جسديّةٍ، أيّ نوعٍ منها وبأيّ مستوىً. لكنّني ما أن انهرت تلك اللّحظة تحت ثقل الوجد حتّى اقتربت منّي، طوّقتني وضمّتني إلى صدرها.

كنت لحظت تأثّرها منذ البداية، فقد كانت عمّتي صفيّة أعزّ صديقاتها كما صرّحت لي ذات مرّة، لكنّني لم أتوقّع أنّها ستبلغ أن تبكي معي أيضًا، وأكثر من ذلك أن تندفع لهذه الملامسة المباغتة!

دهمني فيض من مشاعر مختلطة. من جهة، ذلك الشعور المريح لدى تلقّي المرء احتضانًا في لحظةٍ هو بأمسّ الحاجة لاحتواءٍ

عاطفيّ، ومن ثانية، ذلك الشعور غير المريح لدى تحقّق حلمٍ وإنّما بغير صيغته المشتهاة (فالحضن هنا وإن كان تحقّق إلّا أنّه لم يكن حضنًا شهوانيًّا على نحو ما حلمت دومًا)، ومن ثالثة، ذلك الانتشاء لفتىً يتشرّب خَدُّه الآن دفءَ صدرٍ أنثويٍّ باذخٍ، حافلٍ بالوعود وعابقٍ بأريجٍ سحريٍّ مدوِّخ.

ظلّت تنشج، أمّا أنا فسرعان ما أزاح شعوري بالانتشاء كلّ شعورٍ آخر. استبدّت بي رغبة عارمة وحيدة: أن أغوص في هذا النّعيم الجهنّميّ لأقصى مدىً ممكنٍ، أن أمتلكه، أهتصره حتّى التّلاشي والفناء. قوّة جبّارة أمسكت بيديّ تدفعهما للقبض على النّهدين الوافرين، لاعتصارهما حدّ اللّوعة والألم. شفتاي ترتعشان محمومتين، تطالبانني بتمريغهما بكامل جغرافيا اللّذة هذه، أذناي متوقّدتان مثل جهنّمين، طبولٌ تُضرَب في صَدغَيّ، ولم يسبق أن بلغ انتعاظي هذا الحد.

"أفهمك! أفهمك وأشعر بك!"، همست في تأثّر: "أعرف جيّدًا معنى أن يفقد المرء عزيزًا".

هذه الكلمات المرتجفة، المُمزَّقة بعذاباتٍ خِلتُني تلك اللّحظة أفهمها، انتشلتني من تلك الحمّى الّتي أوشكت أن تتحكّم بي وأعادتني إلى الجوّ الّذي جاء منه هذا الحدث، جوّ الفقد. كنت بالطّبع تخلّصت من شعوري بالمسؤوليّة إزاء ما حدث لعائشة،

لكنّ ما حوته نبرة المحبوبة من وجعٍ أعاد إليّ ظلالًا من ذلك الشعور جعلتني أعضّ على شفتيّ من الأسى.

وعيت لماذا ظللت طوال المدّة السّابقة أتحاشى الحديث عن عائشة. كنت مدركًا من أعماقي بأنّ من شأن ذلك يقف بي من حوريّتي، رغم كلّ شيء، موقف الواتر من الموتور بما يفرضه من استدعاء الشعور بالذّنب. هي بالتّأكيد لن تكون على علمٍ بشيءٍ، لكنّني سأنسحق ألف مرّةٍ لدى أدنى تعبيرٍ منها عن فقدها لابنتها، تمامًا كما هو واقع اللّحظة.

ضمرتُ فورًا مثل عِذقٍ منسيٍّ. أرخت ذراعيها عنّي تمسح دموعها فمِلتُ بجذعي عن حضنها معتذرًا أن انحدرتُ بالجلسة إلى هذه الكآبة.

"لا بأس"، قالت ماضغةً ابتسامةً مُجهَدةً، مُرسِلةً كفّها تداعب خدّي: "المهمّ أن تكون ارتحت بهذا البوح. أعرف. لا أثقل على المرء من أن يراكم في صدره مشاعر شوقٍ ولهفةٍ ووجدٍ، مشاعر لا يجد في مداه من يمكنه يفضي بها إليه. نعم، أعرف كم بوسع البوح أن يكون مريحًا. آه! إنّني أحسدك الآن لو تعلم!".

لم أتمعّن هذه الكلمات وقتها. كنت مستغرقًا أكثر بتلك الدّغدغة اللّذيذة الّتي تزرعها أناملها في خدّي المكسوّ بلحيةٍ مُشذّبةٍ ومُعتنى بها. استثارتني مجدّدًا. تجاسرت هذه المرّة فأمسكت

كفّها واحتفظت بها بين كفيّ بوداعة من يؤوي عصفورًا وليدًا. ثمّ، ناظرًا في عمق عينيها، قرّبت تلك الكفّ من شفتيّ ولثمتها. لم تسحبها. أعدت لثمها مرّتين وثلاثًا، أطيل بقاء شفتيّ أكثر كلّ مرّة، ومع كلّ واحدة يزداد وجهها تضرّجًا، صدرها جيشانًا وأنفاسها تلاحقًا.

ازدحم دمي بصهيل جيشٍ من الأحصنة. أفلتُّ كفّها وقد صوّبت، على مهلٍ، شفتيّ نحو شفتيها الريّانتين، لكنّ سبّابة المحبوبة كبحتهما بمنتصف المسافة، تضغطهما برفقٍ وهي تخبرني بنبرةٍ مرتعشة بأن يكفي إلى هنا، وأنّ عليّ أن أعود الآن إلى غرفتي.

ربّما لو كنت صَمَمت أذنيّ لكانت استسلمت أخيرًا لنداء غريزتها وقد استثيرت على ذلك النّحو، لكنّني استجبت رغم هياجي. خشيت أنّني لو مضيت أبعد فقد أخسرها كليًّا.

"حسنًا"، نبست بشيءٍ من الانكسار فيما أقف ببطء. سحّبت خطاي مغادرًا، لكنّ صوتها الهامس بلغني من النّافذة لدى وصولي باب الحوش، يدعوني للاقتراب. مستغربًا، اخترقت مشتل الورد إليها، وكان لا يزال لذلك الصّهيل في دمي بقيّة. لم تنبس. مدّت يديها من خلال الفُرَج الطوليّة بين قضبان النّافذة، أحاطت بعنقي، قرّبتني ومنحتني على شفتيّ قُبلةً طويلةً طويلةً.

سكرانًا بالنّشوة، مضيت إلى غرفتي. بدا للوجود كلّه طعم العسل. وحين بدأت أصحو من سكرتي بدت لي تلك القبلة برهانًا على أنّ مخططي يسير إلى نجاحه. لم يعد لديّ أدنى شكّ في وقوعها بغرامي. لن تعترض أبدًا على فكرة سفرها معي إلى العاصمة. غمرتني السّعادة. وبتأثيرٍ من تحقّق الملامسة على ذلك النّحو المجتزأ، فقد بلغت معاناتي من حمّى الرّغبة في الأيّام التّالية أقصاها.

كان عليّ أن أخبرك قبل هذا أنّني كنت، مُذ عقدت العزم على الزّواج، وعلى ذلك النّحو الواقعيّ والمُخَطّط له، كففت عن استحضار وتحكيم قصّة النّبي يوسف وعاشقته في تطوّرات قصّتي، ذلك أنّ اعتزامي الزّواج من محبوبتي أضفى على العلاقة في وجداني كامل الشرعيّة، فحتّى لو انغمست معها حاليًّا بأتون الرّغبة إلى المدى الأقصى، فأنّي في الأخير سأتزوجها كافٍ لنيل رضوان الله ومباركته.

انهمكت تلك الأيّام أيضًا في التبتّل والصّلاة، أدعو الله أن يتمّ الأمر على نحو ما أرغب، أن يمنحني حوريّتي زوجةً وأن يملّس إزاء ذلك كلّ صعوبة. لا يمكنني أتصوّر لي زوجةً غيرها. هي أيضًا قد نالت من العذاب ما يكفي، وليس هناك من بوسعه إسعادها مثلي. كما أنّنا صرنا مشغوفين ببعضنا، فامنحنيها إلهي

الرّحيم، الودود، القادر.. امنحنيها وأعدك أن لا أكفّ يومًا عن شكرك!

أمسى كياني كلّه مكتظًّا فقط بهذا التطلّع: الزّواج من المحبوبة. وفي تلك الأيّام بالذّات، وعلى نحوٍ فاجأني تمامًا، حدث أن فاتحني أبي لأوّل مرّة بأمر زواجي.

كانت البلدة تشهد نوعًا من حمّى زواج. لا يكاد يمرّ أسبوع بلا أعراس، على أنّ جُلّها لأبناء موسرين. بدا وكأنّ منافسةً ضارية نشبت بين موسري البلدة، كلّ منهم يسعى للتفوّق على أقرانه بأن يزوّج عددًا أكبر من أولاده.

كنت يومها عائدًا وأبي من صلاة العصر إلى المنزل. فاجأني بحديثه هذا عن زواجي. استفتح بسرد أهميّة الزّواج، من كونه يحصِّن الشّاب من ألاعيب الشّيطان ويحميه من الوقوع في الزّلل، ثمّ أن ليس عليّ أن أخشى شيئًا من التّبعات. الخير وفير والحمد لله. سيتكفّل هو بمصاريف زواجي ودراستي، وحتّى بإعالة أولادي الّذين سيجيؤون، إلى أن يصير بوسعي إعالتهم ونفسي. وكان مضى في الأمر شوطًا. لقد ناقشه مع أمّي وانتخبا لي فتاة. لم تعد عليّ سوى الموافقة!

استمعته في ضيقٍ إلى أن أتمّ فأعلنت رفضي القاطع.

لماذا؟!

ببساطة، لأنّي لا أفكّر بالزّواج حاليًّا. الدراسة وحدها تشغلني. لن أتزوّج قبل أن أحمل شهادتي الجامعيّة وأغدو كفؤًا لهذه الخطوة.

رميت بهذه الجمل كمن يطلق رصاصًا، كأنّما أتّقي بها ضربةً قاصمةً.

صَمَت. لم يعلّق على رفضي الحازم هذا حتّى بكلمة.

لم يكن ارتباطي العاطفيّ بأمّ عائشة ونيّتي الزّواج بها هو سبب استجابتي النّافرة تلك، فحتّى لو لم يكن ثمّة شيء من ذلك، ما كنت لأقبل. كانت رغبتي بمغادرة البلدة، بالتّحليق بعيدًا عن رتابتها الخانقة وقيودها المضنية، لا أقول توازي رغبتي الزّواج من محبوبتي وإنّما تفوقها. كانت تلك آصل رغباتي وأبعدها تجذّرًا. وها هو أبي الآن، لحظة اقترابي من تحقيق ذلك، يأتي محاولًا أن يضيف لقدميّ أوزانًا تكفي لإقعادي هنا دهرًا آخر!

نعم أهفو إلى جسدٍ أنثويّ، ما في ذلك شكّ، لكنّني قبل كلّ شيء، طالما سأقضي مع هذا الجسد عمري كلّه، أريده ممتلئًا بروحٍ أحبّها، لا أن يأتيني هكذا من اختيار والديّ، أو أن يأتي على حساب تطلّعي لحرّيتي الّتي تلوح لي الآن على مرمى أسابيع، حين سأحظى بشهادتي الثّانويّة. أبدًا، لن أستجيب لذلك.

ثمّ شاءت الأقدار أن أصدم أبي برفضٍ آخر، وفقط بعد أيّامٍ قليلةٍ. حدث ذلك ظهيرة إعلان نتائج الثّانويّة العامّة.

جاءت نتيجتي باهرة. نجحت بتفوّقٍ. بالتّقدير الّذي حزته سيمكنني الالتحاق بأيّة كليّةٍ أريد. علاء أيضًا حاز تقديرًا عاليًا. أنا وهو كنّا أبطال ذلك اليوم، الكلّ يحتفي بنا ويهنّئ.

وكنت أخبرت علاء في زمن سابق بأنّني أحلم بالدراسة بكليّة العلوم، دون أن أسأله حينها عن رغبته بهذا الشّأن. لكنّه فاجأني بمجرّد اطّلاعنا على النّتائج، بأنّه ينتوي الالتحاق مثلي بكليّة العلوم. ضايقني ذلك لكن لحدودٍ ضئيلة. كان اشتهائي له قد خبا منذ بداية علاقتي مع المحبوبة، لكنّ رواسبه بقيت تدفعني لاجتنابه ما أمكن. ابتسمت له وهو يخبرني بنيّته هذه وتمنّيت التّوفيق لكلينا، ثمّ مضيت جذلًا إلى المنزل، دون أن أدري أنّ ثمّة ما ينتظرني هناك لتهشيم فرحتي.

كان خبر النّتيجة سبقني. وجدت ملامح أمّي والتّوأمين تشعّ بالفرح. تسابق التّوأمان يتجاذبانني هكذا متناغمَين مع ما يبدو من فرحة أمّي، إذ لم تكن سنّهما تؤهّلهما لإدراك مبرّر هذه الفرحة. ملامح أبي أيضًا كان فيها بعض البِشر. انتظر إلى أن سكبت أمّي كلّ جمل التهنئة وإلى أن تعب التّوأمان من صخبهما الاحتفاليّ ثمّ دعاني لنتحدّث قليلًا في غرفتي بسطح المنزل.

كما في زمنٍ سابقٍ، جلس في الطّرف الأعلى من سجادة الصلاة، يفصلني عنه، أنا الجالس في الطّرف الأدنى منها، المصحف الضّخم المستريح على كرسيّه.

بارك لي نجاحي وتفوّقي، واصفًا سروره من ذلك وفخره، ثمّ سألني عمّا أنتويه. أخبرته بأنّني سألتحق بكليّة العلوم. سألني عن سبب اختياري فأجبت بأنّها الرّغبة والميول. صمت قليلًا ثمّ انسكب يحدّثني عن ضحالة حياة المرء حين يمضي فيها انطلاقًا من رغائبه الشخصيّة، من تفضيلات مصلحته الخاصّة، وبالمقابل كيف أنّ حياته تصير أكثر غنىً وتأثيرًا واتساعًا حين ينذرها للصّالح العام، حين تمضي خطاه نحو قضيّة كبيرة...

لم أتمكّن من تحديد ما يرمي إليه بهذه المقدّمة الطّويلة الفخمة والمستفزّة، ودون أن أنتظر إفصاحه قاطعته بأنّني إنّما اخترت هذا التخصّص في الأساس من أجل هذه الغاية. فلأنّ شغفي واستعداداتي تنسجم وهذا التخصّص، سيضمن لي ذلك تفوّقي فيه، ما يعني تحقيق إمكانيّة أكبر لخدمة الصّالح العام.

من قال لي إنّ استعداداتي الطبيعيّة ومواهبي تنسجم وهذا التّخصص الّذي أعتزمه؟! على العكس، إنّها عنه أبعد ما تكون. لقد منحني الله جسدًا متينًا وموهبة غريزية في القنص، في استخدام البندقيّة. والله حين يعطي فإنّما ليختبر. إنّ سبيلي الوحيدة لأشكر

الله على هذه الميزات الّتي أجزلها عليّ هي بأن أسخّرها لما يخدم الدّعوة، القضيّة والطّائفة. عليّ أن ألتحق بالكليّة الحربيّة. لقد تخرّج منها هو قبل أعوام كثيرة، ورغم أنّه عاد فترك الحياة العسكريّة بعد ذلك بفترة وجيزة إلّا أنّه لا يزال يحتفظ هناك ببعض الصّداقات، سيضمنون التحاقي بيسر. وهناك، داخل أسوار الكليّة، سأتمكّن من بناء شخصيّتي كمجاهدٍ على النّحو الأتمّ، ثمّ سيأتي الظّرف الّذي يمكّنني من خدمة الدّعوة والطّائفة والقضيّة بما يضمن رضا الله في السّماء وتقدير المؤمنين على الأرض!

كان يزداد حماسًا مع كلّ كلمة، وأزداد غيظًا بالقدر نفسه.

ما شأني أنا بمفاهيمه هذه الّتي لم تعنني يومًا؟! من أين يأتي لنفسه بكلّ هذه الثّقة بأنّه هو الصّواب، وأنّني لست أكثر من مجرّد أحمق لا يعرف ما الأصلح له والأنفع؟!

إنّه فقط يريد تكبيلي. يدرك أنّني الآن أقف ببداية الدّرب الّذي سيفضي بي إلى الحريّة، إلى حيث لن تبقى له عليّ أدنى سلطة، وها هو يستبسل لإحباطي. إنّني أعبد الله جيّدًا، أعمل على طاعته ما وسعني، فمن أين يبتدع أبي هذه الالتزامات الّتي يلصقها بالله، التزامات الدّعوة والقضيّة والطائفة؟! يا للهراء!

لا، لن يحدث الأمر كما يريد هو، بل على نحو ما أرغب أنا وأحلم. سألتحق بكليّة العلوم، لا غيرها.

كما أنّني لو استجبت له لن يمكنني اصطحاب محبوبتي إلى هناك، إلى العاصمة. طلّاب الكليّة الحربيّة ينخرطون منذ البداية في حياة الجنديّة، لا يكادون يغادرون سور كليّتهم إلى أن يتخرّجوا منها إلى جحيمٍ ناءٍ ما.

من كلّ الجوانب، كيفما حسبتها ومن أيّة زاوية، ظلّت الكليّة الحربيّة أبعد ما يناسبني.

بعد تمحيصي الأمر على هذا النّحو، أعطيت أبي الرّد: "كليّة العلوم هي الّتي سألتحق بها".

اربدّ وجهه.

ألم ألاحظ أنّني الفترة الأخيرة ما عدت ألقي بالًا لكلامه، صرت أقابل كلّ شيءٍ منه بالرّفض؟!

أبدًا، لم أتعمّد شيئًا من ذلك. إنّي، كما هو دأبي وكما سأظلّ، أكنّ له كلّ الاحترام، كما أنّ طاعته فوق ذلك من طاعة الله! لكن سواءً في شأن زواجي أو تخصّصي الدراسيّ، فهذه أمور تعود لي وحدي. أتفهّم مناقشته لي بهذه الشؤون، وأعرف أنّه إنّما يريد بذلك مصلحتي أيضًا، لكن عليه أن لا يحمل تمسّكي باختياراتي هنا على أنّه من قبيل الانتقاص من مقامه. كلّ ما في الأمر أنّني أريد أن أعيش كما أرغب، وعليه أن لا ينكر عليّ هذا الحقّ طالما ليس ثمّة في ما أنتويه أيّ نوعٍ من الإساءة لأحد.

فليكن إذًا! فلأفعل ما أريد! لكن فلأدرك أيضًا أنّه سيتعيّن عليّ منذ الآن أن أتدبّر شؤوني بنفسي، كلّ شؤوني!

تلقّيت جملته هذه مثل لطمة هائلة.

إنّه يعرف، كما أعرف، أنّني لن أستطيع أن أخطو خطوة واحدة في أملي هذا ما لم يسندني هو. إن لم يتكفّل هو بمصاريف دراستي لن يكون بمقدوري الدراسة من الأساس.

الضّغط الّذي مارسه عليّ بتهديده هذا أشعل فيّ من جديدٍ تلك الضغينة القديمة نحوه، الضغينة الّتي كانت خبت مؤخّرًا كجزءٍ من مفاعيل حربي تلك للعيش حسب وصايا الله وبما يحقّق لي الانسجام.

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟! أتوسّل إليه؟! أبكي وأتذلّل كي أنال عطفه ومساندته؟!

أبدًا، أفضّل الموت على ذلك.

حسنًا، إنّه لن يعتبر ردّي السّابق نهائيًّا. فلأراجع نفسي فيه. سيخرج الآن إلى شؤونه وهو على تمام الثّقة بأنّ ابنه إبراهيم لن يخيّب ظنّه هذه المرّة أيضًا!

بالكاد أدار لي ظهره خارجًا حتّى انهمرت دموعي بكامل غزارتها، دموع الغيظ والصّدمة.

إن مضى أبي في قراره فذلك يعني ضياع كلّ شيء، كلّ أحلامي وخططي ستصير هباءً.

أوه، ما أسوأ أنّ المرء لا يقدر على المضيّ في درب الحياة مستغنيًا عن الآخرين، أنّ جُلّ حاجاتك تبقى دومًا بيد هذا أو ذاك. إنّها المحدودية مرة أخرى، المحدودية وهي تحاصرك من كلّ جهاتك ضاغطةً بلا هوادةٍ على ممكنات حركتك، على آمالك.

لكن يا إلهي! كيف وقعت في غفلةٍ كهذه؟! أتحدّث وكأنّني وحدي في هذا الوجود، وكأنّ أبي إن تخلّى عنّي سأصير بلا سند! أين الله في كلّ ذلك؟! أين إيماني به وهو القادر بالمطلق المعطي بالمطلق الكريم بالمطلق؟!

أستغفرك ربّ عن هذه الغفلة، أستغفرك وأتوب إليك.

قمت توضّأت وعدت إلى سجادتي وإلى المصحف. انهمكت أطلب من الله فرجًا وعونًا. فليُعِنّي على إقناع أبي وردّه عن قراره أو فليهيئ لي إلى أحلامي سبيلًا آخر.

أراحني ذلك وأعاد لي كثيرًا من طمأنينتي، ثمّ استقبلت عصرًا إشارة المحبوبة بأن أزورها اللّيلة فعادت لي سعادة الصّباح بكامل كثافتها. أغلقت نافذتي وفي صدري صخب أعراس العالم.

كان خبر نتيجتي بلغها أيضًا، وقد عقدت العزم على مفاتحتها بنيّتي اصطحابها إلى العاصمة. رغم تهديد أبي الصّباحيّ

ذاك إلّا أنّني كنت رمّمت يقيني بأنّ الله سيتكفّل بحلّ هذا الإشكال بما يضمن سعادتي، فقد بذلت وسعي من أجل ذلك.

أشاحت بوجهها محبطةً شفتيّ اللّتين اندفعتا نحوها فور دخولي. كنت مسعورًا بالفرح، بالرّغبة والأمل. لم تبدُ إشاحتها تلك صدًّا بل غنجًا، فقد أسلمتني كفّيها بتبسّمٍ عذبٍ.

ولكن أين هديّتي؟! ألم تجهّز لي هديّة؟! يا لها من بخيلة!

ضحكتْ وجلسنا على الفراش متحاذيَين.

ما الهديّة الّتي كان بطل اليوم يتوقّعها منها؟!

"أنتِ".

"أنا؟!"، ومبتسمةً أضافت: "اممم! أجل، فكّرت بذلك، لكن كما تعلم ليس هنالك من طريقةٍ لتعليب هدايا كهذه، ولن أقبل أبدًا أن أمنحك هديّة بلا علبة فاخرة وشرائط"، وضحكت باقتضاب.

"أحبّكِ"، نبست في سَمتٍ جدّيٍّ، ضاغطًا على كفّيها بحنانٍ.

ابتلعتْ ريقًا وبدا عليها الانكماش.

أجفلتني الظلال الّتي ارتمت على ملامحها.

"ولكن ما بك؟!"، سألتها وَجِلًا.

"أبدًا، لا شيء"، ومفتعلةً ابتسامةً: "حقًّا مسرورة بنجاحك وأتمنّى لو كان بوسعي أن أمنحك هديّةً".

أحقًّا تلوم نفسها من أجل ذلك؟! ألم تدر بعد أنّها هي هديّتي؟! لا أقول هذا على سبيل رفع الحرج، بالفعل ليس ثمّة ما قد يضاهي وجودها هذا إلى جانبي. لا يمكنها أن تتخيّل أيّ سعادةٍ منحتني إيّاها طوال الشهور الماضية. حرفيًّا، لقد أنقذتني. كنت بلغت في عزلتي حدّ الوحشة والألم قبل أن أعثر لديها على ما تمنّيت من رفقة واهتمام. فلتكفّ الآن عن لوم نفسها، وإن كانت تريد أن تمنحني هديّة ما، فلا أتمنّى أكثر من أن تصحبني خارج هذه الحيطان..

أردت بجملتي الأخيرة هذه استهلال مفاتحتي لها بموضوع مرافقتي إلى العاصمة، لكنّها لم تمهلني. قطعت السّياق بأن أبدت استحسانها للفكرة وإنّما على نحو ما فهمتها هي، أي بأن نخرج الآن إلى اللّيل!

تجمّدت حيرانًا لوهلة. نعم يُفترض أنّ جميع الأهالي نيام في هذه السّاعة، لكن من يضمن؟! خروجنا الآن ينطوي على ما يتعدّى الجسارة. إنّه ضرب من التهوّر، الجنون. لكنّ المرأة أفصحت عن استعدادها، بل وبملامح تشعّ حماسًا، فهل يليق بي

التّراجع بعد هذا وأنا صاحب الاقتراح وإن لم أكن عنيته؟! أكون في نظرها جبانًا إذن، لن تعود تحترمني فضلًا عن أن تحبّني.

"أجل، هيّا بنا!"، قلت متصنّعًا الاندفاع والمرح. من الجيّد أنّ منزلَينا هما الأخيران بهذا الطّرف من البلدة. لكنّني، احترازًا، سأسبقها ولتلحقني هي بعد دقائق. سأنتظرها في الطّريق المؤدّية إلى الجبل، هناك في المنعطف حيث يستبقي الرّعاة مواشيهم لعدّها في عودتهم من الرّعي.

ضحكت مطوّلًا وإنّما كابحة جماحها.

كم أنّني مجنون! أحقًّا كنت أقصد الخروج من البلدة؟! أمّا هي فتعني أن نخرج إلى الحوش.

زفرت ارتياحًا وشاركتها الضّحك. حملنا الغطاءين الوحيدَين اللّذين لها وخرجنا، وبالقرب من مشتل الورد افترشنا أحدهما والتحفنا الآخر، جالسَين، مُسنِدَين ظهرَينا إلى الجدار، سقفُنا سماءٌ ملؤها البدر.

إمكانيّة الرؤية الوحيدة فقط من نافذة غرفتي الّتي هي الآن دامسة وموصدة. المسافات الّتي تفصلنا عن أقرب المنازل الأخرى لا تحتمل لا الرؤية ولا حتّى التقاط الأصوات بمستواها الطبيعيّ، لكنّنا رغم ذلك وجدنا أنفسنا نتحدّث همسًا منذ خروجنا، وآهٍ من فتنة صوتها الهامس!

كنت استمعته من قبل ولكن بشكل مقتضب، لدى استقبالها لي في زيارتي المسائيّة الأولى ثمّ حين دعتني لتمنحني من خلال القضبان تلك القُبلة المُسكرة، على أنّني لم أنتبه لما يكتنز من فتنة سوى الآن في انسكابها هذا المفاجئ وهي تتحدّث عن غرامها بالبدر، بالقمر عمومًا وبالنّجوم.

بدت كما لو تتلو قصيدة. إنّها مفتونة بالقمر وبسديم النّجوم. هذا الحضور السماويّ بحسيّته النّائية هو ما يبقى لنا من عزاءٍ حين يغادرنا الأحبّة. فتنته البرّاقة تستدعي ألق الرّاحلين، تجعلهم يحضرون ولو معنىً وحسب. كما أنّه حضور يجسّد، بواقعيّته الحسيّة مع نأيه المستحيل، انتظارنا ذاك، المُضني ولكن العذب، لأحبّةٍ لم يرحلوا بعدُ عن عالمنا لكنّهم مصرّون على أن لا يكونوا لنا يومًا.

مستغرقةً كليًّا بهذه الحياكة الشعرية، بملامحها السّاحرة والمسحورة في آن، مغسولةً بضوء البدر السخيّ، بدت أكثر جمالًا من جنيّة، أكثر استحالةً من خرافة وأكثر فتنةً من أن تكون استجابتي لها أقلّ من الافتراس. إن لم أفعلها اللّيلة والآن فسأخسر نفسي بطريقةٍ ما وكلّ شيء، سأجنّ ربّما أو أموت التياعًا.

كنت ملاصقًا لها، يسري إليّ دفء جسدها عبر ثيابها فثيابي فيفاقم من هياجي. أمسكت كفّها واحتفظت بها قليلًا، وشيئًا فشيئًا تملّكتني روح الشِّعر بدوري فانهمكت أمطرها من حديث

العاطفة ما يترجم نبضي الممتلئ بها، لَهَفي إلى وصلٍ ينقلني وإيّاها لعالمٍ آخر، عالمٍ من النّعيم هو الجنّة نفسها.

كنت راغبًا بها حدّ السّعار، إنّما سعار مترع بالرّوحانيّة. بدا وكأنّ روحي انسكبت في هذه الرّغبة، لا لتكبحها وإنّما لتحلّق بها عاليًا مانحةً إيّاها صبغةً من القداسة وشيئًا من السّماء. لا أعرف أيّ هذرٍ ارتجلته حينها، ولا أيّ هيئة ارتدتها ملامحي، لكن لا شكّ أنّ كلّ تفاصيلي مضت تفصح عن أعماقي بجلاءٍ، وفي حالٍ من التّماهي الكلّي والانهماك التّام.

تصاعد فيضنا العاطفيّ إلى أن غدا طوفانًا، وإلى أن انهمكت الأجساد في شيمتها بوضعٍ كهذا: الغرق.

كان شيئًا من المبالغة بحيث لا يسعني وصفه سوى بالإرادة القصوى لجسدين بأن يمتزجا، بأن يتداعكا إلى أن يستحيلا سائلًا ما أو أثيرًا فيتحقّق خليطهما بصيغته المثلى وإلى الأبد.

وإذا كنت تحدّثت كثيرًا منذ بداية هذه الإجابة عن سطوة نشوة التدفّق، عن عمقها السّحيق ولذاذتها المبالغة، إلّا أنّ سطوتها هذه المرّة كانت من العمق ومن الكثافة والامتداد بحيث بلغتُ في سعادتي حدود التّلاشي. تلك حالة شعوريّة لا يمكن مقاربتها باللّغة، وقد أدرك جسدي ذلك لحظتها، تمامًا كما أدركه جسدها، وهو ما دفعهما غريزيًّا لانتهاج طريقة التّعبير البدائيّة تلك، المزيج

من الفحيح والمواء والحشرجة والتنهّدات، تلك اللّغة الغائرة وهي تعيد الكائن إلى الأصل، إلى مرحلةٍ سحيقةٍ لم يكن طموحه تجاه الأشياء أن يفهمها ويشرحها وإنّما فقط أن يحسّها.

كنّا ابتدأنا جنوننا ذاك بمكان جلوسنا بالقرب من المشتل، لكنّنا انتهينا داخل الغرفة على الفراش، ودون وعيٍ بكيفيّة انتقالنا إلى هناك.

ارتخى جسدي بمجرّد التدفّق وانتابتني سكينة عارمة. ارتميت من على جسد المحبوبة إلى جوارها، هامدًا مثل خرقة مبتلّة. نظرت في وجهها مبتسمًا، ثمّ حدّقت في السّقف قليلًا، وبعدها أغمضت عينيّ ممتلئًا بفرحٍ كثيفٍ عذبٍ. لم ينبس كلانا بحرف. لا أعرف بمَ كانت تفكّر لحظتها، أمّا أنا فانهمكت في استقراء ما حدث.

أكثر ما استوقفني أنّ هذا الفعل لم يجلب عليّ أدنى شعور بالتقزّز، كما كان يحدث مثلًا لدى قيامي بالاستمناء. على العكس اعترتني سكينة هي من الكثافة بحيث لن أبالغ إن قلت إنّها تتجاوز تلك لدى إنجازي صلاة.

حيرتي هذه حملتني لأمحّص ذلك التصوّر الّذي كنت أعتنقه إلى حينها، بأنّ الجسد هو بطبيعته نقيض الرّوح، فلأنّه من مادّة الطّين فهو ألصق بالأرض، بالتدنّي والبهيميّة، فيما الرّوح من السّماء

وفيها يكمن جانبنا الملائكيّ، وأنّ المسافة الشاسعة الممتدّة بين هذين النّقيضين تتقسّم درجات بلا عددٍ يرتقي منها الإنسان قدر تلبيته نداء الرّوح وكبحه رغائب الجسد.

غير أنّ تلك المشاعر الجياشة المحلّقة الّتي غمرتني في انهماكي بما يفترض أنّها أحطّ شهوات الجسد وأوغلها حيوانيّةً أبدتِ الأمر على العكس شأنًا روحيًّا، حتّى ليمكنني القول إنّني لم أكد أحسّ طوال حياتي بقدرٍ من السّمو، من الارتقاء، من الصعود، من الذّوبان والتّلاشي، كما بتلك الدّقائق القليلة.

لا ريب أنّ اعتزامي الزّواج من المحبوبة منحني نوعًا من التّبرير المُسبق بحيث يغدو عدم شعوري بالذّنب إثر ذلك مفهومًا بعض الشّيء، لكنّني أتحدّث هنا عن حالتي بزمن الفعل نفسه، عن ذلك الشّعور الّذي يضارع في سماويّته إصرار الجسد لحظتها على الإيغال.

كيف بوسعي تفسير ذلك الشعور؟!

لا شكّ أنّ قوام الإنسان مادّة ومعنى، جسد وروح، لكن ما طبيعة ارتباط المادة بالمعنى، الجسد بالرّوح؟

في ما تلقّيت إلى الآن من معرفة، إن في المنزل أو المدرسة أو المسجد، دومًا ما تمّ تصوير الجسد ككيانٍ يكاد يكون مستقلًّا، بحدودٍ بارزةٍ واضحةٍ، وكذلك الرّوح. هذا الفصل بين العالمين،

عالم المادة وعالم المعنى، جعل الحديث في شأنيهما سهلًا، سيّما لدى القضاة والوعّاظ بسعيهم المتواصل لفرز الأفعال البشريّة إلى معاص وطاعات، رذائل وفضائل، وبوضوحٍ فاقعٍ. لكنّني الآن لا أعتقد أنّ هذا تصوّر واقعيّ. إنّ ما عشته اللّيلة يجعلني أعتقد أكثر بأنّ الجسد والرّوح يتواجدان معًا كخليطٍ متجانسٍ يستحيل فصله. إنّ ذلك الفهم العامّ عن الحدود الّتي يمكننا نقف عندها لنقول: من هنا ثَمّ الجسد ورغائبه ومن هنا الرّوح وحاجاتها، من هنا نتردّى إلى الوحل ومن هنا نترقّى في السّماوات، إنّني أحكم عليه الآن بأنّه محض سذاجة، وأنّ الإمعان فيه ناجم وحسب عن الكسل الذهنيّ وتفضيل ما هو مُسبَق وسهل.

بل وأكثر من ذلك، ألم يسبق أن وقفت كثيرًا أمام الآيات القرآنيّة الّتي تعرض صنوف النّعيم المنتظرة في الجنّة، مستغربًا كيف أنّ أغلبها من النّوع الحسيّ المباشر: أكل وشرب وظلال، قصور وغوان وصبيان و...؟! ألا يفترض أنّ الجنّة تعني الدّرجة الأقصى من السموّ؟! فلماذا صيغة الوجود فيها مُترعة بكلّ ما يخبروننا الآن بأنّه ضمن الاهتمامات الأدنى، اللّائقة فقط بالبهائم؟! أم أنّ علينا أنّ نعيد أيضًا بناء تصوّرنا عمّا نسميه ارتقاءً وانحطاطًا؟!

ولكن كفاك يا إبراهيم! بالله عليك، أهذا هو الوقت المناسب لبحث موضوعٍ كهذا؟! يا لحماقتك!

فتحت عينيّ، وبوجهٍ ملؤه ابتسامة مِلتُ برأسي لأتملّى المحبوبة إلى جواري. لم يكن ثمّة من سراجٍ، فقط ضوء البدر المتسرّب من النّافذتين الواسعتَين الخاليتين من الستائر. لم يمكنني قراءة ملامح وجهها بوضوحٍ، لكن أيضًا لم يعد لذلك أيّ أهميّة، فها أنا ألحظ ارتعاشات كتفيها، وها هو نشيجها يرتفع إليّ باطّراد ليطغى على كياني كلّه طعم الرّماد!

ما الّذي أودى بها لهذا المآل؟! إنّها لا تصدّق أنّها أقدمت على فعل كهذا! لم يعد الآن ثمّة شكّ في أنّها خسرته إلى الأبد! إن كان بقي بصيص ما طوال السنوات الماضية فها هي اللّيلة أطفأته. ولكنّه هو من تسبّب بذلك، هو من دمّرها، عليه اللعنة! لا، بل هي الّتي عليها اللّعنة! لقد أحبّته بكلّ كيانها ومنذ الوهلة الأولى لتفتُّح أنوثتها. لم تتخيّل أبدًا زوجًا غيره. لكنّه بقي دومًا يتحاشاها ويمضي وراء أمّي. هي أجمل من أمّي وأجدر به منها. ذنبها الوحيد أنّها لم تكن ابنة شيخ الطّائفة في هذه النّواحي كما أمّي. إنّها متأكدة أنّه أحبّها هي، ولم يمض ليتزوّج أمّي إلّا ليعزّز مكانته بين الأهالي، تزوّج أمّي رغم معرفته بأنّ شقيقه التّوأم يحبّها، شقيقه الّذي من صدمته رحل نهائيًّا عن هذه البلدة بل وانتمى لطائفةٍ بديلةٍ! آهٍ! يا

له من جبلٍ! كم يليق به اسمه! لكنّها لم تيأس من أن تحظى به حتى وقد تزوّج أمّي. وحين تزوّجت بدورها بعد مدّة، فإنّما لأنّه هو من ذهب ليخطبها لواحدٍ من زملائه الضبّاط. قبلت بذلك حنقًا منه لإيغاله في جرحها على ذلك النّحو، وأيضًا_ ولا يهمّ إن لم أصدّقها_ إكرامًا له، فطالما وقد انتخب لها هو هذا الجحيم فليكن! والحقّ أنّ زوجها أكرمها على نحو ما يفعل رجل شريف، رغم ذلك لم يخبُ عشقها لأبي أبدًا، بل مضى يزداد اضطرامًا. حين استشهد زوجها حلّ عليها الخبر مثل صاعقة. من سيرعى طفلتها الّتي لم يمضِ على مقدمها إلى الحياة سوى بضعة أشهر؟! لكنّها حين علمت بأنّه استشهد في محاولته النّاجحة، مع مجموعة من رفاقه، إنقاذ أبي من كمينٍ، فقد بلسم ذلك جرحها. جبلٌ بخير؟! كلّ شيءٍ يهون إذن. مذّاك تعشّمت أكثر بأنّ أبي سيأتي يطلبها. إنّها الطّريقة الوحيدة الّتي بوسعه يكرم بها رفيق دربه الّذي قضى مفتديًا إيّاه: أن يصير هو السّقف والسّند لمن خلّفهم وراءه. لكنّ ذلك لم يحدث. أمّي هي السّبب، لا شكّ. كم تكره أمّي! كم تكرهها! خمدت الحرب بعد ذلك بزمنٍ قصيرٍ، ورغم أنّ الشّهور أخذت تتوالى دون أن يقدم أبي على الخطوة الّتي ظلّت تتوقّعها وتنتظرها بكامل لهفتها، إلّا أنّها لم تيأس. بالتّأكيد سيحصل شيء يلقي به إلى حضنها. هذا الأمل وحده بقي يدفعها لأن تصمّ أذنيها عن

مطالبات بقيّة أهلها في العاصمة، يدعونها لتسافر إليهم هي وابنتها. أتفعل وتترك جبلًا وراءها؟! حتّى لو لم تنله يومًا، يكفي وجودها منه على هذه المسافة القريبة، حيث بوسعها أن تراه متى أرادت ولو من خلف كلّ هذه العوائق الهائلة، أن تراه ولو لم يسعَ هو يومًا ليراها. انتظرته الشّهر تلو الآخر، السّنة عقب الأخرى، لكنّه لم يأتِ أبدًا، وهي لم تقنط أبدًا. في نوبات سخطها، ظلّت تقرّر بأنّها سترفض إعالته لها وابنتها: أيظنّ نفسه يكون أدّى بذلك كامل واجباته نحوها، كامل دينه لزوجها الرّاحل؟! يا له من ظالمٍ مستهترٍ! لكنّها تعود فترضخ، لا تحت ذلّ الحاجة وإنّما_ ولتكن طعامًا للنّسور إن كانت تكذب_ خشية أن تكدّر خاطره، أن تحزنه! كم تعذّبت طوال هذه السّنوات! مع ذلك لم يجد الدّهر مانعًا في أن يصبّ عليها عذابًا لا يقلّ ضراوةً، وها هي تفقد ابنتها أيضًا، فلذتها، وبإفكٍ سرعان ما أصغت له جميع الآذان. ثمّ أخذت تتحاشاها كلّ نساء البلدة. ما أن يلمحنها قادمةً صوبهنّ، إلى أحد تجمّعاتهنّ، هي الموتورة أبدًا، حتّى يوشوشن ويتغامزن بما لا تعجز هي عن إدراكه. هكذا فجأة صارت لها في ذهن الجميع صورة العاهرة، العاهرة الكبيرة أمّ العاهرة الصّغيرة! انسحقت تحت وطأة هذا الافتراء. لكنّها فكّرت أنّ جبلًا بالتّأكيد لن يقف من كلّ هذا موقف الصّامت المحايد، سيدافع عنها، بل سيلتفت أخيرًا لمقدار

ما قد عانت من مظلوميةٍ وحرمانٍ فيأتي ليعوّضها عن كلّ ذلك! اللّعنة على حماقتها! لم يلتفت إليها أقلّ التفاتة. ظلّ سادرًا في حياته الّتي لم تشغل هي يومًا أنهى حيّز فيها، تاركًا إيّاها حبيسة جدرانها مثل كلبة، لا يتذكّرها إلّا ليرمي لها بعظمةٍ تقيم أودها! كانت تدري عن اعتكافاته تلك في غرفته بسطح منزله، دون أن تدري بزمنها على وجه التّحديد. تعرف فقط أنّ تلك غرفة مخصّصة لخلوته. طوال السّنوات الماضية لم يحدث أبدًا أن لمحته يطلّ من نافذة تلك الغرفة، أو حتّى أن لمحت النّافذة مفتوحة. وأيّة فرحةٍ غمرتها لدى ملاحظتها أخيرًا أنّ النّافذة تُفتَح، يلوح وراءها شبحٌ ما! كان ذلك كفيلًا بتطبيبها. أعادها صبيّة. مضت من حينها تطيل بقاءها في الحوش، تتنقّل فيه جذلانةً ملوّنةً مثل فراشة. أخيرًا تذكّرها جبل! أخيرًا رقّ لها فؤاده! أخيرًا انشقّت تكشيرة الدّهر عن ابتسامة! إلى أن تمعّنت يومًا الشّبح الواقف خلف النّافذة المواربة فلم تجده سواي، أنا الفتى الّذي في عمر فقيدتها، ابن حبيبها وأيضًا ابن عدوّتها اللّدودة. تلبّد الوجود من جديد، أكثر حتّى من ذي قبل. لكن ألا تكون الأقدار بوضعها الابن في طريقها إنّما تريد أن تضعها ببداية دربٍ يكون الأب في نهايته؟! أيضًا_ ولتعترف بذلك، فما عاد ثمّة فرق_ فإنّ الأمر ينطوي على إمكانيّة أن تنتقم من غريمتها، أمّي! وبمطلق الأحوال، هي في نظر الأهالي محض

امرأة لعوب، امرأة تتدثّر بالفضيلة مخاتلةً وزورًا، فما الّذي قد تخسره في النّهاية؟! وكان أن ألقت بنفسها إلى هذه الدوّامة، لكن لتعاني طوال الشهور المنصرمة، منذ ابتداء علاقتنا، جحيمًا لا يقلّ فتكًا عن جحيمها الأزليّ. واظب صوتٌ ينبعث من أعماقها، ينذرها، يدعوها لإيقاف هذه المغامرة، وما أن تبدأ بالاستجابة حتّى يخبو مقابل اشتعال صوت آخر يدعوها للمضيّ أبعد. ألِفتني. شيئًا فشيئًا أخذت تضعف أمام بريق عينيّ وانهماري العاطفيّ، ثمّ صارت تخشى أن تحطّم قلبي البازغ المفعم بعاطفةٍ لطالما ذكّرتها بنفسها تجاه أبي حين كانت في عمري. غير أنّ ما انحدرنا إليه اللّيلة ألقى بها في الحضيض. لقد خسرت جبلًا إلى الأبد، بل وأثبتت صحّة نظرة الأهالي تلك وصارت عاهرةً حتّى في نظر نفسها. لا تعرف ما إن كان من حقّها الآن أن تطلب منّي غفران استدراجها لي وتدنيسي، لكنّ هذا ما تتمنّاه. بالنّسبة لها، هذه نهاية الدّرب، ولأمضِ أنا إلى مستقبلي متخفِّفًا منها ومن ذكراها. ستسافر صباح الغد إلى العاصمة.

انتهت من هذيانها المحموم هذا ثمّ لم يعد ثمّة سوى نشيجها وذلك الطنين المتعاظم في أذنيّ.

أيّ مخدوعٍ أنا! أيّ مخدوعٍ!

لست معنيًّا بأيٍّ من تسويغاتها. أسمى عواطفي وأصدقها بادلتها هي بأسفل العواطف. جئتها عاشقًا واستقبلتني بالخديعة. وطئت قلبي، داسته فقط كإمكانيّة لأن تثِب إلى أبي أو تنتقم من أمّي! كلّ هذا وما زالت تتحدّث عن الظلم!

أن تكون تعرّضت في حياتك لظلمٍ ما، لظلمٍ كبيرٍ ما، من شخصٍ بعينه أو من المجتمع برمّته والحياة بعمومها، أليس ذلك أدعى أن تكون أنت أكثر إدراكًا بما للظلم من بشاعة؟! أن لا تقترفه يومًا في حقّ أحدٍ ولو بأدنى المستويات؟!

اللعنة!

أيّ وجودٍ ساحقٍ هذا! الكلّ فيه مُفترِس، حتّى في واقع وجوده كضحيّة فإنّما ينتظر فرصته المواتية لينقضّ.

هكذا، في ساعةٍ واحدةٍ، عشت هذه الرّحلة الهائلة من سعادةٍ عرجت بي لسقف السّماء وإلى صدمةٍ هوت بي لأسفل دركات الجحيم! لكن ألم يكن كلّ شيءٍ واضحًا، حتّى دونما حاجةٍ لتمحيص؟! ألم تبدُ لي في لحظاتٍ كثيرةٍ تناقضاتها تلك اللّا مفهومة، ارتباكاتها المفاجئة، إعراضها عن أن تتحدّث عن نفسها، حديثها ذاك عن الأحبّة الّذين لن نجتمع بهم يومًا، ...؟!

لماذا أغمضت عينيّ عن كلّ ذلك؟! لماذا صممت أذنيّ ومضيت؟!

هدمتني.

ما عساي أفعل الآن؟! أقتلها؟! أقتل نفسي؟! كيف سيمكنني منذ اللّحظة أن أثق بأحد، بأيّ أحد؟!

رأسي.. آه، سينفجر.

لِمَ أنا متيبّس هكذا؟! لِمَ لا أبكي؟!

والآن أخبرني أنت، طالما والقَدَر أراد تلك اللّيلة تهشيمي، ألم يكن هذا الحدث أكثر من كاف؟! أليس أنّ المزيد لن يأتي سوى على سبيل الإمعان في الدّهس، في الإهانة والسخرية، ولانتزاع أيّة بقايا إيمانٍ بأيّ شيء، بأيّة قيمة؟!

كنت أنجزت محاكمتي تلك، لنفسي ولها وللأقدار، بالتزامن مع هذيانها، ودون أن أنبس. وها أنا أقوم من جوارها، أمضي ألتقط ثيابي وأرتديها قطعة قطعة، آخرها هناك بمكان جلوسنا بالقرب من المشتل.

كان يجب أن أغادر فورًا إلى غرفتي، لكنّ الأقدار ما كانت لتشفي غليلها منّي على النّحو الأتمّ. تعيّن عليّ أن أعينها على ذلك!

سأعود إلى قاتلتي فقط لأنظر في عمق عينيها وأخبرها بأنّ دور الضحيّة لا يليق بها، أنّ دموعها هذه الّتي تذرفها ليست برهانًا على شيءٍ وأنّها لو اغتسلت بها دهرًا لن يكون ذلك كافيًا لتطهيرها من جرم ذبحي. إنّي لا أصدّقها في شيء. وحتّى لو كان ما قالته

صحيحًا، هي لم تفعل سوى أن نظرت في النّقطة البيضاء الوحيدة في مداها، وانهمكت تهيل عليها الأقذار. لم تكن قَطّ أفضل من أولئك الّذين ادّعتهم ظالميها. إنّها أسوأ حتّى من أن تكون من قماشتهم.

تخبّطت أمامها بهذه العجينة الفوضوية من الكلمات والدّموع، ثمّ ولّيتها ظهري ماضيًا من جديدٍ، ولكن لألتقي هذه المرّة في حوشها، على بعد خطوتين من بابه، برهطٍ من الرجال ميّزت بينهم على الفور أبي وأبا يزيد وأبا علاء!

شلّتني المفاجأة. هم أيضًا لبثوا لثوانٍ صامتين بلا حراك. لم يعد بوسعي اقتلاع عينيّ من وجه أبي. خُيِّل إليّ أنّ بخارًا يصعد من ملامحه.

"والآن، صدّقتم؟!"، نبر الشّيخ أبو يزيد بتشفٍّ جليٍّ: "وكما أخبرتكم، ليست هذه المرّة الأولى!".

التمع برق في مداي وهويت من فوري على أرضيّة المشتل، على سريرٍ من الورد. كانت صفعة هائلة من أبي.

"اصمت، اصمت عليك اللّعنة!"، التفت أبي يتحدّث إلى أبي يزيد: "تحسب أنّك كسبت نقطةً عليّ؟! حسنًا، لن أقتله كما فعلت أنت بابنك، لا لشيءٍ سوى أنّ هذا الحذاء لا يستحقّ حتّى أن أتعامل معه على أنّه ابني. "إنّه عمل غير صالح". أشهدكم جميعًا

بأنّني متبرّئ منه إلى يوم الدِّين. لقد عَجِز دومًا عن أن يكون ابني، ومنذ الآن لن يعود بوسعه أن يكون". وانخرط البقيّة في همهمات استحسان.

مسحوقًا كليًّا، مهزومًا على نحوٍ ميؤوس منه، ممدّدًا لا أزال، ناقمًا على كلّ شيء، تفجّرت فيّ ضغينة رهيبة، نوع من عدائيّة تجاه الوجود برمّته. بدا وكأنّما أبصرت في وميض تلك الصّفعة كم أنّني أخطأت إذ لم أنهمك طوال الزّمن الماضي في أن أزرع لي في فمي نيوبًا وفي يديّ مخالبَ، إذ لم أكفّ أحاول النّظر إلى الوجود، رغم صراحته في القبح، على أنّه حديقة ملوّنة، مشتل من ورود. كم أنّ ذلك النّمط من الدّروشة وسمني بالضّعف، كم جعل الآخرين ينظرون إليّ فقط كوعاء يتقيّؤون فيه تشوّهاتهم، ادّعاءاتهم وأحقادهم!

تفجّر فيّ ما يشبه الثّورة.

لم يكن أبي انتهى من سجاله مع أبي يزيد حين وقفت ومضيت الخطوتين إلى باب الحوش. لا وجهة محدّدة. لم أعد حزينًا، بل غاضبًا. ومن صميم ذلك الغضب، من فورانه، نما انتشاءٌ ما انفكّ يصّاعد. أحسستني حرًّا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أكثر حتّى ممّا كنت أحلم وممّا كان بوسعي بلوغه بأيّ سياقٍ آخر.

أبي لم يعد أبي، والنّاس حازوا طموحهم تجاهي، الطموح الدّائم للجماعة تجاه الفرد: قبضوا عليّ متلبّسًا أتمرّغ في ما يعتبرونه وحلًا ورذيلة. منذ الآن لم يعد عليّ أن أخشاهم، أن أتوجّس أعينهم، أن أقبع مقيّدًا بمكاني أحرس سمعتي. صورتي الّتي كانت وفق مقاييسهم ناصعة، والّتي كان يقضّ مضجعهم بقاؤها ناصعة، ها هي لُطِخت وعلى نحوٍ لا يقبل التلافي والمعالجة. صرت ملعونًا. طردوني من حماهم، ممّا يظنّونه جنّة! إنّني أبصق على وجوههم جميعًا إلى أبد الآبدين. أخذ دمي يغلي بالتمرّد.

وثب أبي إليّ، سادًّا طريقي.

فلأذهب إلى الجحيم. إيّاي أن أظهر أمامه منذ الآن. إن صادفني في طريقٍ ما، إن تواجدت بمكانٍ يكون هو موجودًا فيه، سيقتلني بدمٍ باردٍ، ليكن في علمي.

ألم يعرض عليّ منذ فترة أن يزوّجني؟! ألم أجبه حينها بأنّني لا أفكّر بهذه الشؤون؟!

"لا تفكّر إذن، هه؟! أنت منشغل وحسب بمستقبلك الدراسيّ؟! يا للمستقبل المشرّف! فعلًا، ثمّة من خُلقوا فقط ليكونوا وصمات".

اقترب منه أصحابه عدا أبا يزيد، يؤازرونه، يملّسون عليه مصيبته بجملٍ تهوينيّة، متحاشين كليًّا الفتى الملعون الّذي لم يعد

راغبًا سوى بالخروج من كلّ هذا الوحل إلى حضن اللّيل الدّافئ الرّحيب.

حرًّا تمامًا، واعيًا لحقيقة أنّه لم يعد لديّ ما أخشى خسارته، ضحكت. قهقهت مثل مجنون. أمطرتهم شتائم، المدّعين.

حرّاس الفضيلة؟! يا للتزوير!

"أنت، أنت بالذّات"، زمجرت مشيرًا صوب أبي يزيد: "ألم تكن عندها هنا اللّيلة الماضية، وفي ليالٍ سابقةٍ كثيرةٍ؟!". أيّ امتيازٍ يمتلكه ليحلّ لنفسه ما يراه حرامًا على الآخرين؟!

التفتوا جميعًا نحوه، مصعوقين. شعّت عينا أبي كما لو عثر بجملتي هذه على كنز: "هكذا الأمر إذن؟!"

احتدم أبو يزيد ووثب إليّ ثائرًا. أراد أن يمسك بتلابيبي وهو ينخر بأنّي مفترٍ وكاذبٍ. التزم أبي الحياد. بالفعل، لم يعد أبي. لم أعد أعني له شيئًا.

أمسكت بذراعَي أبي يزيد، لويتهما إلى خلفه، قرّبت شفتيّ من أذنه وسكبت فيها جمل تحذير أردت بها الجميع: سأرحل عن هذه البلدة لكنّني سأعود دومًا في غفلةٍ منهم، سأحلّ عليهم دومًا مثل لعنة. وليكفّ هو عن الإتيان إلى أمّ عائشة مستغلًّا حاجتها. إن لم يستح من الله، فليستح من شيبته على الأقلّ! ودفعته نحوهم ومضيت.

لم يلحقني أحد. لا أعرف إلى أين بوسعي الرّحيل، ذلك أمر منوط بقدميّ تأخذانني أينما شاءتا. كلّ الجهات متساوية، واللّيل سيّد الموقف. فقط أن أرحل، هذه هي الوجهة.

أقصر الدروب لمغادرتي تمرّ من جوار حوش ما كان قبل دقائق منزلي. لم ينتبني أيّ حنين وأنا أعبر.

أجفلني أنّ باب الحوش انفتح فجأة واندفع منه شبح باتجاهي. إنّها أمّي.

كيف فعلتُ ذلك؟! كيف هانت عليّ نفسي وهانوا؟! حين جاء أبو يزيد مع زمرته إلى المنزل قبل قليل ليخبروا أبي بهذه الكارثة، لم يصدّقهم. هي أيضًا لم تصدّق حين أخبرها أبي. أتجيء منّي أنا مثل هذه الأفعال؟! أنا؟! إبراهيم؟! أوقع الخبرُ قلبَها إلى قاع قدميها، صعدت مع أبي إلى غرفتي ليجداها موصدة، ثمّ خرجت وراء أبي خلسةً حين مضى مع أبي يزيد وزمرته ليتبيّن ادّعاءاتهم. خشيت أن تكون العاقبة أكبر من مجرّد طردي من الأسرة والبلدة. كانت قرأت في عينَي أبي نيّةً أشدّ بأسًا.

كيف سمحتُ لتلك العقربة بأن تسحبني إلى فخّها؟! لم يعد لأحدٍ الآن أن يحول بين تلك اللّعوب وما تستحق. ستجعلها عبرة. بعد أن فشلت في جرّ الأب ذهبت لإغواء ابنه؟! لن تنجو بفعلتها هذه. طفح الكيل. لكن عليّ أن أعرف أنّ أبي اتّخذ قراره هذا بدافعٍ

من هول الموقف. ستكون أيّامًا فقط وتعود المياه إلى مجاريها. أمّا الآن، فلآخذ هذا المبلغ المالي وأذهب إلى عمّي. سيرعاني جيّدًا. إنّها متأكّدة من ذلك.

استقبلت سيل كلامها هذا بلا اهتمام، بالأحرى بشيءٍ من الضّيق.

نمت خطىً من الحوش فانتفضتْ. قبّلتني على جبيني وخدّي، استودعتني الله وطفرت عائدةً.

مضيت إلى المنعطف الّذي يتوقّف فيه الرعاة لإحصاء مواشيهم. استلقيت على العشب وأطلقت عينيّ في السّماء.

كم هو من قبيل اللّا جدوى أن يكون المرء طيّبًا في هذا الوجود، كم أنّ الكثير من الشرّ ضروريّ وكم أنّني متعب الآن!

منذ الآن سأتسلّح بالكثير من المكر، بالكثير من الشر.

لَكَم كان رائعًا ذلك الشّعور وأنا أنتقم من أبي يزيد. لن يصدّقوه أبدًا مهما نفى التّهمة عن نفسه.

ممعنًا في تملّي السّماء، تدحرج من فمي سؤال، بحسرة وبشيء من الحقد: والآن، هل أنت راض؟!

لم يجئني جواب.

أغمضت عينيّ ونبست في تهكّم: وكأنّه موجود!

بعد زيارتهما تلك لنا في جنازة عمّتي، والّتي كانت الأولى والأخيرة، ظلّ الفضول ينخر دماغي حولهما لزمن. لم يمكنني فهم كيف أنّ لي عمًّا وابنة عمّ لم أكن أعرف عنهما شيئًا. ثمّ لماذا لم يبقوا بعد أن أتوا؟! لكنّ أمّي لم تسعفني بأيّما إجابات، كما لم أجرؤ على سؤال أبي. ومع مرور الزّمن أخذ اليأس يقضم فضولي إلى أن بدّده. لكنّني رغم ذلك كنت حوّمت طوال السنوات الممتدّة من حينها حول بعض الإجابات.

من مقرّر التاريخ الوطنيّ في المدرسة، على ضآلته، كنت رأيت كم أنّنا أمّة منذورة للحرب. لا تخمد الحرب في هذه البقاع إلّا لتشتعل. يأتي الأغيار إلى بلادنا غازين محتلّين، يفعلون بنا الأفاعيل ولا ينجح شعبنا في دحرهم إلّا بكدّ أجيال متعاقبة، ثمّ لا نبقى بعدها قيد السِّلم وفي جوّ من الوئام العام إلّا زمنًا يسيرًا. كما لو أنّ قناعة جمعيّة تترسّخ بأنّ السِّلم ليس سوى نوع من بطالة مشينة، سرعان ما يتشرذم الشّعب أحزابًا وطوائف ثمّ ينهمك يذبح نفسه إلى أن يأتي المحتلّ التّالي فيقوم بهذا الدّور بدلًا عنه.

آخر حرب عاشتها البلاد هي تلك الّتي قُتل فيها أبو صديقتي عائشة. انتهت وأنا في عمر السّنة تقريبًا، وكان عمّي غادر قبل ذلك واستقرّ ببلدته الجديدة.

نتيجة تلك الحرب أن ثبتت كلّ طائفة على جغرافيا ما ومارست فيها ما يشبه حكمًا ذاتيًّا وبآليّات مختلفة، على أنّ ديكورًا هزيلًا بقي يضمّ كلّ هذا الشتات تحت مسمّى الدّولة الاتحاديّة.

في دستور البلاد يُسمح لأيّ مواطن بأن يسافر إلى أيّ مكان منها، أن يستقرّ حيث يشاء ويتملّك، وكان ذلك يبدو بالفعل ممكنًا، لكنّ من انطلق إلى جغرافيا طائفة أخرى لم يقدر أن يبدّد تلك النّظرة الريبيّة الّتي واظب المجتمع الجديد يرمقه بها. بدا أنّ هذا بالضّبط هو ما حدث لعمّي. وجدت منزله في طرف البلدة، بعيدًا عن أقرب تجمّع، منعزلًا هكذا مثل كيان مستقلّ، ولا يمكنك أن تتمعّنه دون أن تطفو في وعيك المفردة: منبوذ.

الفضول، أكثر منه الحاجة، هو ما دفعني للسّفر إلى عمّي. حديث أمّ عائشة ذاك عن كونه كان يحبّ أمّي وأنّ مغادرته البلدة وانتماءه لطائفة أخرى جاءا نتيجة خيبته في ذلك، أيضًا توصية أمّي بأن آتي إلى هنا، كلّ ذلك جعلني أختار هذا الدّرب عوضًا عن السّفر إلى العاصمة على نحو ما كنت قررت ابتداءً.

لم يسبق لي زيارة هذه البلدة. في مجيئي لم أكن أعرف عنها سوى اسمها وأنّها تقع في الجهة الأخرى من السلسلة الجبليّة، إلى الشّمال من بلدتنا وعلى مقربة من ضفة النّهر، وأيضًا أنّها_ من ريفنا هذا_ أولى البلدات الّتي تنتهي عندها جغرافيا الطّائفة الّتي يُفتَرَض انتمائي إليها. بلدة صغيرة، لم أبذل جهدًا كبيرًا للتوصّل إلى منزل العمّ كما بقيت أخشى طوال الطّريق.

في طريقي أيضًا، ورغم انسحاقي بأحداث اللّيلة الماضية، نما في داخلي نوع من رابط عاطفيّ تجاه عمّي، ذلك الرّابط الّذي نحسّه دومًا إزاء من نتشابه معهم في المصير. فبالنّهاية، لا شكّ أنّ انتقال عمّي حدث بدوره تحت وطأة نوع من الإكراه. كذلك كنت راغبًا في أن أرى زهرة. لكنّها محض أحاسيس واهنة ولّدتها الطريق وظلّ يجثم عليها ذلك الشعور بالغبن الّذي كان طاغيًا على كلّ عالمي الوجداني.

استقبلاني بحفاوة لم أتوقّعها. صحيح أنّ سؤالًا مترعًا بالحيرة ظلّ يطفو على ملامحهما، يتعلّق بما وراء هذه الزيارة، لكنّهما دأبا على كبحه بترحيب يليق بأسرة كريمة.

وجدت منزل عمّي فسيحًا، تمتدّ على مقربة منه مزرعة عرفت أنّها مصدر رزقه، مزرعة واسعة تمتلئ بصنوف الفاكهة، على أحد أطرافها زريبة تضمّ بعض المواشي. كان الاهتمام بالمواشي

مسؤوليّة زهرة، فيما عمّي يهتمّ بفلاحة الأرض بمساعدة عدد من العمّال يشتغل بعضهم بأجرة يوميّة وبعضهم بأجرة موسميّة.

بالقدر نفسه من الشّبه بين شقيقيّ التوأمين، وجدت شبه عمّي بأبي، فهما توأمان كذلك، لكنّ فارقًا ضئيلًا بينهما أدّى، رغم بساطته، لاختلاف كبير. كلاهما ليس على قدر من الوسامة الظاهرية، لكنّ عمّي، على نقيض أبي، يمتاز بشخصيّة سمحة وودودة. لا تفارق الابتسامة محيّاه سيّما في وجوده مع زهرة وتعاطيهما في شؤونها اليوميّة. ذلك البِشر الدّائم أضفى على مظهره العام قدرًا من الوسامة، ثمّ تأتي تلك الطيبة الّتي يظلّ يغدقها عليك فلا يعود بوسعك في الأخير إلّا أن تحبّه.

لم يتطرّقا أبدًا لسؤالي عن سرّ هذا المجيء المفاجئ، وثابرت أتحاشى أيّ نقاش من شأنه يقود إلى ذلك. لكنّني مهما تصنّعت القوّة وحاولت إظهار أنّ مجيئي إليهما ليس سوى على سبيل الزيارة العائليّة، إلّا أنّ هشاشتي وحزني وصدمتي، كلّ ذلك بقي جليًّا على نحو مستعص. دأبي هذا الّذي استمرّ أيّامًا منذ وصولي أربك مضيفيّ. مضيا يقاربانني بنوع من الحذر، لا حذر التوجّس والارتياب وإنّما لخشيتهما مضايقتي.

كلّ صباح أستيقظ معهما منذ الغبش، نتناول إفطارنا ثمّ أرافقهما إلى المزرعة، وفيما ينهمكان في أعمالهما أمضي أنا أتمشّى في

الدروب المجاورة، ألوك مشاكلي وأحاول بناء تصوّر للآتي من حياتي بناءً على المعطيات الجديدة، لا يقطعني عن ذلك سوى ندائهما يدعواانني لطعام الغداء، ثمّ لا يناديانني مرّة أخرى إلّا قُبيل الغروب للعودة إلى المنزل.

وكما سبق وأخبرتك بفصل من هذه الإجابة، كانت زهرة في مثل عمري تقريبًا، وكانت لا تزال مثلما وجدتها أوّل مرّة: زهرة بالفعل. لم تكن ملامح وجهها على قدر كبير من الجمال، لكن حين يتمعّن المرء جسدها بالمجمل يجد تحفة رائعة، وظلّ مرحها الدّائم يضفي عليها ذلك الحسن النّاجم عن روح محلّقة. أينما حلّت تتضوّع بهجة سرعان ما تنتشر في الوسط مثل عدوىً كاسحة. كانت تكتفي بالحجاب. لم ترتدِ النّقاب يومًا. وتتحدّث مع الجميع، مع عمّي ومعي ومع العمّال والزبائن (حين يكون ثمّة حصاد، تقوم، مع عمّي، ببيعه في طرف من المزرعة جعلاه مثل سوق صغيرة)، بثقة عجيبة وبانطلاقة ظلّت تذكّرني بعمّتي صفيّة.

أكثر ما أدهشني طريقة تعاطيهما مع بعضهما. لم أجد مطلقًا، ولا بأدنى مستوى، ذلك الحاجز الرّهيب الّذي اعتدته في بلدتي، إن بيني وأبي أو بين أيّ من أصدقائي وأبيه، حاجز الهيبة ذاك وهو يرتفع حاجبًا الابن عن أبيه بمسوّغ لم أفهمه يومًا، بأنّ الهيبة

وحسب هي ما يضمن للأب طاعة الأبناء والحصول على تربية جيّدة.

أحيانًا، سيّما وقت الوجبات، تنهال زهرة على عمّي نكاتًا فيستجيب بالضّحك حدّ التكوّم. كانت لها تلك القدرة الّتي لعمّتي صفيّة في ابتكار النّكات حتّى من اللّا شيء، على أنّ نكاتها تخلو من البذاءة. ولَكَم تتوهّج عينا عمّي بالحبّ كلّما استقبلته بإحدى نكاتها تلك.

يومًا إثر آخر وأخذت زهرة تبدي سعيًا محمومًا لهدم الجدار الّذي ظللت محافظًا عليه بيني وإيّاهما منذ وصولي، تحاول بالتّدريج سحبي لدائرة البهجة تلك.

في أحد الأيّام، وفيما نتناول طعام الغداء، بدأت مداعباتها لعمّي بأن أخبرته بأنّ زبونًا شابًّا أعجبها وأنّها تريد منه، من عمّي، أن يذهب فيخطبه لها. أخذت تسهب في غزلها بالشّاب المتخيّل وبالتزامن تتصاعد قهقهات عمّي وتغرورق عيناه، في حين بقيت أنا متجمّدًا، أتابعهما ممتلئًا بالحسد تجاههما وبالكراهية تجاه أبي وأمّي.

وجدت لديهما الصّيغة الّتي بقيت أتمنّاها لي مع أبي وأمّي، ذلك التعاطي السّهل المتخفّف من دواعي الهيبة تلك، السخيفة والقاتلة.

استدعيت حديث أمّ عائشة عن كون عمّي كان يرغب بالزواج من أمّي، ومن أعماقي تمنّيت لو أنّ ذلك هو ما حدث فأنجباني أنا، بدلًا من أن تنجبني هي من أبي وينجب عمّي زهرته من امرأة أخرى!

في خضمّ اجتراعي هذه المرارات لحظتها، وفيما عمّي يتلوّى ضاحكًا من الانسكاب الغزليّ لابنته، باغتتني هي بأن نظرت في ملامحي مبتسمة قبل أن تعود فتطرح على عمّي هذا الاقتراح: ولكن أليس أنّهم يقولون إنّ ابن عمّ الفتاة أولى بها من غيره؟! صحيح أنّ ذاك شابٌّ وسيم، لكنّ ابن عمّها لا تعوزه الوسامة أيضًا! أم أنّها (ناظرةً الآن في عمق عينيّ) لا تعجب ابن العمّ؟!

أذهلتني جرأتها. تجمّدت اللّقمة في حلقي ولم أدر ما أقول أو أفعل. ردّة فعلي هذه ما لبثت أن جمّدتها أيضًا. رمقها عمّي بنظرة فيها بعض العتاب. أشعرني ارتباكها بالضّيق من نفسي.

لِمَ لا أكون مثلها، متحرّرًا من كلّ الاحترازات الّتي لطالما اعتبرتها سخيفة؟! أم أنّني في حقيقتي لم أعد أصلح لشيء؟!

"أعتذر"، قلت مسحوقًا وأنا أرى كم أنّني نغّصت عليها بهجتها، وقمت عن السفرة ماضيًا إلى دروبي في المزرعة ومحيطها.

تبعني عمّي، أمسك بيدي وانهمك يعتذر إليّ: من المفروض أن أكون فهمت شخصيّة زهرة فلا آخذ كلّ كلامها على محمل الجد.

كنت تعبت من انعزالي عنهما، من شعوري بالوحدة ومن أنّني ملعون وفاقد الانتماء. كنت تعبت أيضًا من شعوري بالحسد تجاه زهرة، من مدافعتي تلك الرّغبة بأن أحتضن عمّي وأطلب منه أن يكون هو أبي.

بعينين مغبّشتين، تمعّنت طيبته وهو يلقي عليّ اعتذاراته، ارتميت في حضنه، طوّقته بذراعيّ وتدفّقت أخبره بأنّني أحببتهما كثيرًا، أنّ ما يؤلمني هو عجزي عن أكون مثلهما، وأنّني وحدي من يتعيّن عليه الاعتذار. إنّني متعب بلا حدّ، ممزّق ومدميّ.

آه! كم كان حضنًا دافئًا، كم أشعرني بالأمان الّذي لم أعرفه سوى في أحضان عمّتي صفيّة!

أخبرته بكلّ شيء، وكلّما تدفّقت أكثر شعرت بالخفّة وكأنّني ألقي بأحمالي الباهظة كلّها عليه.

أنصت إليّ بكامل اهتمامه، يشرق من عينيه بريق مشجّع يفصح عن قلب حنون حنون.

انتهيت وعيناه مغرورقتان. قال لي بصوت متهدّج إنّه يفهمني، وإنّ عليّ ألّا أمضي في جلد ذاتي أبعد. فلأعتبره أبي منذ

الآن، على أنّني يجب أن لا آخذ قرار أبي ذاك بالتبرؤ منّي على محمل الجدّ. يعرف جبلًا أكثر من أيّ إنسان آخر، هو توأمه. ردّة فعله تلك تُعتَبر مخفّفة ولا تنسجم وشخصيّته، وهذا له تفسير واحد: أنّه يحبّني أكثر ممّا أظنّ. بالتأكيد لم يُرِد بقراره ذاك سوى تهدئة الوضع وقد حشره رفاقه في زاوية. ستمرّ الأيّام وتعود الأمور إلى مجاريها. إلى حينها سيكون هو أبي، هذا منزلي وزهرة صديقتي، ومقهقهًا: "ولعلّك ستفكّر جديًّا في عرضها المجنون قبل قليل!" وضحكت، ضحكت بصدق.

من حينها بدأت في التعافي. تعمّقت علاقتي بعمّي باطّراد، وبزهرة.

انسجامًا مع بِشره ومرحه، كان عمّي متفهّمًا بلا حدّ، لا يضع سقفًا لما ينبغي أن تقف عنده رؤاك وأنت تحدّثه. في يوم تالٍ أخبرني بأنّ عليّ أن أستعين من أجل تجاوز صعوباتي وآلامي بالصّبر والصّلاة. أخبرته أن لا خلاف على الصّبر، لكنّني لم أعد مؤمنًا بأهميّة الصّلاة. بتّ أحسّها نوعًا من سلوان وهميّ، شيئًا من دروشة لا ينجز سوى المزيد من الخيبة. ثمّ أخبرته عن كلّ تلك الأسئلة الوجوديّة الّتي تنغل في دماغي بلا توقّف. لم يحر جوابًا. ظلّ يبتسم وحسب. لكنّه تلك اللّيلة اصطحبني إلى إحدى غرف المنزل كانت موصدة، تملّكتني الدّهشة ما أن ولجناها.

غرفة كبيرة مستطيلة، جداراها الطوليّان مكسوّان من الأرضيّة حتّى السّقف بأرفف متخمة بالكتب. لم يسبق أن رأيت كتبًا بهذه الوفرة. من حينها غرقت في ذلك الطوفان من الكتب.

في البداية خلتها من ذلك النّوع الّذي اعتدته، كتب أبي تلك المترعة بالأحكام، لكن ما أن بدأت أتصفّحها حتّى فوجئت بعالم آخر. أوّل ما وقعت يداي على كتب الفلسفة. أيّة نشوة اكتسحتني منذ أوّل كتاب!

أكثر ما شدّني أن وجدتها تعمل في نَسَق معاكس لذاك الّذي اعتدته في كتب أبي. تلك كتب تضع بين يديك تصوّرًا جاهزًا ثمّ تخبرك بأنّ عليك أن تعتنقه، وأنّك تغدو عرضةً لأشدّ العقوبة إن لم تفعل. ولمزيد من التّهويل، تخبرك بأنّ ثمّة مستويين من العقوبة، أدناها العقوبة الدنيوية وأعلاها تلك الّتي تنتظرك في الآخرة. أمّا هذه الكتب فعلى العكس، تؤجّج فيك الشّك باستمرار. حتّى وهي تحاول المضيّ بك نحو يقين ما، تظلّ تشعرك بأنّك جزء من ذلك السّفر، ولا تكفّ تهمس لك وإن بشكل موارب بأنّ من الجدير بك أن تأخذها هي أيضًا على محمل الشّك.

ما فحوى الوجود؟ هل ثمّة قوانين طبيعيّة تسيّره بالفعل أم أنّنا نتوهّم ذلك لميلنا الطبيعيّ إلى النّظام؟ هل يتكوّن الوجود بالفعل من عقل ومادة؟ إن كان كذلك فما طبيعة ارتباطهما

ببعضهما؟ وهل يمضي الوجود إلى غاية محدّدة؟ هل هذا الوجود جاء بفعل قوّة مبدعة ما؟ ...

هكذا مضيت أتنقّل من كتاب إلى آخر، وكلّما شعرت بي أقف على تخوم يقين ما يأتي الكتاب التالي فيعيدني لنقطة البداية، هناك حيث ليس ثمّة سوى الشّك. لم يصبني ذلك بالخيبة رغم تكراره. لقد وعيت منذ البداية أنّ هذا الحقل من المعرفة لا يتغيّا الوصول إلى يقينيّات بقدر ما يساعد على المزيد من إدراك شساعة جهلنا البشريّ، وتكريس قناعة بأنّ الشّك الواعي الفعّال أجدى من اليقين الجاهز، أنّ اليقين الّذي لا نعبر إليه من خلال درب الشّك المضني هو يقين ساذج لا يصمد أمام أبسط الأسئلة.

هل الله موجود أم لا؟ أكثر سؤال صدمني من كلّ الأسئلة الّتي واجهتها في ذلك الحقل. على الرّغم من أنّني كنت جنحت إلى إنكار وجود الله بتأثير ممّا آل إليه أمري في آخر فصول تواجدي في بلدتي، إلّا أنّ إنكاري ذاك جاء فقط على سبيل الحنق، نوعًا من عتاب. لكن ها أنا الآن أخوض فيضًا من التنظير يتناول هذا الرّاسخ في أعماقي، يتناوله مثل كلّ شيء آخر، مثل كلّ قضيّة أخرى هي محلّ نقاش وأخذ وردّ!

أرعبني ذلك في البداية لكنّني لم أتوقّف. وكما هو دأب آليّة الفلسفة في كلّ الشؤون، في هذه القضية أيضًا لم تمنحني يقينًا ما

وإنّما اكتفت بتطوير وصقل طاحونة الشّك، الطّاحونة الّتي سرعان ما وجدتني ألقي بنفسي إليها بشيء من اللذّة، من الاستمتاع.

لم أعد أعرف لي ليلًا من نهار. جلّ وقتي أقضيه بتلك المكتبة، ألتهم كتبها بنهم متزايد. وكان عمّي يراقب انهمامي ذاك بشيء من الرّضا وبشيء من القلق. بين حين وآخر يأتي لانتشالي إليهما، هو وزهرة، لأذهب معهما إلى المزرعة. أناقشه حينها بالكثير من القضايا الّتي اكتشفتها في معبدي الحالي، وأدهش من إلمامه. أمّا زهرة فكانت تضيق بأحاديثنا تلك وتتّهمني بأنّني أبحث بإصرار عن النّكد. كانت تسعدني تلك الخروجات، لكنّ سعادتي لم تكن تتحقّق بصيغتها المثاليّة من خلوّ البال إلّا في المرّات الّتي أرافق فيها زهرة في ذهابها مع قطيع الماشية إلى المراعي على مبعدة من المزرعة. أوّل مرّة رافقتها كانت بنوع من الإجبار. أمسكتني من عضديّ وسحبتني بإصرار وسط قهقهات عمّي: "طالما وابن عمّها يرفض مرافقتها طواعية فهو لم يترك لها خيارًا، سيرافقها مكرهًا!".

ثمّة أمر كان لفتني بعد أيّام قليلة من وصولي، قبل أن أنسكب لعمّي بتلك الطّريقة وقبل أن يعرّفني على مكتبته. مساء كلّ خميس، منذ ما بعد الغروب، أينما كنّا، ينسلّ ثمّ لا أجده في

ذلك الوقت القصير بعد العشاء، الوقت الّذي نقضيه عادة في سمر مقتضب قبل أنّ يأوي كلّ منّا إلى غرفته لينام.

في المساء الّذي اكتشفت فيه هذا السلوك لعمّي كنت تناولت العشاء مع زهرة فقط، وأويت من ثمّ إلى غرفتي، وفيما أنا مستلق على فراشي، أجترع همومي الطّازجة حينها، تناهى إليّ صوت يشبه السِّحر انتشلني ممّا أنا فيه وحملني بلا وعي إلى الصّالة حيث وجدت زهرة منهمكة في ترتيب بعض الثياب. جلست إلى جوارها مثل مسحور، كلّ ذرّة منّي مسلوبة، مسافرة في فضاء النّغم العذب المنبعث من غرفة مجاورة.

إنّه النّاي، ينفخ فيه عمّي حزنه المعتّق، حزنه ذاك وقد أخذ وقته من الاختمار الواعي إلى أن استحال جزءًا أصيلًا من أناقته الشخصيّة، نوعًا من موسيقى هي أجمل ما سمعت على الإطلاق.

مضيت إلى باب تلك الغرفة ما أن توقّف النّغم، أريد الولوج إلى عمّي لأرجوه المزيد، لكنّ زهرة كبحتني.

"لا أحد يقطع هذه الخلوة لأيّ سبب"، ثمّ أخبرتني بأنّه لم يسبق لها أن دخلت هذه الغرفة. إنّها مخصّصة لعمّي. في بداية وعيها، في طفولتها، وبدافع من الفضول، ظلّت تطلب منه أن يسمح لها بولوج هذه الغرفة ومصاحبته بإحدى لياليه فيها، لكنّه ثابر على الرّفض إلى أن يئست. لا تعرف سببًا لتحفّظه ذاك.

أنّه ينفخ في نايه بعض الألحان، هو الشيء الوحيد الّذي تعرفه عن أنشطة عمّي في انعزاله المحيّر ذاك. على أنّه قد تمضي شهور دون أن يتدفّق النّاي مقطوعة واحدة. في أحايين نادرة أيضًا يأتي إليه شخص أو اثنان لا تعرفهما، يصطحبهما إلى غرفته هذه، يختلي بهما ساعة أو بعضها ثمّ يودّعهما دون أن يفصح لها عن شيء.

أخبرتني أنّها طوال عمرها لم تشعر بالفضول تجاه شيء مثلما تجاه هذه الغرفة، وسألتني عن رأيي في ذلك. نصحتها بأن لا تهتمّ بالأمر مطلقًا.

استغربت وسألتني لماذا.

"أعرف جيدًا إلى أين تؤدّي مثل هذه الغرف السريّة".

"إلى أين؟!" سألتني بلهفة.

"إلى الجحيم رأسًا!". ولم نذهب أبعد.

من حينها غدوت أنتظر مساء كلّ خميس بشوق لا نهائيّ، راجيًا أن يقرّر فيه عمّي استنطاق النّاي. ذلك النّغم الحزين بفخامته السحريّة كان بُراقًا يعرج بي في سماء من الوجد، سماء أنيقة مترعة بالله. كلّ جلسة استماع من تلك كانت بالنّسبة لي بمثابة صلاة تامّة. وكان أكثر ما يدهشني كيف أنّ ذلك النّغم، رغم أنّه، من حزنه، يقلّب مواجعي ويثير شجوني حدّ عجزي عن كبح

دموعي، ينتهي بي إلى نوع من السّلام الداخلي، نوع من هدنة مع الأوجاع وتسام عن كلّ ما هو آنيّ.

تلك المقطوعات الموسيقيّة، إضافة لنزهاتي النّادرة مع عمّي وزهرة، كانت تأتي لتعيد إليّ نشاطي الّذي كان يخبو في انكبابي على القراءة.

لم أكن أتخيّر كتبًا بعينها. في تلك المكتبة الكنز، بدا لي كلّ كتاب جوهرة لا تقلّ قيمة عن باقي الجواهر المصفّفة بعناية.

أمضيت شهورًا أتعاطى كتب الفكر والفلسفة، إلى أن بدأ ذلك الإبحار في التجريد يتعبني، ثمّ ما كان في بدايته نوعًا من سعادة، تلك السعادة التي نحسها في بداية دروبنا المعرفيّة، غدا يكتسي ثقلًا يومًا بعد آخر إلى أن وجدتني على تخوم الكآبة.

توقّفت عن دأبي في القراءة بحسب ترتيب الكتب وانتقلت من الجدار الأيمن إلى الجدار الأيسر، وهناك عثرت على أثمن اكتشافاتي: الأدب، تحديدًا القصّة والرواية.

كنت قرأت مزقًا نظريّة عن هذا الفنّ في منهج المدرسة، لكنّني لم أعرها بالًا آنذاك ولم أعرف حقيقته إلّا هنا بهذه النّماذج الباذخة.

هناك، في كتب الفلسفة، تمضي الأفكار في عالم من التجريد، عالم فقير في الصور والألوان، أمّا هنا، في هذه الكتب البديعة،

القصص والروايات، فها هي الأفكار تُعرض مجسّدة في مشاهد حيّة تشعرك بانتمائك إليها، تقحمك في جوّها وتجدك تتحسّس نفسك في كلّ شخصيّة.

كلّ قصّة تلقي بين يديك قطعة من حياة تنطوي على كلّ التعقيد الّذي تواجهه في واقعك. حيوات كثيرة كلّ واحدة منها تسبر جزءًا منك. وهي تكتفي بأن تعرض عليك المشهد بالقدر الكافي من التحليل الوجودي، دون أن تطلق أحكامًا في النّهاية. تلقي الرواية بشخوصها بين يديك، تعريهم تمامًا، تصف ظواهرهم وتسبر بواطنهم بلا كلال ولا مواربة، وتمضي. لا تقول لك هذا خاطئ وهذا صائب، هذا حلال وهذا حرام. وفي الختام تجدك لم تعد مهتمًّا بالحكم على الشخوص وإنّما تحسّ نحوهم جميعًا، بنسب متفاوتة، بنوع من التعاطف.

إنّه فنّ يعلّم التسامح، التسامح وهو يأتي من إدراك ما جُبلنا عليه نحن البشر من ضعف، التسامح تجاه الذّات وتجاه الآخر.

من مطالعاتي الدؤوبة في ذلك الفنّ، ومن ما فرضه عليّ من تردّد متوتّر بين عوالمه المتخيّلة وعالمي الواقعيّ، بدا لي أنّني قد فهمت كلّ شيء. فهمت لماذا أخطأت، لماذا أخطأ أبي، لماذا أخطأت أمّ عائشة، لماذا أخطأ الجميع، ولماذا جميعنا على ما نحن عليه. على أنّ هذه المعرفة لم تجلب لي السرور في النّهاية. ظلّ فهمي

للدّوافع يحرّضني على أن أتسامح، وكنت أخشى كثيرًا أن أتسامح. أردت أن أبقي عالمي الوجداني مستعرًا بكراهيتهم، هم الّذين أحالوا حياتي جحيمًا!

في تلك المكتبة فقدت شعوري بجريان الزّمن، وها أنا لا أكاد أصدّق بأنّني أوشك أكمل فيها عامي الثاني. وكنت بدأت أشعر مؤخرًا بشيء من الثّقل.

مطالعة الأعمال الفنيّة بوسعها تملّس وجودك، تجعله أقلّ وطأة وهي تمنحك ذلك الحسّ الوهمي، الرّائع والضّروري لا شك، بالعبور إلى المطلق. لكنّه شعور وقتيّ يتبدّد بالتّدريج لتجدك عدت إلى صميم واقعك، إلى طاحونة حياتك. الفنّ يحرّض على استساغة الحياة لكنّه يعجز عن أن يكون حياة بديلة. إضافةً إلى هذه الخلاصة كنت بدأت أحسّ بأنّني أُثقل على عمّي. لم يندّ عنه ما قد يشير إلى ذلك، لكن بالنّهاية على المرء أن لا ينتظر حدوث ما يخشاه. مذ جئت إلى هنا لم أفعل شيئًا سوى عكوفي على المطالعة، وإن خرجت مع عمّي وزهرة فليس لأعينهما وإنّما بقصد الترويح عن النّفس. ثمّ إنّني لم أجئ لأبقى. عليّ أن أمضي إلى مستقبلي الخاص.

لكن ما عساه يكون مستقبلي هذا؟! أيّ خيارات تبقّت لديّ؟!

لم يعد بمقدوري الالتحاق بكلية العلوم. ما عاد ثمّة من يمكنني الاستناد إليه من أجل ذلك. بالتّأكيد لو أخبر عمّي برغبتي هذه لن يتوانى في أن يعيلني طوال فترة الدراسة، لكنّني لو فعلت لن أكون قطعت خطوة واحدة في طريقي إلى الحريّة. يكفي أنّه استضافني في منزله طوال هذه الشهور.

وهكذا لم أجد بمتناولي سوى خيار واحد: الالتحاق بالكلية الحربيّة، الخيار الّذي ناضلت كثيرًا لرفضه حين اقترحه عليّ أبي بإصرار!

في الكلية الحربيّة يمنحون الملتحق راتب جنديّ منذ أوّل شهر، ناهيك عن التكفّل بالاحتياجات الأساسيّة من مسكن ومأكل وملبس. لكنّ القبول هناك لمن لا يذهب بناءً على توصية مسؤول حكوميّ كبير أو شخصيّة اجتماعيّة نافذة يكاد يكون مستحيلًا.

بذلك وجدتني، ويا لسخرية القدر، أتمنّى من كلّ قلبي أن يتمّ قبولي في الكلية الحربيّة وقد أمست أملي الوحيد للخروج من ذلّ الاعتماد على الغير. كنت أفكّر لو أنّ أبي يطّلع على هذا الانقلاب الكاسح في رجائي المستقبليّ ويفتك بي الغيظ.

لم أكن أخبرت عمّي وزهرة بنيّتي هذه. وكان يستفزّني أنّني لم أتمكّن حتّى الآن، أنا الموشك على الرّحيل، من إشباع فضولي

الّذي حرّضني على الإتيان إلى هنا. لم أعرف بعد، على نحو قاطع ومفصّل، الملابسات الّتي دفعت عمّي للانتقال للعيش هنا مغيّرًا انتماءه الطّائفي. حاولت مرارًا استدراجه للإفصاح لكنّني عدت دومًا خالي الوفاض.

آخر محاولاتي كانت قبل مدّة طويلة نسبيًّا. يومها نجحت زهرة في إجبار كلينا على مرافقتها إلى أحد المراعي على ضفّة النّهر. كنت يئست من إمكانيّة استدراجه فسألته عن الأمر على نحو مباشر.

ابتسم ناظرًا في الأفق البعيد، ثمّ بعد أن استغرق زمنًا:

"أتدري يا بنيّ، ليس هذا بالأمر المهمّ!"، وصمت هنيهات قبل أن يعود فيستأنف: "انظر إلى هذا النّهر يا إبراهيم.. انظر إليه. هو ذاته يجري بالقرب من البلدة الّتي جئنا منها، لكنّ الأهالي هنا يعتبرونه نهرهم هم لا سواهم. ولو سألت الأهالي هناك سيقولون إنّ هذا النّهر خاصّتهم. فيما الحقيقة أنّه نهر الجميع، وأنّه نهر واحد لا نهرين. كذلك فإنّ الله واحد، ربّ الجميع، والدِّين واحد، دين الجميع، لكنّ أفهام النّاس ليست واحدة. ولأنّ حواسنا ومداركنا محدودة، لا نستطيع أن نرى من الشيء إلّا بعضه. لكنّ كلًّا منّا، بتأثير من الاعتداد بالذّات، يتهيّأ له أنّه وحده امتلك الرؤية الكليّة والشّاملة، وبالتّالي أنّه وحده امتلك الحقيقة. وفي خلفيّة كلّ ذلك

تأتي تلك الاعتمالات من حبّ الذّات، من الأثرة وتسخيف الغير، وتصنع كلّ هذه التمايزات الّتي لن يسعنا تجاوزها في النّهاية. إنّها السِّمة الأبرز للوجود الإنساني، بها يتحقّق التدافع، القانون الّذي أراد الله أن تُبنى عليه حياتنا هذه".

"ولكن لا خير في ذلك يا عمّ!"، قلت معترضًا: "لو كان للتدافع أن يقف في حدود الممارسة النّاعمة لكان بالوسع أن نقبل به ونستسلم لواقعيّته، لكنّه لا يكفّ يعبّر عن نفسه حربًا، قتلًا وفناءً، فلِمَ قد يريد الله أن يذبح النّاس بعضهم؟! لِمَ قد يقرّر لنا صيغة الوجود السّاحقة هذه حيث لا يعدو البشر أن يكونوا مجرّد حيوانات مفترسة؟! ألم يقل إنّه قد ميّز هذا الكائن بأن نفخ فيه من روحه، فما فائدة هذا الامتياز إذن؟!".

لم تمهله زهرة ليجيب. طفقت تنضح علينا ماءً وتنادينا، نحن النّكديّين، للانغمار في النّهر. ولم تكن بقيت أهميّة لإجابته عن هذه الأسئلة. لقد تملّص من سؤالي الأساسيّ ونقلني لمربّع آخر تمامًا.

أيّامي الأخيرة معهما مضت بسرعة كبيرة. رغم توقي للانعتاق النهائيّ من قيد الأسرة إلّا أنّ رابطًا متينًا كان نشأ بيني وهذا المكان، بيني وعمّي وزهرة، ما جعل قرار المغادرة صعبًا عليّ. كذلك وجدت مفاتحتهما بنيّتي أمرًا بالغ الصّعوبة. كنت أدرك

أنّهما قد ألفاني، سيّما زهرة، وأنّ مغادرتي ستحزنهما. لكن في الأخير لم يكن لي إلّا أن أفعل.

أخبرتهما قبل يومين فقط من مغادرتي. كنّا انتهينا للتوّ من تناول طعام العشاء. تقبّل عمّي الأمر بهدوء من كان يتوقّعه. شجّعني قائلًا إنّ عليّ أن أمضي نحو مستقبلي بكلّ ما يسعني من عزم، ودعا لي كثيرًا. أخبرني أيضًا أنّه سيظلّ بمثابة أبي، وأنّ عليّ ألّا أتحرّج في أن أطلب منه أيّ مساعدة. لَكَم يتمنّى لو كان بمقدوره يوفّر لي توصيةً تضمن قبولي في الكلية، لكنّه للأسف لا يملك مثل هذه العلاقات. عمومًا، إن لم أتمكّن من الالتحاق بالكليّة الحربيّة فلأختر أيّة كليّة أخرى وسيتكفّل هو بمصاريف دراستي حتّى تخرّجي.

تفهّمه هذا وحنانه أثّرا فيّ كثيرًا. تعمّقت داخلي أكثر تلك الأمنية بأن لو كان هو بالفعل أبي. لكنّ تأثّري الأكبر كان من ردّة فعل زهرة.

لم تنبس بحرف. تكدّر وجهها والتمعت عيناها بالدّمع. لحظت ذلك منذ البداية، وعمّي أيضًا. ارتبكنا لذلك واكتفينا بتحاشي الحديث معها بهذا الشّأن.

كانت زهرة قطعة من سعادة لا يشوبها حزن، ولذلك كان وقع حزنها عليّ أكثر إيلامًا. كانت أحبّتني. بدا لي ذلك واضحًا منذ

زمن، وكان يؤثّر فيّ، لكنّني لم أقدر على تجاوز صدمتي تلك بحبّي الأوّل، حبّي لأمّ عائشة. ظلّت تنمو فيّ ممانعة تخبرني بأنّ هذا النّوع من المشاعر محض مصائد، حقول واعدة بالخيبات.

مضيت إلى نومي تلك اللّيلة مثقلًا بالحزن، لكنّني تفاجأت بها صباحًا جذلة على نحو ما عهدتها. تناولنا الإفطار ثلاثتنا ثمّ صحبتها، بطلب منها، مع مواشيها إلى المرعى، مخلّفين عمّي في المزرعة.

بلغنا المرعى فاستلقيت من فوري على العشب، كعادتي في رحلاتنا تلك، مغمضًا عينيّ محدّقًا في فوضاي الدّاخليّة. لم تشاغبني هذه المرّة. مضت تهشّ قطيعها وتهتمّ بشؤونه. لكنّني فجئت بها بعد قليل تناديني واقفةً بالقرب من رأسي. فتحت عينيّ لأجدها مبتسمة، يداها إلى خلفها.

جلست مبتسمًا بدوري وسألتها ما بها. لأوّل مرّة أراها متلبّكة هكذا، بملامح مترعة بخفر عذب، هي الفتاة الجريئة دومًا.

بهيئتها المختلجة تلك، ناولتني ما كانت تخفيه خلفها قبل قليل: وردة حمراء رائعة مثقلة بالنّدى.

مددت يدي مرتبكًا وتناولت الوردة. وقبل أن أنبس، جلست هي إلى جواري وألهبت خدّي بقبلة خاطفة: أحبّك يا إبراهيم، أحبّك!

كانت عيناها تشفّ عن حبّ حقيقيّ، بل وكلّ تفاصيلها، ورغم ذلك لم أقدر على تقبُّله. أن أقع في الفخ مرّة أخرى؟! حتّى لو لم يكن فخًّا، هو على الأقلّ ثقل أنا بأمسّ الحاجة لأن أتخفّف منه بمرحلتي هذه، في سعيي هذا لتحقيق ما يكفي من الحريّة، من الانعتاق.

أطرقتُ برهة ثمّ ملتُ بوجهي تلقاءها: ولكنّني لا أقدر! لماذا؟!

"صدّقيني يا زهرة، كلّ من أحببتهم أو أحبّوني لم أمنحهم السّعادة ولا هم منحونيها. على العكس، مضيت وإيّاهم، بقصد وبدونه، نتبادل طعنات مميتة. أعرف أنّ حديثي هذا سيحزنك لكن ليس بوسعي سواه. يجب أن أكون صريحًا معك مهما كلّف الأمر. لست أنا من بوسعه إسعادك. بل إنّني لا أستحقّك".

لم تتحدّث بعد. نظرت فيّ بعينين ملؤهما الدّمع، وإن كانت شفتاها أصرّتا على التبسّم، ثمّ قامت ومضت بخطىً سريعة ومرتبكة صوب قطيع الماشية.

أدركت لحظتها أنّه لم يعد بمتناولي أن أخفق في الالتحاق بالكلية الحربيّة. يجب أن أنجح في ذلك بأيّ شكل. بعد هذا الّذي حدث الآن، لم تعد عودتي إلى هنا متاحةً منذ أن أغادر في الغد.

قضيت ليلتي الأخيرة تلك معتكفًا في غرفتي أصلّي حتّى تخوم الفجر، أنا الّذي انقطعت عن الصّلاة منذ مجيئي.

اعتذرت لله عمّا بدر منّي من تقصير طوال الشهور الماضية، عن جرأتي على التفكير بإمكانيّة لا وجوده، متذرّعًا بأنّ ذلك إنّما حدث بسببٍ من كون ابتلاؤه السّابق كان مبالَغًا فيه. فليغفر لي إذن، هو الغفور الودود. واختتمت مناجاتي بأن طلبت منه أن يضمن قبولي في الكلية الحربيّة. كرّرت طلبي مرارًا، وفي كلّ مرّة ينبعث صوت من داخلي كتتمّة، صوت اجتهدت في كبحه ما أمكن: "إن لم تتكفّل بذلك يا رب، سيكون بمثابة إثبات بأنّك غير موجود!".

وما أن أطلّ الصّباح حتّى كنت خارج المنزل. مشى معي عمّي بعض الطّريق، يودّعني ويكرّر لي كلامه السّابق بكلّ حبّ.

في افتراقنا طلب منّي أن لا أنقطع عن زيارتها ووعدته بذلك.

بالنّسبة لزهرة كانت قرّرت الاحتجاب.

رغم إدراكي بأنّني أبليت حسنًا في امتحان القبول، بشقّيه البدنيّ والنّظريّ، إلّا أنّ عثوري على اسمي في الجريدة الرسميّة بين المقبولين فاجأني. كان العدد المطلوب ضئيلًا مقارنةً بسيل المتقدّمين، وكنت أعرف، مثل أغلب من تقدّم، أنّ هذا الامتحان ما هو إلّا إجراء شكليّ، وأنّه لا يُستبعد أنّ أسماء المقبولين قد أُعدّت سلفًا. المحسوبيّة هي العامل الحاسم. من يمتلك توصية من شخصيّة نافذة هو من سيتمّ قبوله. وأنا لم أحمل معي أيّة توصية، وكانت مفاجأتي ناجمة عن ذلك.

مغتبطًا، تأبّطت الجريدة مغادرًا النُّزُل البسيط الّذي مكثت فيه منذ وصولي العاصمة وانطلقت صوب مبنى الكليّة، ومنذ تلك اللّحظة ابتدأ فصل جديد من حياتي.

كانت غبطتي ناجمة عن كوني تحرّرت أخيرًا من السلطة الأبويّة. صرت ابن الدّولة. هي سترعاني منذ الآن. هي من ترعى الجميع. الدّولة، الكيان المعنويّ الّذي بدا لي لحظتها درب حريّتي واستقلالي.

وكانت سنوات دراستي الأربع تلك، الّتي قضيت أيّامها جميعًا، باستثناءات نادرة، داخل سور الكليّة، هي الأسرع مرورًا في

حياتي كلّها. مضت مفعمة بالعمل، بالتّعب الجسدي. هناك، ومنذ اليوم الأوّل، تدرك أن لا حاجة لك من الذّهن إلّا أقلّه، وأنّ ثمّة معيارين أساسيّين للبقاء والمفاضلة: قدرة الجسد على الاحتمال ومقدار ما تُبدي من دماثة، أو بشكل أدقّ مقدار ما تبدي من خضوع تجاه رؤسائك ومن تفهُّم ومشاركة تجاه زملائك. بدا لي أنّ ذلك بالفعل هو كلّ شيء.

في السّنة الأولى بالذّات بدا كما لو أنّ الضُبّاط، معلمينا، قرّروا على نحو لا هوادة فيه أن يصنعوا من أجسادنا آلات فتاكة. لم يتوانوا قطّ في إنجاز ذلك. أمّا ما يتعلّق بالجانب الروحيّ فكان ثمّة، بالتّزامن مع التدريبات الجسديّة، تدريبات نفسيّة لا تقلّ ضراوة، تدريبات تقوم على الاستفزاز وتتكفّل مع الزّمن بتدمير حساسيّتك تجاه كلّ ما هو مستفز ومخيف. ثمّ كلّما اجتزنا سنة قلّت تلك السّطوة وأُضيفت لنا امتيازات قليلة، على رأسها تدريب المنتسبين الجدد.

ولعلّك ستحسبني الآن مبالغًا حين أخبرك بأنّني لا أتذكّر أنّ أيًّا من تلك الهموم الفلسفيّة حضرني طوال تلك السّنوات الأربع. مضيت أنهمك في أداء التدريبات المفروضة طوال اليوم، أفعل ذلك بكدّ_ أنا مجبر عليه_ يستنفدني تمامًا، ثمّ ما أن يصرفونا ليلًا إلى عنابرنا حتّى أتهالك على فراشي وإلى غَيابة النّوم في ثوان.

وكان جرس النّهوض يبغتني دومًا قبل أن تواتيني حتّى الأحلام. بتلك الفترة ما عاد ثمّة من أحلام.

لاحقًا، حين عدت وفكّرت في هذه المرحلة، بدا لي وكأنّ التفكير التأمّلي ليس سوى عَرَض من أعراض بطالة الجسد. لا أتذكّر أنّني شعرت في تلك السّنوات بشعور خاصّ ما. لم يكن ثمّة من وقت لذلك ولا حيّز. أمسى جسدي هو محور كياني، انسحبت الرّوح إلى زاوية ما ثمّ لم تعد تومض سوى بمعدّل باهت لا يكاد يُلحَظ.

كان أبي محقًّا إلى حدّ بعيد، فقد برهنت هنا على تفوّق من الصّعب أن أتخيّلني أنجزه في كليّة العلوم. استغرقت أؤدّي واجباتي بانضباط، وظلّ جسدي يُبدي احتمالًا ومرونةً هائلَين. في تدريبات القنص بالذّات بدوت لمعلميّ وزملائي أعجوبة. مهما كانت البيئة الافتراضيّة الّتي يحيطونني بها، وسواءً كان الهدف ثابتًا أو متحرّكًا وعلى أيّ بُعد، وحتّى حين تكون عيناي معصوبتَين فأضطرّ للاعتماد كليًّا على حاسة السّمع، ...، كيفما كانت الشّروط لا أوفّر أيّا هدف. بتلك التمارين تمكّنت حواسي من إثبات جدارتها على نحو مذهل، وكانت سعادتي طوال تلك الفترة تتلخّص في ذلك.

داخل سور الكليّة، إلى جانب مبنى القيادة وعنبر الضبّاط وعنابر الملتحقين وصالات التدريب، ثمّة مسجد جيّد التأثيث، الصّلاة فيه إجباريّة. ليس لغرض التربية الدينيّة وإنّما كتدريب على الانضباط، عنوان الحياة العسكريّة وجوهرها. في إنجازي الصّلاة هناك مضت تخامرني سَكينة عذبة ما، لا من استحضار المعنى السماويّ وإنّما من كون زمنها المقتضب هو وقت الرّاحة الوحيد يستقطعه الجسد من الزّمن اليوميّ الطويل المترع بجهد عضليّ كثيف حدّ التكوّم.

ما من حريّة هنا. كلّ شيء محدّد بنظام صارم ويتوقّف نوع وجودك، بل وجودك من أساسه، على مقدار ما تُبدي من التزام. من يمتلك أقلّ نزوع إلى التمرّد لم يكن يمضي عليه الكثير من الوقت قبل أن يجد نفسه خارج سور الكليّة وعلى نحو قاطع ونهائيّ.

رغم ذلك لم يكن هذا الواقع يحزنني أنا الّذي كان شغفي للخروج من البلدة ومن سلطة الأسرة متعلّقًا على نحو أساسيّ بالرّغبة في الحريّة، في الانعتاق والاستقلال. ليس فقط لتمحور كياني فترتئذٍ في جسدي، بدأبه اليوميّ في إنجاز سلاسل التدريبات المجنونة تلك، وإنّما أيضًا_ وهذا ما فكّرت به لاحقًا_ كونك لا تسكب عبوديّتك هنا لشخص بعينه، وإنّما نحو لائحة يخضع لها

الجميع كلٌّ حسب رتبته. كلّ شخص هنا هو رئيس بمستوىً ما ومرؤوس بمستوىً ما، وضمن نظام يظلّ يخبرك أنّ إمكانيّتك الوحيدة لتوسعة حيّز حركتك مستقبلًا هي في أن تبدي التزامًا تامًّا في حيّز حركتك الآنيّ.

هنا إذن وجد المرء عزاءه، إزاء تقويض حريّته، في النّظام وما يبدو من مساواة في نطاق المستوى الواحد، النّظام وهو يقلّص المباغتة لأنهى حدودها فتلوح لك الأشياء الّتي تعنيك واضحةً ومحدّدةً على نحو يثير الرّضا.

تخرّجت الأوّل على دفعتي، وفي حفل تخرّجي وجدتني على موعد مع مفاجأة ما كنت لأتخيّلها حتّى في أحلامي، أحلامي الّتي كانت قَلَتني منذ دهر.

سبق وأخبرتك أنّني كنت، لما بدا من تفوّقي، حزت تقدير جلّ الضبّاط والمدرِّبين. وفي السّنة الأخيرة نَمَت علاقة من الودّ، بما يسمح به السّمت العسكريّ، بيني ومدير الكليّة شخصيًّا، ضابط مهيب كبير السنّ نسبيًّا، كان ابنه زميلي أيضًا. بسببٍ من تلك المقدّمات، ولكوني الأوّل على الدّفعة، لم يفاجئني أن دعاني الرّجل عصر ذلك اليوم لاصطحابه، هو وابنه، إلى منزله. حسبت ذلك نوعًا من تقدير أستحقّه.

المنزل في طرف العاصمة، يكاد يكون خارجها. حين وصلناه لم تكن دهشتي ناجمة عن فخامته الّتي تذكّر بالقِلاع الأثريّة، بل من تصرّف صاحبه. أومأ لابنه بأن يفارقنا وعَبَرَ بي البهو المهيب المؤثّث بذوق عسكريّ_ ذوق يرتكز على المهابة أكثر منه على الجمال_ إلى أن وقف بي أمام باب ودعاني مبتسمًا لأن أفتحه وأدخل، ثمّ استدار ماضيًا!

ارتبكت. بقيت متجمّدًا لزمن. ما عساه ينتظرني وراء هذا الباب! وفي الأخير لم يكن بمتناولي سوى أن أفعل ما أمرني به الرّجل. طرقت ثلاثًا ثمّ أدرت مقبض الباب ودخلت.

رأيت أربعتهم أمامي، أبي وأمّي والتوأمين. صرخوا مبتهجين من فورهم وقد أخرستني المفاجأة وشلّتني. لم أستوعب الأمر. شعرت بأنّني أتلاشى، أغيب.

اندفعت أمّي صوبي وبدا كما لو أنّها عازمة على التهامي. اندفع وراءها التوأمان يتجاذبانني في احتضانات ملؤها الشّوق والحفاوة. صارا يافعَين.

بكيت. لم أقدر إلّا أن أبكي.

كنت فرحًا بلا حدّ، على أنّني بقيت، طوال انغماسي بذلك الفيض العاطفي من أمّي والتّوأمين، مُضعضعًا أيضًا، أرمق أبي من طرف عينيّ، لا يزال واقفًا على مبعدة وإن بملامح منفرجة.

أحقًّا كنت كرهته على نحو ما ظننت؟ فلماذا أتمنّى الآن لو يندفع صوبي مثلهم ويحتضنني؟! أليس هو الرّجل نفسه الّذي بقيت جُلّ سنواتي في البلدة أتمنّى اليوم الّذي سأغادر فيه عشّه إلى الأبد، لأنّي سئمت منه، من سلطته وعجرفته؟ أليس هو من تبرّأ منّي بتلك اللّيلة الكئيبة على ذلك النّحو القطعيّ؟ فلماذا أودّ الآن لو أعانقه فلا أنفصل عنه؟!

لم يدعني أغرق أكثر في هذه الدوّامة من الأسئلة، وها هو يفرد جناحيه داعيًا إيّاي، أنا ابنه الضّابط، إلى أحضانه. تلك من أسعد لحظات حياتي. انتابني حسّ نبتة أُعيدت إلى تربتها وكانت توشك في ذبولها على التيبّس والفناء. بتلك اللّحظة فقط انتبهت كم أنّني تعبت في سنوات البعد تلك، أنا الّذي عشت زمنًا أبحث عن مجرّد ثقب بوسعي أتسرّب منه خارج سور الأسرة!

قضيت معهم نحو أسبوع، في ضيافة مدير الكليّة وقد خصّص لنا جناحًا من منزله الفسيح. إنّه زميل أبي. تخرّجا من الكليّة في نفس الدّفعة، وأكثر من ذلك، شاركا في الحرب الماضية كتفًا لكتف. بدا لي الآن أنّ رابطًا بينهما يتعدّى ذاك بين مجرّد صديقين قديمين. كانا يمضيان معًا أغلب النّهار فأبقى رفقة أمّي والتوأمين. وبات قبولي في الكليّة، الحدث الّذي فاجأني في وقته، مفهومًا لحدّ بعيد.

قبل أن يعود الأهل إلى البلدة طرحوا عليّ أن أرافقهم إلى هناك لتمضية أيّام طالما ودوامي الوظيفي لم يبتدئ بعد. أبي من اقترح ذلك أوّلًا. يجب أن يعرف الجميع أنّني عدت إلى كنفه وأنّ تبعات تلك الحادثة انتهت إلى هنا. إنّه يعلم أنّ ما حدث هو ما رغب به أبو يزيد. حين أعود معهم الآن، ببدلتي العسكريّة، بالنّجمتين على كتفيّ، سيكون ذلك بمثابة ردّ الصّفعة لأبي يزيد. سيختنق غيظًا وحسدًا. أمّا أمّ عائشة فقد غادرت البلدة صبيحة مغادرتي. لم يعد ثمّة ما يمنع عودتي.

لم يعجبني حديث أبي هذا. جعلني أشك في أنّ مجيئه لهذه المصالحة لم يكن بدافعٍ من شوق الأب وفخره وإنّما كخطوة مدروسة في سياق انتقامه من خصومه ومكايدتهم. على كلّ حال، لا يمكنني العودة. ليس الآن على الأقلّ. بالتّأكيد كلّ أهالي البلدة عرفوا بتلك الفضيحة، وهم أناس لا ينسون. لن أقدر على احتمال تهامسهم ولمزهم. سيكدّرون عليّ فرحتي بتخرّجي وبترميم علاقتي بأسرتي.

"فلتسبقوني أنتم وسألحقكم ما أن أجدني مستعدًّا".

إلى يوم عودتهم لم أكن فكّرت أين سيتمّ توزيعي لتأدية عملي كضابط مُستجَدّ. لم يكن ثمّة فرق في الحقيقة. المعسكر هو المعسكر أينما يكون. على أنّني تفاجأت حين وجدت القيادة اختارتني لأبقى

في الكليّة، وأسندت إليّ تدريبات القنص. أقول تفاجأت رغم أنّ الأمر كان طبيعيًّا تمامًا ومنطقيًّا، فأنا الأوّل في دفعتي والأوّل من بين الجميع هنا، حتى الضبّاط الكبار من معلمينا، في مهارات القنص.

إذن، سأظلّ في ذات المكان، داخل هذا السور حيث قضيت أربع سنوات من الكدّ المضني. لكنّني لم أعد مجرّد طالب. صرت معلّمًا. في البداية وجدت في الأمر الكثير من المتعة ومن حسّ تقدير الذّات، لكنّني سرعان ما انتبهت لحجم التغيير الّذي حصل في حالتي.

لم أعد الآن مطالبًا بمعشار الجهد البدني الّذي ثابرت أنزفه طوال سنوات الدّراسة. صار لديّ وقت فراغ مديد، وشيئًا فشيئًا عدت لتلك الحال من الشعور بالخواء. مع ذلك كان ثمّة ما قد تغيّر فيّ على نحو جليّ. لم تعد لديّ تلك الحساسيّة تجاه الأسئلة الكبيرة المحيّرة، المتعلّقة بوضعيّة وجودنا البشريّ هذه اللّا مفهومة بالمجمل. قراءاتي في الفلسفة والرواية هدمت جزءًا من تلك الحساسية، وتكفّلت الحياة العسكريّة بالباقي. أيضًا كنت تعدّيت تلك المرحلة العمريّة حيث الأحاسيس والأفكار تعبّر عن نفسها فقط بالاحتدام. أمسيت أكثر تصالحًا مع جهلي بتلك الشؤون، أكثر

تقبّلًا لوضعيّتي القاصرة هذه ولم أعد آخذ الأشياء بذلك القدر من الجد.

طوال سنوات عمري السّابقة بقيت أعلّل نفسي إزاء هذا الخواء بأنّ السّعادة والامتلاء لا يزالان ينتظرانني هناك في المستقبل. حين كنت بين أهلي في البلدة بقيت أرى السّعادة تنتظرني خارج جبالها تلك المحيطة بها مثل سوار، وحين غادرتها اعتقدت السّعادة تنتظرني في تحقيق ذاتي، وكان مفهومي لتحقيق الذّات هو في امتلاكي زمام نفسي، بأن أكسب قوتي من عرق جبيني فأنال بذلك استقلاليّتي، وها أنا فعلتُ لكنّ السّعادة لم تأتِ. لم تأتِ حتّى وقد اجتمعت بأهلي من جديد وترمّمت علاقتي بهم. الآن لم يعد ثمّة في أفقي ما يمكنني أعلّق عليه أملًا. صرت ضابطًا، وهكذا سأظلّ إلى آخر العمر.

ربّما بقيت إمكانيّة واحدة لتحقيق السّعادة، أن أتزوّج وأكوّن أسرتي الصّغيرة. لكن ما الضّامن أنّ هذه الخطوة ستختلف عن سابقاتها؟ ما الضّامن بأنّها لن تكون بدورها محض سراب، محض وعد كاذب؟ أجزم أنّها لن تكون سوى قيد إضافيّ، ذريعة إضافيّة للوجود ليتمكّن من سحقي أكثر.

لم أكن وحدي من تمّ اختياره من دفعتي للعمل هنا في الكليّة، ابن المدير أيضًا. شخص بلا طموح تقريبًا وبلا اهتمامات

فلسفيّة أو سياسيّة. يحترمني كثيرًا وأشعر نحوه، كما نحو أبيه، بكثير من الودّ. ولأنّه صار لدينا الكثير من الوقت لا نكون فيه مضطرّين للبقاء داخل سور الكليّة، أخذنا نخرج للتنزّه بين حين وآخر، وصارت لنا رفقة من طراز صديقي هذا، رفقة بوهيميّة لحدّ بعيد.

داخل سور الكليّة كنّا نبقى، بمقتضى الحياة العسكريّة، خاضعين للنّظام على نحو تامّ. على أنّ في كونك ضابطًا ما يظلّ يشعرك بنوع من القوّة، كيف لا وفيك شيء من الدّولة، من هيبتها؟! هذا التناقض بين الواقع والشّعور في هذه الجزئيّة ظلّ يدفعنا، نحن الضبّاط الصّغار، لأن نعيش خارج سور الكليّة ما من شأنه توكيد نزوعنا للتمرّد، وذلك ضمن آليّة لا واعية تتغيّا تحقيق أكبر قدر من الانسجام الدّاخلي.

صارت لنا معرفة بالحانات، بالخمرة والنّساء. وعلى الرّغم من أنّني مضيت لهذا المسلك بدايةً على مضض وكنوع من الفضول إلّا أنّني سرعان ما غدوت أكثر المتحمّسين. كانت الخمرة تخرجني من سجني الذّاتي وتلقي بي في عدم أحتاجه نهاية كلّ أسبوع أو أسبوعين. وكان النّوم مع امرأة في النّهاية، امرأة يتلخّص التزامك نحوها فقط في دفع المبلغ المتّفق عليه، وأنّك ربّما لن تصادفها مرّةً أخرى في حياتك، كلّ ذلك جعل الأمر يبدو، في بدايته، مثل

مهرب ناجع وملائم. ثمّ حين أخذ هذا السّلوك يوخز ضمير المرء ويهدّد احترامه لذاته، كان غدا نوعًا من إدمان، ذلك الإدمان الّذي لا يلبث يتفاقم وإلى أن تجدك في الأخير صرت تمضي إليه أيضًا لتهرب من وعيك بفظاعته!

لم أعد أصلّي إلّا نادرًا، فقد صرت ضابطًا، والصّلاة في الكليّة مفروضة فقط على الطلاب، كنوع من الإعداد لشخصيّة خاضعة لكلّ إرادة علوية، كما سبق وأبنت. أذهب إلى الصّلاة هربًا من جحيم وعيي بضياعي وضحالة الوجود ككلّ، ولكن فقط حين أكون مجبرًا على التواجد في الكليّة بعيدًا عن دلاء الخمرة واللّحم الرّخيص.

أيضًا لم أعد أفكّر بالعودة إلى البلدة ولو كزيارة، ولم يكف حضور أهلي يبهت في وعيي ووجداني أكثر فأكثر إلى أن تمكّنت دوامة وجودي الرّاهن من ابتلاعي كليًّا.

في مرحلةٍ ما جاء شقيقاي إلى العاصمة. نظرًا لنبوغهما تمّ قبولهما في المعهد العالي للعلوم الشرعيّة وفقط بالشّهادة الإعداديّة. فاجأني مدير الكليّة بهذا النّبأ وقد استدعاني إلى مكتبه. إنّهما ينتظرانني في منزله، حيث أمرهما أبي بالبقاء إلى أن تبدأ دراستهما بعد أيّام.

وجدتهما موفورَي الصّحة والبهاء. ويبدو أنّ أخبارًا من عربداتي وطيشي قد بلغتهما، وبالتّأكيد أبي وأمّي، إذ لم يتورّعا يعظانني بالعودة إلى الله، إلى النّهج القويم والصراط المستقيم. على الأقلّ فلأزُر أمّنا وأبانا بعد كلّ هذه القطيعة الّتي لا يجدان لها أيّ مبرّر.

كان في عظاتهما الكثير من المنطق، وفكّرت هل سيظلّان على شخصيّتهما هذه طويلًا؟ ألن يعيشا ما عشت فيتغيّرا؟ أم أنّ طريقة تعاطيهما مع ما يدور حولهما وما يعتمل في دواخلهما لن تكون الّتي لي؟

ما داما أتيا للدّراسة في معهد العلوم الشرعيّة فهذا يعني أنّ أبي ماضٍ في خطّته بشأنهما. لا يزال مصرًّا أن يصنع من أحدهما إمامًا للطّائفة. وأنا أتمعّن شخصيّتهما، لم أملك إلّا أن أبتسم. لاحا صافيين مثل بلّور نقيّ، صريحين وبريئين حدّ السّذاجة. وكنت أعي كم أنّ منصبًا قياديًّا من النّوع الّذي يريده أبي لهما أو لأحدهما يتطلّب الكثير من الخبث، وبدا لي أنّ معيار أبي في تأهيلهما ساذج بدوره. وكأنّهما لو صارا عالِمَين شرعيَّين فذلك كلّ ما سيحتاجانه لزعامةٍ غامضةٍ مثل هذه الّتي يريدها لهما!

لم ألتقِ بهما بعد سوى مرّات قليلة ثمّ انقطعت عنهما، أو بالأصح هما انقطعا. يئسا من صلاحي ولم يعد لائقًا بهما، حافظَي

القرآن وطالبَي العلوم الشرعيّة، أن يبديا ارتباطًا بشخص يصرّ على إمضاء حياته كعربيد.

كما سبق وأشرتُ، وكما أخبرتني قراءاتي في تاريخ البلاد، وهو واقع التاريخ البشريّ عمومًا، لم تكن الحرب تنطفئ كليًّا. كان يحدث فقط أن تخبو، ويكون ذلك هو تعريف النّاس للسِّلم. يمضون حينها، سيّما الجيل الّذي لم يشهد اشتعال الحرب قبلًا، بتلك الثّقة بأن لا مجال لحدوث جنون جمعيّ على نحو ما قرأوا ببعض الكتب وسمعوا من أحاديث بعض المُعَمّرين، والّتي تبدو لهم أقرب لهلوسات أخيلة مُسِنّة. لا يعرفون أنّهم في واقع الأمر إنّما يجرّون خُطاهم المطمئنّة تلك على بركان خامل ينتظر بتحرّق فرصته المواتية لانفجار جديد، فرصته الّتي لا يُشترط أن تكون منطقيّة في نظرهم فيفهموها ويتنبّأوا بها. وها هو البركان تحتنا يمهّد لانفجاره العظيم!

لم أكن يومًا من قرّاء الصّحف. تعلّمنا في الكليّة أنّ واجبنا كقوّات مسلّحة هو حماية البلاد من الأعداء الآتين من الخارج. عملنا هناك، في حدود البلاد. أمّا الدّاخل فواجبنا نحوه أن نقف من الجميع على مسافة واحدة. انتماؤنا للوطن وحسب، لبيتنا الكبير، لا لحزب سياسيّ أو لطائفة دينيّة. لم تكن السياسة ومماحكاتها تعني لي شيئًا، ولم أكن أتوقّع_ هكذا بسذاجة_ أن يتعدّى أيّ توتّر سياسيّ حدود التراشقات الكلاميّة. لكنّني في

لحظة ما وجدتني، مثل جميع زملائي ورؤسائي، أتصفّح بعض الصّحف على نحو شبه يوميّ، أتحسّس ما سيؤول إليه الوضع.

ابتدأ الأمر باغتيال غامض لواحد من المشائخ الكبار ينتمي إلى ما يُفترض أنّها طائفتي. حدث ذلك هنا في العاصمة فجر أحد الأيّام، برصاص مسدس ما. لم تتمكّن أجهزة الأمن من كشف ملابسات القضيّة ولم تتوصّل إلى الجاني. بعد أسبوعين من ذلك استُهدف اجتماع ما لعدد من مشائخ طائفة أخرى، هي الّتي انتمى إليها عمّي، وذلك بانفجار عبوّة ناسفة في مجلسهم. ومن حينها أخذ العنف يصّاعد.

قبل خروج الوضع عن السّيطرة كليًّا، فوجئت عصر يوم باستدعاء من مدير الكليّة، لا إلى مكتبه بمبنى القيادة وإنّما إلى منزله. وصلت لأجده مع مجموعة من الضبّاط والجنود أعرف أغلبهم. تحدّث عن الأخطار المحدقة بالبلاد وعن الانفلات الحاصل وما يبدو من عجز أجهزة الأمن، وخلص إلى أهميّة أن نستعدّ كقوّات مسلّحة لأسوأ الاحتمالات. قد لا نجد مناصًا من التدخّل لإعادة النّظام. وكخطوة أولى يتعيّن علينا، نحن المتواجدين معه الآن، أن نشكّل، منّا فقط، وعلى نحو بالغ السريّة، فريقًا اختارني أنا لقيادته. ليس عليّ حاليًّا سوى أن أُخضع فريقي هذا لتدريبات قنص مكثّفة.

رغم أنّ تدخّل القوّات المسلّحة بدا لي، وفقًا للمعطيات الحاصلة، مفهومًا تمامًا ومنطقيًّا، ورغم أنّ من كلّفني الآن بهذا العمل هو بالفعل أعلى رؤسائي ضمن هيكلنا الإداريّ، إلّا أنّني لم أرتح لهذا الإجراء. كان ثمّة ما يوحي بخطأ ما. جميع أفراد الفريق ينتمون لذات الطّائفة الّتي ينتمي إليها مدير الكليّة، أيضًا المكان الّذي قُرِّر لتدريباتنا يقع على مبعدة من العاصمة، في مكان خلاء، فإذا ما كنّا بالفعل نمثّل الدّولة وإرادتها، لماذا لا تكون تدريباتنا بأحد معسكراتها الرسميّة؟ ما الدّاعي لكلّ هذا التستّر وما زلنا في طور الاستعداد لا في مرحلة الأداء؟ لكن رغم كلّ هذه الشكوك لم يكن بوسعي سوى الانصياع، على الأقلّ إلى أن أتبيّن الأمر بكليّته.

سأنطلق وفريقي إلى معسكر التدريب المُقَرّ عصر الغد.

خرجت من الاجتماع برأس حافل بالهواجس. إلى أين نحن ماضون كجيش؟! إلى أين تمضي البلاد؟! إلى أين يمضي الشّعب؟! لم يكن مزاجي مواتيًا للعودة إلى الكليّة. أين سأقضي ليلتي الملعونة هذه إذن؟! أخذتني قدماي إلى حانة جيّدة كنت اعتدتها.

كنت بأمسّ الحاجة لأن أتلاشى، لأن أخرج من دوّامة هواجسي تلك ولو مؤقّتًا. شربت كما لم أفعل ليلة. لم يصمد وعيي سوى لزمن يسير قبل أن يفارقني إلى حدود ظهيرة اليوم التّالي حين استيقظت لأجدني ممدّدًا على سرير مزعزع، عاريًا تمامًا وعلى

صدري ذراع هامدة تتصّل بجسد أنثويّ نصفه العلوي عار فيما يلفّ الغطاء جزءه السفليّ.

الصّداع يُعمل إزميله في دماغي بكدّ. الغرفة مكتّمة، مُسدلة الستائر وليس ثمّة سوى ضوء أحمر باهت كئيب.

قمت إلى الحمام وزرعت نفسي تحت الدوش. وفقط مع انثيال الماء تذكّرت مهمّتي الّتي يجب أن أمضي إليها على الفور. يا لي من أحمق مستهتر!

خرجت من الحمّام وارتديت ثيابي على عجل. قبل خروجي التفتّ إلى الجسد المسجى على السّرير لا ألوي على شيء. ما كلّ هذا النّوم؟! شيء ما شدّني لأقترب وأتملّى ذلك الوجه.

صعقتني المفاجأة. مستحيل!

بحركة متوتّرة أزحت ستار النّافذة المقابلة، بما يكفي ليتدفّق ضوء النّهار على الجسد النّائم. لم يعد يحتفظ بأقلّ قدر من الحُسن الّذي كان عليه، وقد صار مشوبًا هكذا بالغضون، ملطّخًا بالمساحيق الرّخيصة، لكنّه جسدها هي بلا ريب.. أمّ عائشة!

يا له من مآل!

بيد مرتجفة وكيان مضعضع أعدت الستار. شعرت بنصل يغوص في صدري عميقًا. تحسّست جيوبي، أخرجت ما بقي لديّ

من أوراق نقديّة ووضعتها أمام وجهها، على مقربة من وسادتها. كان فمها يتضوّع برائحة خمر رديء.

انطلقت مشوّشًا إلى الكليّة. وصلت لأجد فريقي بانتظاري. مضيت وإيّاهم على الفور إلى المكان المتّفق عليه، هناك حيث أقمنا معسكرنا وبقينا نتدرّب بعزلة تامّة. كان جزء من البرنامج التدريبيّ أن نتمكّن من توفير احتياجاتنا الأساسيّة، من أكل وشرب، ممّا توفّره البيئة نفسها.

بعد نحو شهر أتانا المدير زائرًا. لم يأتِ مرتديًا البدلة العسكريّة كما اعتدناه وإنّما ثيابًا شعبيّة، معتمرًا العمامة المميّزة للطّائفة. أطلعته على سير التدريب، وبعد أن أبدى رضاه أمسك بيدي وانتحى بي مكانًا بعيدًا نسبيًّا.

جلسنا وحيدَين في ذلك العراء، مفترشَين التراب، وبقي المدير مدّة دون أن ينبس ثمّ استهلّ حديثه بأن أخبرني بأنّ الزّمام انفلت كليًّا وأنّه لم يعد هنالك من سبيل للحؤول دون الاحتراق بجحيم الحرب إلى المدى الّذي تقرّره هي. في الأسابيع الماضية، وفيما أنا وفريقي منهمكون هنا في التدريب، تأجّجت الأحداث أكثر وتعدّت العاصمة إلى مدن أخرى مجاورة. وهو يريد الآن إطلاعي على المهام الّتي سأضطلع بها مع فريقي خلال الأيّام القادمة.

قال هذا وصمت غارزًا عينيه في عينيّ كأنّما ليجسّ دواخلي. هذا التململ أخبرني أنّ ما يريد قوله لي، ما يرغب بتكليفنا به، ليس بالشّيء الّذي يمكن أن يكون ضمن المهام الطبيعيّة لأفراد من القوّات المسلّحة للبلاد، وبالفعل كان كذلك.

ينتظر منّا إنجاز سلسلة اغتيالات لشخصيّات سياسيّة ودينيّة. حين أطلعني على الدّفعة الأولى من الأسماء لم أجد من ضمنها شخصيّة واحدة تنتمي لطائفته، طائفة أبي وما يفترض أنّها طائفتي.

وهنا دعني أخبرك بأمر ستستغربه. على الرّغم من قراءاتي تلك عن حروبنا التاريخيّة، وتلك الحروب الّتي عشتها بخيالي لدى انهماكي في قراءة الروايات بمنزل عمّي، وأيضًا أنّي التحقت بالكليّة الحربيّة وانخرطت في التربية العسكريّة لسنوات، على الرّغم من كلّ ذلك، وأنّي قد لمست الحرب في الأيام السابقة كواقع لا يعتريه شكّ، إلّا أنّني لم أكن تخيّلتُني قطّ أحمل بندقيّتي لأسدّد بها موتًا لإنسان ما، لجمجمته أو قلبه! دومًا ما بقي تصوّري لعملية القنص محصورًا في تلك الأهداف الاصطناعيّة الّتي برعت في تثقيبها أكثر من أيّ ممّن عرفت. لقد التحقت بالكليّة الحربيّة اضطرارًا، لأنّها لاحت طريقي الوحيدة للكسب الشخصيّ والانعتاق من ذلّ الاعتماد على الغير، ثمّ خضت الحياة العسكريّة كنتاج طبيعيّ

لذلك، وظلّت فكرة أنّي سأجد نفسي بلحظة ما مطالبًا بتطبيق تدريباتي على أجساد حيّة، على بشر مثلي، لهم حيواتهم الخاصّة، أسرهم وآمالهم وارتباطاتهم، ظلّت مستبعدةً من ذهني تمامًا إلى هذه اللّحظة والمدير يعرض عليّ قائمة التعساء المستهدفين كأولويّة.

والواقع أنّه حتّى لو لم أجد في الأمر خروجًا عن الشّرف العسكريّ، عن القَسَم الّذي صدحت به ملء حنجرتي في تخرّجي، ما كنت لأتقبّله هكذا على نحو ما طُرح الآن، وكأنّه إجراء شكليّ يتعلّق بتدريب روتينيّ! أيّ ذريعة سيمكنني بها تنويم ضميري وأنا أحصد حياة بأسرها بإيماءة من سبّابتي؟! فكيف والرّجل يتحدّث الآن عن تصفية أفراد من الشّعب، لهم ذات الحقوق الّتي لي وعليهم الواجبات الّتي عليّ، أفراد كان يكفي فقط أن يكونوا من طائفته كي يُستَبعدوا من قائمة الموت العاجل هذه ولو كانوا أكثر النّاس خطرًا وفسادًا وإثارةً للنّعرات والبلبلة؟!

صمتُّ. كنت أغلي من داخلي دون أن أتوصّل إلى ردّ يتناسب وسخافة التكليف. لم يكن يعوزه الذّكاء. أدرك رفضي، بل وخمّن أسبابه.

أخبرني أنّ ابنه، زميلي، قد التحق بدوره بإحدى التشكيلات القتاليّة، وأنّنا مهما حاولنا اختراع توصيفات أخرى للحرب

الجارية إلّا أنّ ذلك لن يلغي حقيقة أنّها حرب طائفيّة، من سينتصر فيها سيحكم كامل البلاد لعقود تالية على الأقلّ. إنّني لا أعرف ما حدث في الأيّام القليلة الماضية، ولكن سواءً صدّقته الآن أو انتظرت إلى أن أشهد ذلك بنفسي: لقد تبخّر الجيش تمامًا، تبخّر باعتباره جيشًا للبلاد. جُلّ الضبّاط والجنود غادروا وحداتهم العسكريّة إلى تشكيلات قتالية استُحدثت بمقتضى ومقاس الطّائفة وجغرافيّتها. الدّولة الّتي أحسبني سأتصرّف بناءً على لوائحها لم تعد موجودة. ببساطة، لقد تبخّرت!

"حسنًا"، قلت واقفًا من جلوسي، يضجّ دمي حنقًا وصدمةً: "هذا يعني أنّني لم أعد مُلزَمًا بشيء تجاه أحد. التزامي الوحيد في هذا العمل كان تجاه الدّولة، أمّا وقد تبخّرت كما تقول فأنا حِلٌّ من كلّ هذا الهراء"، ومضيت خطوات بلا وجهة.

ظلّ جالسًا بمكانه، ومن موضعه ذاك سدّد كلماته على ظهري كمن يطلق رصاصًا: "كان أبوك محقًّا إذن. لست بالشخص الّذي يُعتمد عليه لشأن بطوليّ كهذا. أنت فاقد الإيمان والانتماء".

لكنّ كلماته هذه، على إيلامها، منحت خطاي المتحيّرة تلك وجهتها.

أجل، لم يعد لي من ذلك بدّ. سأعود إلى البلدة.

استقبلني والداي على نحو باهت تمامًا. لقد تغيّرا كثيرًا. أناخ المشيب على ملامحهما، ومن هيئتهما لاح تعب كبير. بالنّسبة لأبي وجدتُه منهمكًا في التحشيد لجبهات القتال، أمّا أمّي فمهدودةً بهَمّ شقيقيّ، صغيريها اللّذين التحقا بالتشكيلات القتاليّة منذ أيّام ولم تعد تعرف عنهما شيئًا.

في مجيئي كنت توقّعت أنّ أبي سيستقبلني بسيل من الشتائم لامتناعي عن الانخراط في التشكيلات القتاليّة في العاصمة، سيطردني ربّما مرّة أخرى ويعود لتأكيد تبرّئه منّي، لكنّني أيضًا لم أفاجأ بعدم قيامه بشيء من ذلك. أدركت أنّه سيظلّ مراهنًا على قدرته في الإقناع وعلى ما تصنعه الأحداث من تأجيج متواصل. وهو بالفعل ما ثابر عليه.

توقّعت أيضًا أنّ الأهالي إن لم يكونوا نسوا بفعل التقادم لطختي التاريخيّة تلك مع أمّ عائشة، فبالتّأكيد سيتكفّل بذلك انشغالهم بالحرب، كارثتهم الجمعيّة هذه، لكنّني أخطأت في تقديري. لم يصارحني أحد بازدرائه لكنّ أعينهم وحركاتهم بقيت تقول كلّ شيء ما أن يصادفوني.

أقسم لك لا تقادم السنوات ولا حتّى الحرب بوسعها تنسي النّاس زلّات بعضهم.

لدى وصولي لم تكن الحرب بلغت الأرياف. كانت لا تزال محصورة في العاصمة وبعض المدن الكبيرة. مع ذلك كان التحشيد في أوجه. باسم الله وباسم الطّائفة مضى الكلّ من مختلف الأعمار إلى القتال. من يُقتل سيجد الجنّة بانتظاره في الطّرف الآخر، ومن ينجو سيعيش مرفوع الهامة وقد شارك في النّصر العظيم مزيحًا عن نفسه خزي الجُبن وعار القعود.

من بلدتنا نفر الأغلب خفافًا وثقالًا، وكان أبي هو المحرّض الرئيس. في المسجد والسوق والطرقات لم يكف يلهب حماسة النّاس، يحدوهم إلى خطوط النّار، إلى هناك حيث دفع بولديه كأوّل من ذهبوا.

لم يكلّ يحرّضني على الانخراط في هذا الفعل "المقدّس"، ولم أملّ أرفض. غرفة السّطح تلك وجدتها مأهولة بشكل دائم. خصّصها أبي لاجتماعاته مع فريقه من القائمين على الحشد. بعد أسابيع من وصولي، وقد بدأ يُرهَق من محاولته جرّي إلى حيث يريد، طلب مني أن أنضمّ إلى فريق التحشيد هذا على الأقلّ، أو إلى حرسه الشخصيّ، وبقيت أتملّص.

منذ الأيّام الأولى أخذت تتوافد إلى البلدة توابيت الضّحايا، الشهداء حسب التوصيف الشّائع. وهل تظنّ تأثير ذلك كان عكسيًّا على حماسة الأحياء؟ أبدًا، بل إنّه على العكس كان محفزًا كبيرًا! كلّ جثمان يصل مضى يحرّض اثنين أو ثلاثة ممّن لا يزالون متلكئين، وفي الأخير من لم تكن حماسته العَقَديّة كافية لدفعه في البداية ها هو يمضي بدافع الثأر.

من سيل التوابيت المتدفّق ذاك، كان يحدث أن يأتي تابوت مميّز ما، يحوي شخصيّة ذائعة الصّيت، يُلهب الحماسة الجمعيّة على نحوٍ غير مسبوق. من بينها جثمان أبي علاء.

لطالما مثّل لي ذلك الرّجل لغزًا. على الدّوام شكّل مع أبي وأبي يزيد الثلاثيّ الأكثر وجاهة وتأثيرًا في البلدة. لكن في حين كان أبي وأبو يزيد نشيطَين وحركيّين، ما يجعل من تأثيرهما مفهومًا، لم أعرف أبا علاء إلّا صامتًا كئيبًا مثل قبر، وهو ما جعلني أتساءل دومًا من أين اكتسب تأثيره الرّاسخ ذاك الّذي لا تؤهّله له طبيعته الشخصيّة.

هو ليس من الأهالي في الأصل وإنّما وَفَد من بلاد بعيدة، ضمن حملة التآزر الطّائفيّ الّتي اقتضتها الحرب السّابقة.

ولعلّي الآن لم أعد في حاجة لإخبارك بأنّني بقيت طوال عمري أستغرق في البيئة الّتي أجدني فيها وإلى حدّ لا أعود أتذكّر

من بيئتي السّابقة سوى ملامحها البارزة وعلى فترات متباعدة، وأنّني رغم ذلك حين أُباغَت بشيء من متعلّقات ماضيّ فإنّ مشاعري نحوه تعود متوثّبةً وكأنّ الفاصل الزمنيّ من حينه قُصّ بفعلٍ سحريٍّ. كان هذا حالي حين وجدت علاء أمامي قُبَيل جنازة أبيه.

كنت استحضرته قبل ذلك في الأيّام الأولى من وصولي، لدى مروري بالدروب الأثيرة الّتي استهلكت خطواتي الطفوليّة إلى جانب عصابتي الصّغيرة الّتي كان هو عضوها المبرّز. استعلمت عنه حينها على نحو عارض وأخبروني بأنّه غادر مع أبيه إلى العاصمة قبل سنوات، ليلتحق هناك بكليّة العلوم.

لم أفهم الآن لماذا لم يقم علاء بدفن أبيه في العاصمة حيث قُتِل، لكنّه ليس بالسؤال اللّائق في ظرف كهذا. رغم ذلك وجدتني في المساء أمام الإجابة، وأكثر من ذلك أمام مفاجآت من العيار الثقيل، مفاجآت غرائبيّة حتّى لكأنّها شطحات خيال.

لم أكن فارقت علاء منذ وصوله مع تابوت أبيه صباحًا. بقيت أؤازره طوال مراسيم الدّفن، وحين عدنا جميعًا من المقبرة رافقته إلى منزله مع نفر من المعزّين. لم أفكّر بمغادرته إلّا مع هبوط المغرب.

كنت جالسًا إلى جواره حينها، انحنيت أهمس له بأنّني سأغادر، سأذهب إلى المسجد أو إلى المنزل وأدعه ليرتاح بعد يومه الحزين والشّاق. لكنّه أمسك بيدي وطلب منّي في رجاء أن أعود لزيارته بعد صلاة العشاء، يريد أن أسامره اللّيلة في عزلة عن الجميع.

لم يكن بوسعي إلّا أن أعده بذلك.

لا تزال له تلك الهيئة الجميلة البالغة الرِّقة، تلك المسحة الأنثويّة الّتي مثّلت لفترة من حياتي جحيمها الخاص، وإن كان بريق عينيه خفت بعض الشّيء واكتست ملامحه بشيء من التعب والصّرامة فقد عزوت ذلك لظرف السّاعة. لكنّني في الحقيقة لم أعد أخشى تجاهه ما كنت أخشاه في الماضي. صحيح أنّني ما زلت أرتبك في بقائي على مقربة منه، لكن ليس ارتباك الرّغبة المكبوحة وإنّما ارتباك ذكراها، وقد بدا لي طلبه ذاك، بأن أذهب لعيادته مساءً، مفهومًا تمامًا بالنّظر لمُصابه الجلل. مع ذلك تلكّأت زمنًا بعد تناولي العشاء، لا لشيء سوى لتلك البلادة لرجل لم يعد ثمّة في وجدانه ما يكفي لتأجيج أدنى حماسة. على أنّه لم يمكنني في الأخير إلّا أن أذهب.

وجدته وحيدًا، وهذا طبيعيّ تمامًا، فما عاد له من أهل، ولم تكن المسامرة من طباع أهالي البلدة. دلف بي الغرفة نفسها الّتي

جلسنا فيها للعزاء. أشار لي للجلوس ففعلت، منتعشًا بضوء سراج ساطع.

بدا مضعضعًا. لم تعد ملامحه مكسوّة بحزن النّهار، بل بمزيج من الارتباك والرّجاء. ابتسمت هكذا لمجرّد أنّني لم أهتد لتصرّف آخر، وابتسم بدوره بإشراق وسرور. غدوت أنا المرتبك. تمكّنت من التستّر على ارتباكي، لكنّني سرعان ما غدوت فريسة الحيرة بعد أن تأتأ بأنّ ثمّة ما يودّ إطلاعي عليه. إنّه سِرُّه الخاص، سِرُّه الّذي بقي مضطرًّا لأن يحجبه عنّي كما عن الجميع طوال زمن بقائنا معًا في البلدة، قبل أن أُطرد منها قبل سنوات. لكن قبل ذلك عليّ أن أدرك أنّ أقسى ما عاناه طوال سنيّ عمره هو رحيلي ذاك. أحزنه حدّ الاكتئاب، ولو أنّه عرف حينها إلى أين مضيت لما تردّد لحظةً في أن يتبعني. ربّما لا أعرف أنّي عنيت له كلّ شيء، أنّه أحبّني كما لم يحبّ أحدًا ولم يكفّ عن ذلك قط. إن كان ثمّة ما أنقذه من مصير الجنون من تأثّره بفقدي، فهو سفره إلى العاصمة بعد نحو سنة من ذلك وتلهيه بالدراسة الجامعيّة، حتّى أنّه مضى في سفره ذاك مؤمِّلًا أن يراني، أن يلتقي بي إن في كليّة العلوم أو بأيّ مكان هناك، لكنّ ذلك، ويا لألمه، لم يحدث. بعد تخرّجه بزمن، حدث أن جاء شقيقاي إلى الشقة الّتي يسكنها، يحملان رسالة من أبي إلى أبيه. كان حدثًا معتادًا، لكن في تلك المرّة عرف منهما أنّني في العاصمة،

أنّني قد تخرّجت من الكليّة الحربيّة وأعمل فيها حاليًّا. كاد يطير فرحًا. طلب منهما أن يتدبّرا طريقة ليجمعاه بي فرفضا بكثير من الضيق. لم يعودا يرغبان في لقائي لأيّ سبب. توسّلهما ولكن عبثًا. مع ذلك ظلّ فرحًا، فها هو عثر على مكاني أخيرًا وهذا هو المهمّ. ظلّ لأيّامٍ تالية متهيبًا أن يأتي إليّ، إلى مكان عملي. كلّ ما له علاقة بالعسكر وبالحياة العسكريّة يشعره بالرّهبة، بالخوف. لم يكن بوسعه أن يطلب من أبيه تسهيل وصوله إليّ رغم إدراكه أنّه يمتلك من العلاقات ما يجعل الأمر يسيرًا. لقد ظلّ أبوه ممتعضًا من تعلّقه بي منذ مراهقتنا. أخيرًا حسم أمره بأحد الأيّام وتجاسر على المجيء إلى الكليّة الحربيّة، وأيّ استقبال حظي به من الحرّاس! أشبعوه سخرية. أيظنّ هذا نُزُلًا رخيصًا من تلك الّتي يستطيع أيٌّ كان أن يرودها متى يشاء، يستعلم عن نزلائها ويطلب لقاءهم؟! ثمّ صرفوه بقسوة، متلفظين بجمل نابية وبأخرى متوعّدة. الغريب أنّ أباه عرف بتلك الحادثة، لا يدري كيف، الأمر الّذي أدّى لأن يكفّ عن أيّة محاولة أخرى في هذا الصّدد.

ظللت أسمعه بكلّ اهتمام، أزداد حيرة كلّما تقدّم. ما زلت أتذكّر كم أنّه ظلّ متشبثًا بصداقته بي بتلك الفترة قبل طردي من البلدة، وحين أفكّر بذلك الآن يبدو لي مفهومًا. كنت تقريبًا صديقه الوحيد، وكنّا بتلك المرحلة العمريّة حيث تبدو الصّداقة وكأنّها

محور الوجود، لكن أن يظلّ على حاله هذا نحوي رغم مرور كلّ هذا الزّمن وانتقاله للعيش في مجتمع أوسع وببيئة أثرى، فقد حيّرني ذلك تمامًا. أيضًا لم يمكنني فهم ما أهميّة ذلك الآن، ولا ما الّذي يرمي إليه ببوحه هذا. كان توقّف عن الحديث عند هذا الحدّ، وها هو يخفض بصره إلى الأرض، كفّاه في حجره، أصابعه تهصر بعضها.

ممتلئًا بالريبة، احتفظت بصمتي. من كلّ ما سبق لم يلُح لي ما يمكن أن يكون سرًّا وبتلك الدّرجة من الأهميّة الّتي نوّه إليها ببداية حديثه.

حسنًا، لعلّي أتساءل الآن عن السرّ الّذي يريد أن يبوح به لي. الحقيقة أنّه متخوّف من ردّة فعلي. سيبدو لي الأمر خاليًا من المنطق، هو فعلًا كذلك. إن كنت أراه مرتبكًا هكذا فليس إلّا لأنّ بوحه هذا ستكون نتيجته إمّا أن نغدو معًا إلى الأبد، أو أنّ نفترق إلى الأبد!

غدت الأمور أكثر غرابة وتساءلت في نفسي هل هو بخير أم أنّ حديثه محض هلوسة.

سيخبرني الآن. وكيما يكون الأمر مفهومًا لا بدّ له من الرّجوع بعيدًا إلى الماضي، إلى هناك حيث جذور المسألة.

لقد جاء أبوه إلى الدّنيا يتيم الأب فتكفّلت الأمّ بتربيته ابتداءً، لكنّها ما لبثت أن رحلت عنه هي الأخرى ولم يزل طفلًا، ليجد نفسه فجأةً بلا سند. وكانت ثمّة في بلدته مؤسسة دينيّة تعنى بالأيتام، بإعالتهم وتعليمهم. تلك المؤسسة آوت اليتيم، وكان من بين القائمين عليها واحد من مشائخ الطّائفة هناك سرعان ما انتبه لنبوغ الفتى فتبنّاه. كان الشّيخ شديدًا في تعامله وكان وعيه بالمرأة يقوم على أنّها أصل الشرور. مضى يكرّس هذه الصّورة في ذهن الفتى على الدّوام. ولأنّ الفتى عاش وحيدًا تقريبًا، بلا سند من أسرة، فقد بقي يتطلّع بشغف إلى أن يصنع بنفسه تلك الأسرة. تزوّج باكرًا وعلى أمل أن يحظى بالكثير من الأبناء، الأبناء الذكور بالطّبع. لم ينظر لزوجته إلّا باعتبارها أداة لإنتاج ذكوره المُنتَظَرين، وكان أدنى خاطر يعبُرُه بأنّه قد يُبتلى بمولودٍ أنثى يقضّ مضجعه. أمست الأنثى في وعيه تجسيدًا لفكرة العار. وبذلك كانت صدمته كبرى حين حظي بابنةٍ. لم يتقبّل الأمر مطلقًا، حتّى أنّ ذلك تسبّب له بأزمة نفسيّة لم يتمكّن من مهادنتها سوى بانخراطه في الحرب، وذلك بمجيئه إلى هذه البلاد ضمن جهد التحشيد الطائفي الّذي واكب حرب تلك الآونة. لكنّ الحرب انتهت ليعود إلى بلاده من جديد، إلى زوجته وابنته. ظلّ عدم حصوله على ولد يكدّره. فكّر بالزواج من امرأة أخرى لكنّه عاد وأقلع عن الفكرة حين علم أنّ

الرّجل هو المسؤول عن تحديد النّسل. عاد لاكتئابه، وكانت معاناة زوجته من ذلك كبيرة، ولعلّ موت الزوجة في الأخير كان أكبر أقدارها الرّحيمة. بموت الزوجة وجد نفسه وحيدًا مع الطفلة ذات الثّلاث سنوات. في يومٍ ما قرّر أن يتخلّص منها. كانت نائمة على سريرها، طوّق عنقها الصّغير، وقبل أن يضغط لخنقها صَحَت. ابتسمت معتقدةً أنّ أباها يداعبها. أطلقت كفّيها تعبث بلحيته. بسببٍ من تلك الملامسة البريئة رقّ قلب الرّجل وتراجع عن نيّته. لكنّه وإن كان كفّ من حينها عن التفكير في إنجاز تلك الجريمة، لم يستطع أن يتقبّل أنّه أب لفتاة، لأنثى. ظلّ الأمر يبدو له مثل وصمة، مثل خطر محدق. انتقل مع الطفلة للسّكن في مدينة أخرى، وبدأ يتعامل معها ويربيها على أنّها ولد. كانت أمّها سمّتها عُلا، فغيّر هو اسمها إلى علاء وأخذ يلقّنها كلّ التحذيرات والاحترازات التي ظنّها كافية لتكون علاءً حتّى في نظر نفسها. وبالطّبع تشرّبت الطفلة كلّ ذلك على أنّه هو الطبيعي. لم يكن مضى على انتقالهما للعيش بتلك المدينة الكثير من الوقت حين قرّر الرّجل اصطحاب ابنه إلى هنا، إلى هذه البلاد حيث عثر علاء على أصدقاء من أبناء جيرانه كنت أنا أقربهم إلى وجدانه وعاطفته. الحقيقة أنّ استمراره في تلك التمثيليّة الإجباريّة لم يكن صعبًا طوال مرحلة الطفولة، لكنّ الأمر غدا مربكًا منذ البلوغ، بل وأقرب للاستحالة.

قبل ذلك بفترة وجيزة، كان شعوره نحوي بدأ يحيّره. لقد أحبّني حدّ الوَلَه، لكنّ أباه التفت لتغيّرات البلوغ تلك منذ بدايتها وكثّف جهوده لضمان استمراريّة المسرحيّة. إنّ وجودهما برمّته بات رهين بقائه علاء وكبح هذه الصّحوة الطّارئة لعُلا. إن عرف أحد شيئًا حول الأمر ستكون نهايتهما معًا وخيمة. إنّه علاء، مضى الأب يؤكّد في انفعال مجنون، سيعيش ويموت على أنّه علاء. ولم يكن بوسعها سوى الرضوخ. مذّاك، في مرّات عديدة، ومع كثيرين، كانت تشعر بأنّ أمرها قد كُشف. لكنّ أحدًا لم يجرؤ على التّصريح بذلك. الجميع يهاب أباها، يرهبه. يزيد وحده تجاسر على مصارحتها. حدث ذلك بعد مقتل صديقتنا عائشة بأيّام. كانت في طريقها إلى صلاة الظّهر في المسجد حين فاجأها بأنّه يدرك ما هي عليه، مهدّدًا بأنّه سيكشف سرّها للجميع ما لم ترافقه عصرًا إلى النّهر. قرّرت أن تتصرّف بنفسها. لم تخبر أباها بشيء. استجابت ليزيد ورافقته إلى ضفة النّهر، إلى المكان الّذي كان اختاره ليشبع فيه رغبته منها. في الطّريق إلى هناك بقيت تتمنّى لو أنّني أنا الّذي كشفت سرّها عوضًا عن يزيد، لو أنّني أنا من يرغب بملامستها، لاستجابت وبفرح، لكن طالما وهو يزيد، الفتى المتعجرف الّذي لم تعتبره صديقها يومًا وإنّما مضت معه على الدّوام بدافعٍ من الاضطرار ولأنّه صديقي وعائشة، وطالما وهو ماض في ابتزازها

على هذا النّحو، فسيجد علاء بانتظاره لا عُلا. وما أن وصلا حتّى أفصح علاء ليزيد عن مفاجأة قاتلة: طعنتين نجلاوين في الصّدر أرديتاه على الفور. عادت من النّهر مذعورةً ولم تبلغ المنزل إلّا وقد اندسّت تحت جلدها حمّى رهيبة فشرعت تهذي محدّثةً أباها عن كلّ شيء، وهو ما اضطرّ الأب لأن يأخذها في رحلة علاجية دامت لأشهر، ولعلّي أتذكّر فترة الغياب تلك.

إنّها تعرف أنّ ما ارتكبته جريمة شنعاء، وأنّني ربّما لن أجد لها مسوّغًا، بل وقد أشعر نحوها الآن بشيء من الحقد لهذا السّبب، لكنّ من فعل ذلك هو علاء وكنوع من الدّفاع عن النّفس، أمّا من يجلس أمامي اللّحظة فعُلا، عُلا الّتي ستنذر نفسها منذ الآن لي وحسب.

حين قُتل أبوها قبل يومين في العاصمة كان شقيقاي هما اللّذين أتيا لها بجثمانه إلى المنزل، يرافقهما ضابط عرّف عن نفسه بقائد المجموعة، ورغم هول الفاجعة إلّا أنّ معرفتها من شقيقيّ والضّابط الّذي علمت أيضًا بأنّه كان زميلي في الدراسة والعمل، بأنّني عدت إلى البلدة، جعلها ذلك تفكّر بأنّ هذا الموت إنّما جاء كفاتحة للحياة الّتي تمنّتها دومًا معي. أخذت الجثمان وأتت به إلى البلدة، متدثّرةً بعلاء لا تزال، فقط ليتسنّى لها أن تراني وتخبرني بكلّ هذا.

إنّها تدرك أنّ ما أخبرتني به الآن سيبدو لي أقرب لقصّة ابتكرها خيال محلّق، لكنّ هذا هو ما حدث. تتفهّم صمتي واستغرابي، لكنّها ترجو أن أقول شيئًا. ربّما لم يكن عليها أن تخبرني بكلّ هذه التفاصيل دفعة واحدة. لكن يتعيّن عليّ أن أتفهّم موقفها أيضًا. تتوسّل إليّ أن أشعر بها. أليس أنّني عانيت في حياتي ظلمًا كثيرًا؟! فلأنظر لحياتها بعين التفهّم إذن، هي الّتي لم تقدر أن تعيش حقيقتها حتّى بعد سفرها مع أبيها إلى العاصمة.. هي الّتي ظلّت مجبرةً على اجتراع صيغة الوجود السّاحقة تلك دون أن تدري حتّى عن الأسباب، الأسباب البلهاء الّتي لم يفصح عنها أبوها إلّا قبل فترة وجيزة، يطلب منها السّماح قبل ذهابه إلى الحرب.

مهما يكن، فلأعلم أنّها ستتفهّم ردّة فعلي كيفما كانت. لكنّها ترجو أن أكون رحيمًا وعادلًا. لقد عانت دومًا أضعاف ما عانيت، هي الّتي لم يعد لها من أملٍ سواي.

تعرف أنّ هذه البيئة وهذا المجتمع، اللّذين لم أنسجم فيهما من قبل، في زمن السِّلم، صارا الآن، في زمن الحرب، أبعد ما يكونا مناسبَين لي لحياة هانئة. هي أيضًا لم يعد بمقدورها العيش هنا. فلنتزوّج إذن! فلنتزوّج ولنمض إلى بلاد أخرى، بلادها الأصليّة. هناك سنتمكّن من بناء حياة لا يكدّر صفوها أحد.

بقيت ذاهلًا. هذا الانهيار منه، أو منها لم أعد أدري، غصّني. شلّ دماغي فلم يمكنني التفكير. بقيت ملصقًا عينيّ في تينك العينين المترعتين بالتوسّل، إنّما في حالٍ من اللّا حضور، التبلّد الشّامل.

اقترب ذلك الوجه منّي، قليلًا إلى جواري. زحفت كفّ على ظهر كفّي فاعتراني حسّ كثيف بالتقزُّز. شعرت بحاجة للتقيؤ. أيّ تشوّهٍ منفلتٍ هذا! تشوّه فقد قدرته على الوقوف عند حدّ، بقي يوغل أكثر فأكثر ولا يزال يحاول المضيّ أبعد!

نفضت كفّه مجفلًا ومبتعدًا. مضيت نحو الباب وقد استحال رأسي وعاء من طنين متواصل. قفز مرتعدًا وثائرًا. قطع طريقي صارخًا: ألا تصدِّق؟! ألا تصدِّق؟! وفيما أنا ماض لأتجاوزه، وبلمح البصر، تحرّر من ثوبه، لأجدها عاريةً تمامًا، عُلا.. عُلا الّتي لن يمكنني النّظر إليها مطلقًا سوى على أنّها علاء، علاء الّذي لم يمكنني في مرحلة ساحقة من عمري النّظر إليه سوى باعتباره نوعًا من عُلا!

انفجرت غاضبًا، وثبت إلى الباب مزيحًا إيّاها من أمامي مثل قشّة وخرجت إلى اللّيل أعبّ هواءه البارد دون أن يقدر على إرواء روحي وتطبيبها.

قضيت اللّيل بطوله أتقلّب على فراشي، أحاول استيعاب الأمر. من استجراري أطروحة عُلا وجدت عشرات الثّغرات، لكنّ حنقي أخذ يخبو شيئًا فشيئًا وبدأت أحاول التعاطي مع كلّ ذلك بشيء من التفهّم. على كلّ حال، أقصى ما سيمكنني إزاءها الآن هو التفهّم، أمّا المضيّ معها على نحو ما ترغب فمحال.

مع بزوغ الصّباح مضيت إلى منزلها. لم تكن لديّ أيّة خطّة، أيّ كلامٍ، فقط هكذا بدافعٍ من التعاطف. لكنّني وجدت منزلًا خاويًا تمامًا.

كانت رحلت.

لم تستغرقني كثيرًا تلك الأحداث الغرائبيّة مع علاء، عفوًا عُلا. سرعان ما تجاوزتها. في الحرب تزدحم الأحداث وتتواتر ثمّ لا تلبث تزيح بعضها، جديدها يزيح قديمها، ومع الاستمراريّة ينشأ في وجدان الكائن نوع من الإلف تجاه الهول قد يصل به حد التبلّد.

في بداية الحرب كان لي تصوّر بأنّها، باعتبارها آلامًا محضة، ستؤدّي إلى تغييرٍ ما في ذهنيّة النّاس، في طريقة تفكيرهم ونظرتهم للحياة وللوجود عمومًا. ليس أنّني أحسّ أفضليّةً ما على الآخرين، وإنّما لاعتقادي بأنّنا جميعًا نعيش حياة مشوّهة وأنّ هذا الانفجار المدمّر نجم عن ذلك. حين كنت أفكّر على هذا النّحو، كانت تغدو للحرب في وجداني صورةً أقلّ تشوّهًا. لكن مع مرور الزّمن تبدّى لي أنّ الحرب لم تزد النّاس إلّا تصلبًّا على أفكارهم وإصرارًا على وضعيّاتهم فاعتراني لذلك يأس مرير.

كانت حربًا مخزية. كلّ حرب هي مخزية لا شكّ، لكنّ الخزي الأكبر في هذه أنّها أهليّة، أنّ الجميع فيها يقتل الجميع صادحًا باسم الله وأنّ أغلب تفاصيلها مضت تُخبر عن كونها مجرّد سلسلة من الثّارات المجنونة لا أكثر.

"الله أكبر"، كانت صرخة كلّ الأطراف، كلّ المتقاتلين. يصرخ بها أحدهم مستبسلًا في مناجزة أخيه الصارخ بدوره "الله أكبر"! الكلّ يقول إنّ الحقّ كلّ الحقّ في صفّه وإنّ الآخر محض معتدٍ أثيمٍ.

مع استمراريّة هذه المعمعة، ومن كلّ ذلك التخبّط، أمست فكرة العبث تغدو في وعيي أكثر أفكار تفسير الوجود معقوليّة.

يخبرنا الله في القرآن أنّ الغاية من خلق البشر هي عمارة الأرض، لكنّ البشر لم يكفوا يهدمونها، وتحت نظره. حتّى حين يقوم جيلٌ ما من عِرقٍ ما بإقامة حضارةٍ ما فإنّ جيلًا آخر، من نسل الجيل الباني أو من قوميّة أخرى، لا يلبث يأتي فيسوّي ذلك الإنجاز بالأرض، هكذا في دأب لا يعرف الكلال. ورغم ذلك لم يحدث أن اتّخذ الله قرارًا لإنهاء هذا العبث. في المحصّلة ومن استغراقي بهذه الأفكار كنت أخلص إلى أنّ الأرض كانت لتغدو أكثر جمالًا واستقرارًا لو أنّ الإله لم يتحفها بهذا الكائن الّذي أراده بانيًا ولم يكفّ يهدِم.

لم يكن في وسعي نكران وجود الله. إن كنت تظاهرت بذلك أحيانًا فإنّما على سبيل الحنق، كما سبق وأفصحت. وحتّى حين كان المنطق يبدو لي مسانِدًا لهذا النّكران يبقى في أعماقي يقين راسخ بأنّ الله موجود، أنّه يمثّل المطلق في كلّ شيء، القدرة المطلقة والعدل

المطلق والحريّة المطلقة، وحين لم أكن أجد في الحياة أقلّ قدر من تمثُّل هذه القيم كنت أعود فأقول لنفسي إنّها مدّخرة لنا لحياة أخرى. لم يكن لشيء أن يقتلع هذا اليقين من داخلي والّذي لطالما بدا لي متعلّقًا ببنائي العاطفيّ أكثر منه نتيجة عقلانيّة توصّلت إليها بالتحليل والاستدلال. لكنّني وأنا أشهد منذ أشهر هذا الهول، هذا التوحش الّذي يرتكبه أهالي البلد الواحد، المنتمون لدينٍ واحدٍ واللّاهجون بذكر ربٍّ واحد، ربي هذا المنغرز في أعماقي هذه الفترة مثل نصل، والّذي لا أراه يفعل شيئًا لإيقاف هذا الجنون بشكلٍ فوريٍّ وقاطعٍ ولو بفناءٍ جمعيٍّ مباغتٍ ورحيم، فقد جعلني ذلك أكثر ميلًا لأحد التصوّرات الفلسفيّة كنت قرأته في عكوفي بمكتبة عمّي، تصوّر يقول إنّ الله هو بالفعل من خلق الكون والكائنات ولكن ليترك كلّ شيء بعدها يسير دون تدخله.

امتلأت مقبرة البلدة وتبرّع أبي بقطعة أرض واسعة لتكون مقبرة جديدة. لم يعد ثمّة منزل لم يقتحمه حزن الفراق النّهائي لأحد أبنائه على الأقلّ. مضى عدد الأيتام والأرامل يتزايد على نحو صادم.

أخذت أمّي تزداد شحوبًا وبات جليًّا أنّها توشك على الهلاك. كانت تتوسّل أبي أن يرسل في طلب طفليها ليعودا. إن

حدث لهما مكروه فلن تسامحه أبدًا. وكان أبي يجيبها دومًا بالصّمت المطبق.

بدأت تتوافد أخبار من العاصمة بأنّ المعارك توشك تُحسَم هناك لصالح طائفة أبي، وأنّ أبا يزيد صار هو وجهها الأبرز. وكان شعور أبي بالغُبن إزاء صعود خصمه أكثر وضوحًا من شعوره بالفرح لانتصار طائفته. على أنّه لم يكفّ يرفد الجبهات بمقاتلين جدد.

بالنّسبة لي لم يعد مفاجئًا ذلك الصعود لأبي يزيد. إنّ رجلًا أمكنه احتمال أن يُتَّهَم بأنّه قاتل ابنه، متنازلًا بذلك عن البحث عن القاتل الحقيقيّ، وفقط ليتسنّى له استرداد صورته البرّاقة في ذهنيّة الأهالي، لهو قادر على المضيّ في واقعٍ مشوّهٍ ومعقّدٍ كهذا إلى حيث يريد.

كلّ الشّباب تقريبًا مضوا إلى الجبهات ولم يبق في البلدة من الرجال سوى كبار السنّ والقليل ممّن تخلّفوا كنت أنا أبرزهم. فأمّا كبار السنّ فكان لديهم ما يشغلهم: العكوف في المسجد واجترار الأدعية بالنّصر ليل نهار، وفي الوقت ما بين صلاة وأخرى وحين يكون السّأم نال من عزيمتهم ينهمكون في تحليل الوضع واستشراف المآل بطريقة يختلط فيها المعقول باللّا معقول، وبما

يتكفّل في الأخير بتوقّع النّصر القريب، وبالتّالي حيازة دفعة معنويّة تكفل اجترارهم الأدعية لأيّام تالية.

وأمّا تلك القلّة من الشّباب الّذين تخلّفوا عن القتال، فلم يكن تخلّفهم لموقفٍ أخلاقيٍّ ما أو كنوعٍ من ضمورٍ في الانتماء للطائفة، بل لافتقارهم الشجاعة اللّازمة. كانوا جبناء ولم تفلح خطب الحماسة من أبي وفريقه في دفعهم إلى خطوط النّار، لكنّهم مضوا أخيرًا في أداء بعض المهام اللّوجستيّة، إمداد المقاتلين والإسعافات الأوليّة للجرحى وترتيبات دفن الجثامين.

عنّي، بقيت أتحاشى كلّ ذلك بإصرار، وإلى أن كفّ أبي عن محاولاته تلك معي. سئم، يبدو. ولم يعد ثمّة عمل بمقدوري أضطلع به لتبرير وجودي ولأنشغل عن مراقبة تلك الطّاحونة الملعونة. في الحرب، إمّا أن تنهمك في القتال أو في عملٍ يؤجّجه ويؤدّي إليه، أو أن تجد نفسك فريسة البطالة والتقوّلات في مجتمعٍ صيّرته التعبئة القتاليّة في نظر نفسه شعبًا من الأبطال الميامين.

أيضًا لم يعد بمقدوري النّوم بشكلٍ جيّد. ما أن أغمض عينيّ حتّى يتلقّفني كابوس مريع. أجدني أسفل درب صاعدة بلا نهاية وفي حالٍ من الاضطرار للمضيّ فيها بأقصى حماسة ممكنة، حماسة الذعر لا التّوق. أنطلق بسرعة فائقة، لكنّني سرعان ما أتباطأ باطّراد وكأنّ أوزانًا تُضاف إلى قدميّ باستمرار. وكلّما تباطأت

ازددت ذعرًا. ثمّة خطر يقفوني، خطر كبير لا أجرؤ حتّى على الالتفات لأنظر فيه فأتبيّنه. ولم يكن ينقذني من ذلك الجحيم سوى استيقاظي. كم بتّ أخشى أن أنام!

دعني الآن أخبرك أيضًا عن وضعيّة النّساء في تلك الطّاحونة. ببداية الحرب أخضع الرجال نساءهم، كلّ في منزله بالطّبع، لتدريبات طفيفة تتعلّق باستخدام بعض الأسلحة الخفيفة، لا لينخرطن في الفعل القتاليّ ضمن التشكيلات وإنّما ليكنّ مستعدّات للدّفاع عن أنفسهنّ في حال بلغت الحرب هذه الأرياف واكتسحت البلدة طائفة مغايرة ما. ولأنّ البدايات من هذا النّوع تكون محكومة بالهياج لا العقل، كان الطّابع الغالب للنّساء أن يدفعن برجالهنّ، أزواجهنّ وإخوانهنّ وأبنائهنّ، بحماسٍ وبنوعٍ من الفخر. أغلبهنّ لم يبخلن على مقاتليهنّ بتوصياتٍ بأن لا يعودوا إلّا منتصرين أو شهداء، والتزموا هم تلك الوصايا أشدّ التزام. ظلّوا يعودون محض جثامين. وشيئًا فشيئًا أخذت الحرب تفقد بريقها وتتنصّل من وعودها وصرت تجد المرأة من أولئك تستقبل شهيدها بالعويل والحسرات، هي الّتي زوّدته بما كان ينقصه من معنويات للذّهاب لهذا المصير. لقد دفعنهم في البداية بتأثيرٍ من حمّى الهتافات ولأنّ الوعود ارتسمت أمامهنّ انتصارات مؤكّدة، وكانت احتمالات الفقد تبدو لحظتها ضئيلة. وأيضًا بتأثيرٍ من كون

الإنسان في حال قربه ممّن يحبّ لا يتصوّر ما سيكون للفراق النّهائيّ من وطأة، وأنّه لا يبدأ في استيعاب المأساة إلّا بعد مرور زمن من مضيّ المحبوب بدرب اللّا عودة.

بتأثيرٍ من ذلك الخواء القاسي، المكتظّ بالحزن والصّدمة، فإنّ نسبةً من النّساء، ممّن ترمّلن في أوج تفتّحهنّ، فقدن إيمانهنّ لا فقط بقيمة النّصر، أو الانتماء للطّائفة، وإنّما أيضًا بجدوى العفّة. وكان ثمّة أيضًا من مضين في ذلك بدافعٍ من الاحتياج وقد وجدن أنفسهنّ بغتةً أمّهات وأخوات أطفالٍ أكلت الحربُ معيليهم المغاوير دون أن يتكفّل المغاوير الأحياء بترميم الخلل النّاجم.

وأنّني كنت وحدي تقريبًا من الشّباب لم أنخرط في أيّ فعل يتّصل بالحرب، فإنّ ذلك أضاف لي في وعي النّاس، من تبقّى منهم في البلدة، وصمةً لا تقلّ عن تلك الغابرة مع أمّ عائشة. لكن مع مرور الزّمن وحدوث تلك التغيّرات في نظرة تلك النّسبة من النّساء للحرب، فإنّ تينك الوصمتين جعلتاني في نظرهنّ وسيلتهنّ النّاجعة للتعبير عن رفضهنّ، رفضهنّ للحرب وما أدّت إليه. كانت فضيحتي القديمة رسمت لي في وعيهنّ صورة العربيد الشهوانيّ المتحرّر من سطوة الانفضاح، أمّا تخلّفي عن الحرب فاعتبرنه في الأخير دلالة رجاحة وحسن قياس. أضف عوامل أخرى من قبيل وسامتي وأنّني ما زلت أعزب.

بدوري كنت أجدني بين أسبوعٍ وآخر، أنا الّذي دأبت في العاصمة لمدّة طويلة على ارتياد الحانات وامتطاء بائعات الهوى، في حاجة لأن أتيح لرغبتي نوعًا من إشباعٍ كان الإحباط النّاجم عن الشعور بالخواء يؤجّجها على الدّوام. أضحيت أقضي أغلب نهاراتي أذرع طرقات البلدة وأزقّتها، وما بين وقت وآخر، بشكل تلقائيّ وفقط بالإيماء، أعقد اتفاقًا مع إحداهنّ لزيارة ليليّة.

في كلّ مرّة، كنت أشعر من أعماقي بأنّني إنّما أضيف بقعة سوداء إلى ما بقي من بياض روحي. بالنّسبة لموقفي أمام الله في هذا الشّأن لم أشعر بأنّه ضعيف على نحو خاصّ، فمهما كان حجم التشوّه الّذي يضفيه سلوكي هذا على منظومة الالتزام المفروضة فهو غير ذي بال ضمن حالة التشوّه الكليّة المتمثّلة بالحرب، هذه المجزرة حيث الأخ يذبح أخاه معتقدًا أنّه بذلك إنّما يدنو من الله. كانت هذه المقارنة تمنحني نوعًا من التبرير. لكنّ ما كان يعود فيقضّ مضجعي هو استحضاري أولئك القتلى، ضحايا الحرب، الشهداء كما يصفونهم. بغضّ النّظر عن صوابيّة منطلقهم، إلّا أنّهم مضوا إلى حتوفهم متشبّعين بعقيدةٍ ما، وكنت من داخلي لا أملك إلّا أن أغبطهم على ذلك. كنت أحسدهم لأنّهم عاشوا حيواتهم متشرّبين يقينًا ما حدّ تضحيتهم بأرواحهم حين وجدوا الموقف يتطلّب ذلك. وهم حين ذهبوا لمصيرهم البائس ذاك لم يفكّروا

لحظةً في أنّ نساءهم قد يفرّطن في ذكراهم. هذا ما بقيت أستحضره، على نحو لا إراديّ، بعد كل مرّة. أمضي حينها أتخيّل ذلك القتيل، فادي مُعتَقَده، يبذل في قبره جهدًا مستحيلًا ليتمكّن من الخروج فيبصق في وجهي ثمّ يعود. على أنّ ذلك لم يكن يلغي تعاطفي مع تلك النّسوة أيضًا. ما أن كنت أختلي بإحداهنّ حتى تعتصرني مثل إسفنجة، تلتهمني كما لو ليس بدافعٍ من الاشتهاء بقدر ما عن رغبةٍ بالانتقام، الانتقام من الله ربّما، من الحرب والمجتمع والحياة. لكن بقدر جنونهنّ في الممارسة يأتي بعدها انهيارهنّ، وكثيرًا ما وجدتني أخرج من مخدع إحداهنّ مطرودًا، مذعورًا من عينين تبرقان غلًّا.

سقطت بلدة عمّي في قبضة التشكيلات القتاليّة لطائفة أبي. كنت توقّعت ذلك منذ بداية اشتعال المعارك في الأرياف، لكنّني بقيت أخدّر مخاوفي حيال ذلك كما اعتدت، أي بأن أشيح عنها لأشياء أخرى.

لدى مغادرتي بلدة عمّي قبل سنوات، وعدته بأنّني سأواظب على زيارته هو وزهرة، لكنّني، كما هي عادتي، نسيتهما على نحو شبه كليّ بعد زمن قصير من وصولي العاصمة.

حين بلغت الحرب ريفنا كنت أعرف أنّ المعارك لن تقف قبل أن تتمكّن طائفة أبي من إخضاع طائفة عمّي أو العكس، ورغم قلقي على عمّي وزهرة، إلّا أنّه لم يمكنني زيارتهما. سيُعتَبر ذلك منّي انخراطًا في الحرب لصالح طائفة عمّي، هذا فضلًا عن الاحتماليّة الكبيرة بأنّ قذيفةً ما قد تحصدني قبل وصولي إليهما.

لا شكّ أنّ زهرة تزوّجت منذ زمن، مضيت أحدّث نفسي، وربّما ليس برجل من بلدتها، ما يعني عدم تواجدها في بؤرة هذه المعركة، أمّا عمي فلا شكّ أنّه لا يزال في بلدته وأنّه من المشتركين في الحرب.

في معركة الريف هذه لم يقتصر دور أبي على التحشيد كما من قبل. مضى يقاتل بنفسه، ولطالما سحقني ذلك الاحتمال بأنّ أحدهما، عمّي أو أبي، قد يلقى مصرعه برصاصة يطلقها الآخر، شقيقه وتوأمه.

ما زلت أتذكّر أحد نقاشاتي مع عمّي ضمن محاولاتي تلك للتوصّل لسبب مغادرته بلدته وطائفته الأصليّتين. يومها سألته على نحو عامّ عن الأسباب الّتي تؤدّي إلى الحرب. ابتسم وأجابني باقتضاب: لأنّنا بشر ونعيش ضمن اشتراطات هذا الوجود. ثمّ سألني هل أعرف قصّة ابنَي آدم وأجبته بأنّني قرأت القرآن مرّات عديدة.

ابتسم وسألني عن رأيي: أيّهما كان على صواب؟!

"وهل ثمّة مقارنة بين قاتل ومقتول، جلاد وضحيّة؟!".

ضحك: "ألم تخبرني من قبل بأنّك لا تعتمد كتب التفاسير في قراءتك القرآن؟".

صَمَتُّ فاستأنف:

منذ انهماكك هنا في قراءة القصص والروايات، لا شكّ أنّك طوّرت قدرة على تحليل النّص القصصي. تعال الآن ودعنا نتناول قصّة ابنَي آدم انطلاقًا من معايير فنّ القصّة، بعيدًا عن الرؤى الوعظيّة المسبقة.

تحدّثنا القصّة عن بشرين عاديَّين. لم يكن أحدهما نبيًّا مثلًا فنُلقي عليه ثوب العصمة دون الآخر. قرّبا قربانًا. لم يُحدّد نوع القربان ولا غايته. ليست بالأمور الجوهريّة. تقبّل الله من هابيل ولم يتقبّل من قابيل. نتج عن ذلك أن ثار الثّاني على الأوّل، وهذا طبيعيّ، فالغيرة والحسد من أوضح مشاعر الإنسان. لكن أيمكن أن تأتي الغيرة دون حب؟ عنّي، لا أتصوّر ذلك. بالتّأكيد كان لدى الله سبب وجيه كي لا يتقبّل قربان قابيل، لكنّ غضب الأخير يشير إلى أنّه كان يحبّ الله كثيرًا. لو لم يكن كذلك لما جاش صدره بذلك الغيظ المميّز لعاطفة الغيور.

في موقف كهذا من الطبيعيّ أن يقول المرء شيئًا ينفِّس فيه عن غضبه، وهذا ما فعله قابيل. صرخ في شقيقه بأنّه سيقتله. هذا تصريح عدائيّ لا شك، لكنّ من ينتوي القتل يمضي إليه عادةً معتمدًا المباغتة، ذلك أنّ التّهديد من شأنه يدفع الخصم ليتّخذ احتياطاته ما يجعل من التنفيذ صعبًا، بل وربّما مستحيلًا.

كيف ردّ هابيل على ذلك التّهديد؟!

صرّح بأنّه سيستسلم! لن يدافع عن نفسه! وإن كان برّر ذلك بدايةً بالخوف من الله إلّا أنّه سرعان ما أعقب بإفصاح عن رغبة صادمة، أكّدها بالفعل "أريد": "إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النّار!".

الحقيقة يا بنيّ أنّني كلّما مررت بهذا الإفصاح لا أملك إلّا أن أشعر بالتعاطف مع قابيل، القاتل، أكثر من تعاطفي مع هابيل، القتيل. أوّلًا لا يمكنني أعزو استسلام المرء للأخطار الوجوديّة إلى أيّ فضيلة. وثانيًا فإنّ هابيل بهذا التصريح يفصح عن رغبة بالأذى لأخيه تتجاوز رغبة الثّاني في قتله.

أن يقتُل قابيل هابيل، فإنّه بذلك يدمّر وجوده الآنيّ، وجوده الدنيويّ، في حين هابيل أراد تدمير وجود قابيل في الحياة الأخرى، هناك حيث الأبديّة وقد تصوّر خصمه سيُخلّد في الجحيم!

لا أرمي هنا لتبرير جريمة قتل، وإنّما أخبرك عن فهمي لهذه القصّة. إنّ ما جعل قابيل يلوّح بالقتل هو نوع من الحقد، مثلما أنّ ما دفع هابيل للاستسلام هو أيضًا نوع من حقد متجاوز. للأوّل شخصيّته الرّعناء الواضحة والعفويّة فيما الثّاني مضى يغلّف نواياه السّاحقة بصيغ كلاميّة لا تُظهر فضيلة بقدر ما تكشف عن شخصيّة حقودة ومتأنّية. وإذا ما جئنا لتبرير استسلام هابيل بأنّه بدافعٍ من الخوف من الله، فلماذا لا نبرّر جنوح قابيل للقتل بأنّه نتيجة الغيرة، الغيرة باعتبارها أحد أعراض حبّه لله وألمه من عدم قبول قربانه؟!

هذا تصوّري يا بنيّ. والواقع أنّ الأغلب دومًا ما يمضي لقراءة هذه القصّة بنزوع وعظي تغذّيه أحكام مسبقة، أحكام تخرج

من قالب فكريّ بسيط يقوم على ثنائيات صارمة تفصلها حدود واضحة: الخير والشّر، الحقّ والضّلال، النّور والظّلام، ...، وهنا تغيب تلك الحقيقة بأنّ الإنسان، كلّ إنسان، يحوي في داخله شيئًا من هذا وشيئًا من ذاك. لا إنسان بوسعه يكون خيرًا محضًا أو شرًّا محضًا.

وكانت زهرة جاءت تدعونا إلى الغداء لكنّه أومأ لها بأن تنتظر واستطرد:

من هنا يمكنني أيضًا فهم الآية القرآنيّة: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما". إنّ أشنع أفعالنا البشريّة، أي فعل القتل، لا يلغي بالضّرورة إيماننا بالله، بالخير والعدالة والجمال!

ورغم هذا المنطق المتماسك من عمّي إلّا أنّ حديثه لم يبد لي في مجمله سوى تسويغ للحرب. استفزّني. اعترضت بقوّة واتّهمته بأنّه إنّما يتغيّا من كلّ ذلك أن يبّرر لنفسه اشتراكه في الحرب وقيامه بفعل القتل.

استقبل حِدّتي تلك بابتسامة عريضة وبتصريح بأنّه ليس نادمًا على شيء من ذلك، بل وأنّه سيشارك في أيّ حرب قد تنشب لاحقًا!

"شأنك!"، خاطبته بشيءٍ من العدائيّة: " أمّا عنّي، فلن أسمح باستدراجي إلى القتل لأيّ سبب". وأفصحت زهرة عن ذات الموقف.

"وإن نشبت الحرب ماذا ستفعل؟!".

"سأحاربها"، أجبت: "سأحاربها باعتزالها على الأقلّ، بأن لا أسمح لشيء أن يجرّني إلى طاحونتها".

ابتسم: "حين بدأت الحرب كانت لي مثل قناعتك هذه يا بنيّ، لذلك أتفهّمك الآن تمامًا، لكن صدّقني: الحرب أكثر مكرًا من أن تسمح لك بالتملّص منها". ثمّ تكدّرت ملامحه قليلًا وهو يضيف، منقّلًا بصره بيني وزهرة: "أتمنّى من كلّ قلبي أن لا تعيشا تجربة الحرب طوال عمريكما، لكن إن حدث وعشتماها فستدركان كم أنّني مصيب بقناعتي هذه".

سيل من مثل هذه الذكريات اكتسح وعيي في طريقي إلى بلدة عمّي. بقيت منقبضًا وشعرت بأنّ ذهابي الآن إلى هناك قد يمنع حدوث كارثة إضافيّة لعمّي وزهرة، في حال ما زالا حيّين. كان اجتيازي النّقاط العسكريّة على طول الطريق أمرًا شاقًّا رغم أنّه دومًا ما كان هناك فرد أو اثنان ممّن يعرفون أبي ويعملون تحت إمرته، وكانوا يعرفونني أيضًا من لقاءاتي العابرة بهم في مجيئهم إلى المنزل.

في وصولي لم أجد البلدة الجميلة الّتي قضيت فيها سنتين رائعتين من عمري، بل خرابة ممتدّة. بدا واضحًا أن السكان قد نزحوا، لا أحد يدري إلى أين، وها هم الظّافرون يمشّطون هذا الرّكام البائس، يتأكّدون من خلوّه التام من أيّ مقاومين يمكن أن يكونوا تخفّوا هنا أو هناك.

على خلاف جُلّ تفاصيل البلدة، لم يكن طال منزل عمّي إلّا القليل من الأذى. ربّما لموقعه البعيد نسبيًّا، ويبدو أنّ هذا بالذّات هو ما جعل هذه المجموعة المدجّجة من مقاتلي طائفة أبي تحوّطه بهذا القدر من التّأهّب والاحتياط. بدا لهم مثل لغز، وبقوا متردّدين في مداهمته. يخشون أن يكون مفخخًا.

قائد المجموعة أحد المقرّبين من أبي. أخبرته بأنّني أنا سأقتحم المنزل. نظر إليّ مستغربًا ولم ينبس. كنت مستعدًّا حتّى لمقاتلتهم إن أصرّوا على منعي. أخبرته بأنّ هذا منزل عمّي. صعقه ذلك. سألني كيف أنّ لي عمًّا يعيش هنا لدى الطّائفة الخصم وأجبت بأنّها قصّة طويلة سيكون بوسعه سماعها من أبي حين يلتقيه. رضخ بشيء من التبرّم.

مع ذلك، حين كسرت الباب الرئيسي وولجت، وجدت الرجل، قائد المجموعة، ورائي. لا بأس. بدا المنزل خاليًا، كلّ غرفه موصدة. مضى يكسّر الأبواب الواحد تلو الآخر، يجري

تفتيشًا سريعًا لكلّ غرفة. وجدت غرفة الكتب قائمة كما تركتها قبل سنوات. حين بلغ الرّجل غرفة عمّي السريّة منعته من كسر بابها وولوجها. أصرَّ فاحتدمت. صرخت فيه بأن يعتبرها غرفتي أنا. إن أصرّ على دخولها سيتعيّن عليه أن يمرّ عبر جثّتي. استدار ماضيًا ومدمدمًا بأنّه سيذهب ليعرض تصرّفي هذا على أبي.

ما أن غدوت وحدي حتّى زفرت ارتياحًا. كنت استغرقت جلّ طريقي إلى هنا، إلى جانب اجترار الذكريات، في محاولة تبديد تلك الصّورة القاسية الّتي يظهر فيها عمّي وزهرة جثّتين مضرّجتين، والّتي برع خيالي في أن يضفي عليها أكثر التشوّهات هولًا. الحمد لله. لم يحدث شيء من ذلك. سجدت لله شكرًا.

احترام خصوصيّة عمّي وأيضًا الفضول هما ما دفعاني لمناجزة قائد المجموعة القتاليّة ومنعه من ولوج هذه الغرفة. لم أُضِع وقتًا. كسرت بابها بحسّ من يكسر عموده الفقري، ودلفت.

الغرفة مكتّمة، لا ضوء فيها سوى نزر يسير يتسرّب من بابها المحطّم، ورغم ذلك بدا واضحًا فقرها في التفاصيل. تلبّكت كما في طفولتي لدى ولوجي غرفة أبي السريّة أوّل مرّة. المظهر المتقشّف نفسه. أرضيّة عارية إلّا من سجّادة صلاة مقتضبة، ومكتب خشبيّ بسيط، عثرت في درجه العلويّ على ناي العمّ. تحسّسته كمن يمسك شيئًا من تفاصيل الله. لم يمكنني تجريبه، النّفخ فيه. ليس

من الحكمة العبث بالمقدّسات. قمت وأزحت ستار النّافذة فتدفّق الضوء غزيرًا وغمر كلّ التفاصيل. باقي أدراج المكتب فارغة تمامًا. استغربت أنّ عمّي ترك نايه هنا. لِمَ لم يأخذه معه؟!

بقي فقط صندوق خشبيّ متوسّط الحجم، يستند إلى جدار أسفل الغرفة. كسرت القفل وقد خمّنت أنّ الصندوق يحوي قطع سلاح ما، لكنّني كنت مخطئًا. وجدته مقسّمًا في داخله مثل صفّ من الرفوف، كلّ قسم يحوي كميّة أوراق مختلفة، أوراق مسوّدة بخطّ عمّي الّذي أعرفه جيّدًا.

فكّرت بإضرام النّار في تلك الأوراق فورًا. ربّما تحوي بيانات سريّة من شأن اطّلاع تشكيلات طائفة أبي عليها إلحاق ضررٍ ما بعمّي، إن كان لا يزال حيًّا. لكنّ صوتًا من داخلي مضى يحُضّني على أن أقرأها أوّلًا. لو أنّها تحوي ذلك النّوع من الأسرار، ما كان عمّي ليتركها هنا هكذا مع إدراكه بأنّ الخصم قد يصل إليها بأيّة لحظة.

حملت الصندوق ووضعته على سطح المكتب. اجتذبت أوراق القسم الأوّل وجلست أقرأها. منذ تلك اللّحظة وإلى مساء اليوم التّالي، لم أفعل شيئًا سوى الاستغراق في قراءة كمٍّ كبيرٍ من تلك الصّفحات.

وجدت فيها كلّ شيء عن عمّي، لا فقط كلّ ما عاشه، بل وأيضًا كلّ ما تمنّى أن يعيشه ولم يقدر، ووجدت أمّي تشغل المساحة الأكبر من ذلك التاريخ المدوّن. سأخبرك من كلّ ذلك فقط بما يتّصل بهذه الإجابة.

كانت أمّ عائشة محقّة في ما يتعلّق بسبب مغادرة عمّي بلدتنا وانتمائه لطائفة بديلة. كان ردّ فعلٍ عاطفيٍّ على قرار جدّي لأمّي تزويج ابنته لأبي عوضًا عنه، هو الّذي أحبّها حدّ الوله. كان جدّي وجه الطّائفة الأبرز في منطقتنا_ عدّة بلدات إلى جانب بلدتنا_ وقد رأى في أبي قوّة الشكيمة اللّازمة لرجل حسبه سيشغل مكانته منذ أن يموت. ما علاقة الحسابات الطائفيّة بشأن كهذا؟! وهل عليه أن يخسر حبّ حياته فقط لأنّه مسالم وطيّب، لأن ليس لديه الشخصيّة الصداميّة الّتي لتوأمه؟! بهذين السؤالين قرّر عمّي الانتقال إلى هذه البلدة منتميًا لطائفة أهلها!

الحقيقة أنّ هذا صدمني تمامًا. لطالما بدا لي عمّي رصينًا ومن ذلك النّوع الّذي لا يمكنك بعد أن تتعرّف عليه أن تصدّق أنّه قد يتّخذ قرارات مصيريّة مثل هذه، قرارات يُفترض أن تُبنى على محاكمات فكريّة مطوّلة، فقط كردّ فعل عاطفيّ!

كان يحبّ عمّتي صفيّة كثيرًا. أراد أن يأخذها معه لكنّها أبت. رغم ذلك بقيا يلتقيان على فترات متباعدة، هناك على مقربة من جبال بلدتنا في رحلاتها الطّويلة للرّعي.

كم صُدِم حين بلغه خبر موتها! كان يومها انطلق لملاقاتها منذ الغبش في المكان الّذي اعتاداه، لكنّه لم يجد سوى إحدى رفيقاتها أخبرته بأنّ عزيزته صفيّة ماتت.

كان ثمة شرح مطوّل لتفاصيل يوم الجنازة ذاك، وقد كتبه عمّي بصيغة خطاب مؤثّر إلى فقيدته. حدّثها عنّي، عن لقائه بي وكيف أنّه حين احتضنني شعر كما لو يحتضن ابنه. وحين كان يَرِد أبي في تفصيلٍ ما، تبدو اللّغة حياديّة لا تكشف عن عاطفةٍ خاصّةٍ ما.

حين قرّر المغادرة إلى هذه البلدة اشترى منه أبي نصيبه من الأرض الموروثة ومن المنزل أيضًا. بذلك المبلغ الكبير تيسّر له الاستقرار هنا سريعًا. اشترى منزله هذا ومزرعته وابتدأ حياة جديدة. لكنّ المرء حين يغادر مكانًا ما لا يقدر أن يخلع قلبه هناك ويستبدله بقلب جديد. وعى هذا الدّرس منذ بداية استقراره هنا. تعيّن عليه أن يمعن في محاولات النسيان، أن يحرّض نفسه على ذلك ما استطاع. وفي يومٍ ما، انتبه لابنة واحدٍ من عمّال مزرعته أعجبه بنزاهته وعزّة نفسه. طلب أن يتزوّجها وهو ما كان. كانت نِعم

الزوجة لكنّه لم يقدر إلّا أن يمضي يبحث فيها عن أمّي، في أدقّ تفصيل منها. لم يستطع أن يمنحها الحب، فيما منحته هي قلبها وزهرة، وغادرت. توفيت بعد ساعات وحسب من مجيء زهرة، بسبب نزيف حاد. لم يكفّ ضميره يلسعه من حينها، ولم يعد يفكّر بأن يتزوّج ثانية. نذر حياته لذكرى حبّه لأمّي، ولتربية زهرة.

أحد أقسام الصندوق تتحدّث صفحاته عن نوعٍ من تنظيمٍ سريٍّ انخرط فيه عمّي هنا لدى طائفته الجديدة. أضرمت فيها النّار على الفور.

لقد تزوّجت زهرة منذ سنوات وانتقلت للعيش مع زوجها في العاصمة، وكانا يأتيان لزيارته دوريًا وإن على نحو متباعد.

صفحات القسم الأخير هي أكثر ما أدهشني واستفزّني. كلّها مؤرّخة بلياليِ الخميس، الكثير من ليالي الخميس. عاش عمّي فيها نوعًا من حياةٍ بديلة، حياةٍ من إفصاحات خياله. صمّم منزلًا في بيئةٍ تشبه الفردوس واختلى فيه مع أمّي. عاش معها هناك كلّ ما ضنّ عليه به الواقع.

من تصفّحي عالم عمّي المتخيّل ذاك رأيت كم أنّ جميعنا نتشابه، أنا، أمّ عائشة، علاء الذي كان عُلا، عمّي، ...، كلّنا عشنا ممزّقين بين حياتين، هذه الّتي بقينا نجترعها واقعًا، والأخرى الّتي أردناها دومًا وأبقتها الأقدار وضعفنا بمنأىً عنّا، حبيسة وجداننا

وأخيلتنا. لكنّ عمّي يختلف عنّا في أنّه لم يكتف مثلنا بأن يعيش حياته المرغوبة فقط كصوتٍ داخليٍ، وإنّما مضى خطوة أبعد: رسمها حروفًا، بدأبٍ واستمراريةٍ. كان فنّانًا.

كان ماجنًا أيضًا. أغلب لياليه تلك انتهت بمضاجعته أمّي على نحو لا يخلو من شذوذ. ورغم أنّني أشَحْتُ عن قراءة تلك المقاطع إلّا أنّني لم أقدر على تجنّب الأولى منها وقد باغتتني. قرأتها ودمي يفور. وكي لا أكرهه مضيت أعزو تلك البذاءة إلى الكبت وما يرافقه من وعيٍ بالاستحالة، ذلك الوعي السّاحق وهو يدفعنا للمبالغة في الأطر الّتي نختارها للتنفيس.

اللّافت أنّ ذلك الدّأب التدوينيّ انتهى في تأريخ سابق لبداية هذه الحرب بفترة وجيزة فقط، قبل نحو أسبوعين من أولى حوادث الاغتيالات الطّائفية المتبادلة.

أيكون عمّي غادر منزله منذ ذلك الحين؟! ثمّ لِمَ أبقى هنا تاريخه المفصّل هذا؟!

لم أكن قرأت أغلب تلك الصّفحات، لكنّني اكتفيت. مازجني شعور كثيف بالتضامن تجاه عمّي، وشعرت نحوه أيضًا بنوعٍ من تقديرٍ إضافيٍّ. لقد عاش حياته معذّبًا، مثل الجميع ربّما، لكنّه لم يكفّ يبحث عن سبل للمقاومة. مضيت أفكرّ في ذلك ناظرًا في ألسنة اللّهب وهي تلحس تلك الصّفحات وتحيلها رمادًا.

سحبت الدُّرج الّذي يحوي النّاي مرّةً ثانية. أخرجت النّاي لا أدري لماذا. تمعّنته قليلًا ثمّ أعدته إلى مكانه وخرجت لا فقط من تلك الغرفة، بل ومن المنزل برمّته. لم يعد بتلك الخرابة سوى القليل من أفراد التشكيلة القتاليّة لطائفة أبي. بالتّأكيد مضى الباقون نحو بلدات تالية. مضيت في طريق العودة بمشاعر مختلطة: فرحًا لأنّ عمّي نجا، كما بدا لي على الأقلّ، مدهوشًا ومستغربًا من تاريخه، ساخطًا لعجزي عن معرفة ما سيؤول إليه كلّ هذا، ...، ودون أن أدري أيّ خبر ساحق ينتظرني!

"كيف حدث ذلك؟!"، سألته مختنقًا.

"لعلّك تعرف أنّهما كانا، مع أبي صديقك علاء، ضمن واحدة من أولى المجموعات القتاليّة الّتي تمّ تشكيلها مع بداية الحرب، كنت أنا قائدها. منذ البداية مضيت أتحاشى تكليفهما بمهام صعبة، وذلك لمعرفتي بأنّهما مدنيّان لم يتلقّيا التدريب الكافي، لكنّهما بقيا يفاجئانني دومًا بحماستهما وبتطوّر قدراتهما القتاليّة. حاولت استغلال استشهاد أبي علاء بأن أمرتهما بمرافقة علاء حين وجدته مصرًّا على المجيء لدفن أبيه هنا. فكّرت بأنّ ذلك من شأنه يصرفهما عن الحرب. لكنّهما أبيا. على أنّ المعطيات أخذت تشير منذ أسابيع إلى أنّ معركة العاصمة تُحسَم لصالحنا. لم يبق من الخصم سوى بضع فلول انزاحت إلى ضواحي المدينة. مهمّة مطاردتها والقضاء عليها أُلقيت على الفصيل القتاليّ الّذي تندرج فيه مجموعتنا، والّذي يقوده الشيخ أبو يزيد. انطلقنا إلى هذه المهمّة قبل أيّام قليلة. حقّقنا انتصارًا رائعًا في اليومين الأوّلين، لكنّنا انكسرنا لاحقًا في محاولتنا اقتحام مجمّعٍ سكنيٍّ قالت المعلومات إنّ مجموعة من أخطر القيادات الخصم تحصّنت فيه. وضعنا خطّتنا على أساس أن نهاجم مع حلول الليل، ودون أن ننظر في

استعدادات الخصم. مضينا، وما أن توغّلنا قليلًا حتّى بدأنا نتساقط الواحد تلو الآخر بلا أدنى ضجيج. كانت مجموعة قناصين في انتظارنا. أخوك الحسين أوّل من سقط. لم يكن ثمّة مجال للمقاومة، حتّى الانسحاب لم ننجح فيه نحن القلّة الباقية إلا بشقّ الأنفس. انسحبنا مخلّفين وراءنا جثامين الشّهداء والجرحى. ويبدو أنّهم كانوا يتقصّدون أسر البعض عوضًا عن قتلهم. في انسحابنا كان أخوك الحسن آخر من رأيت، يزحف نحو جثّة توأمه الهامدة على مقربة".

وصل هذه النّقطة وتوقّف. كان وجهه يربدّ أكثر فأكثر مع مضيّه في الحديث، فيما أزداد غليانًا. نظر في عينيّ بملامح ملؤها الحسرة والخزي، ثمّ استأنف منكّسًا: "أعرف أيّها الزّميل أنّه من المخجل أنّني انسحبت تاركًا خلفي أغلب مجموعتي جثامين وجرحى، لكن لم يكن ثمّة من إمكانيّة لعمل أيّ شيء آخر. كان سقوطنا نحن الباقين مسألة وقت فقط. من حينها لم أنم لحظة. كنت أعلم أنّك رفضت الانخراط في الحرب. أخبرني أبي بالحوار الّذي دار بينكما بهذا الشّأن. فكّرت بأن آتي إليك إلى هنا لأتأكّد، فإن كنت لا تزال على موقفك ولم تذهب بعدُ لأيٍّ من الجبهات فستأتي لنقتصّ من قتلة أخيك، ولتحرير أخيك الآخر، فهناك احتماليّة كبيرة بأنّه لا يزال حيًّا".

كنت وصلت البلدة للتوّ، وقد وجدته مع أبي في استقبالي لدى منزلنا، ليغرقني من فوره بهذه الدوّامة الجحيميّة قبل أن أخرج من دوّامة عمّي. احتفظ أبي بالصّمت طوال حديث الرّجل. بدا وجهه خارطة حزن. سألته هل عرفت أمّي فهزّ رأسه بأن نعم. استدرت عنهما ومضيت خطوات قليلة إلى غرفة أمّي. كانت ثمّة بعض النّسوة إلى جوارها، ينجزن طقسهنّ الدّائم والوحيد في حالٍ كهذه: ينشجن ويلقين بجمل التصبير.

لم أجدها باكية. لم تكن تتحدّث أيضًا. ولن أكون مبالغًا إن قلت إنّها لم تكن موجودة. بدت عيناها مثل نافذتين يتسرّب منهما وجودها الواقعيّ إلى وجودٍ آخر من خواءٍ خالص. جمّدتني نظرتها الخاوية تلك، نظرة الصّدمة القصوى، وعرفت أنّ أمّي قد اندلقت من تينك العينين الفارغتين إلى حيث لن تعود أبدًا.

اقتربت منها، وجهي مقابل وجهها على بعد إنشات وحسب، يقطع درب بؤبؤيها، ولكن دونما تأثير. لم تكن تراني. احتضنتها، احتضنت جذع شجرة مجتثّة. ناديتها مرارًا وما من جواب. عضّت الغصّة حنجرتي. بكيت طويلًا بلا طائل، كما هي عادة البكاء.

كان عمّي مصيبًا إذن. الحرب أكثر مكرًا من أن تسمح لك باجتنابها طويلًا. ستظلّ تناور عزيمتك في الرّفض إلى أن تعثر على فرصةٍ لهدمها وهدمك.

قمت من جوار أمّي وخرجت دون أن أجرؤ على النّظر في وجهها بعد. وجدت أبي وضيفنا لا يزالان حيث تركتهما، جوار سور الحوش. حملق فيّ أبي يقرأ تعابير وجهي. لأوّل مرة أرى النّدم واضحًا في عينيه. منذ أشهر والحرب تراكم عليه معطيات خسارته. كانت طائفته تنتصر، فيما ظلّ هو يُهزم. تخطّاه أبو يزيد ونال المكانة الّتي بقي يتطلّع إليها هو. القيادة العليا للطّائفة فضّلت عليه خصمه اللّدود الّذي لم يبذل ربع مجهوده. أخذته إلى العاصمة وضمّته إلى مجلسها الأعلى، في حين بقي هو مطمورًا في بلدته وما جاورها، يرسل إلى الأصقاع من الأهالي من يتكفّلون بتوكيد مكانة خصمه، ودون أن يقدر على شيء! وماذا عن ولديه، ذينك التّوأمين البهيّين؟! أين ذهب حلمه بأن يضعهما في سدّة قيادة الطّائفة؟! لم يعد له شيء من ذلك. امتصّت الحرب كلّ ما لديه، دون أن تنجز له وعدًا من وعودها.

وجدتني محتارًا إزاءه، ساخطًا من جهةٍ ومشفقًا من أخرى.

قلعت عينيّ من ملامحه وغرستهما بوجه الضّيف: "هيّا بنا".

"إلى أين؟!"، نبس أبي بصوت مشرّخ.

"إلى حيث يجب أن نذهب. ربّما سيكون بوسعنا إنقاذ الحسن على الأقلّ، ولعلّ ذلك يمنح أمّي بعض السلوان".

"سنذهب في الغد. سآتي معكما أيضًا وسنصطحب عددًا من المقاتلين".

أردت أن أعترض لكنّ الضّيف سانده أيضًا.

"حسنًا. ليكن"، ومضيت لا أدري إلى أين.

كعادتها في حالٍ كهذه مضت بي خطاي إلى ضفّة النّهر. كان المغرب يوشك على الهبوط. استلقيت على سجّاد من الحشائش وأطلقت عينيّ في سماءٍ ذهبيّة.

من صميمي كنت موقنًا بأنّ معركتي هذه لإنقاذ شقيقي الجريح، وإن أمكن لتخليص جثمان توأمه، هي الأخيرة مثلما أنّها الأولى. ليس أنّني سأتمكّن بعدها من العودة لدأبي السّابق في اعتزال الحرب، وإنّما لأنّه لن يتسنّى لي الخروج منها حيًّا. أثق بقدراتي القتاليّة، أنا المبرّز في كليّة الحرب، لكنّ حسًّا باقتراب المنيّة غمرني مثل يقينٍ مؤكّد. ليكن، أرجو فقط أن يتكلّل الأمر بتحرير شقيقي. ربّما سيعيد ذلك الحياة لأمّي، لعينيها.

استشرَت المرارة في فمي، في حلقي وإلى كلّ ذرّة من كياني. طفقت أتحدّث إلى الله، الله الّذي لم يمكنني مطلقًا أن أتثبّت من وجوده على نحوٍ حاسم، ولا من لا وجوده، الله الّذي بقي مواربًا

في آفاقي على الدّوام، الله الّذي أمضيت سنوات عمري أطارده، أبحث عنه، في السّماء وفي الأرض، في العزلة وفي الاجتماع، في الجمال وفي الحبّ، في الفنّ وفي السّلام، ...، في كلّ معنىً وجدته لائقًا به، والّذي لم يكفّ مع ذلك يتملّص.

"لنبلوَكم؟!"، نبست مبتسمًا في أسىً. هذه المفردة الموجزة هي كلّ ما حضر في ذهني من القرآن لحظتها.

"خلقتنا لتبتلينا إذن؟!"، تساءلت غاصًّا بحيرتي.

حسنًا يا ربّ، يا من أخشى أن أغادر دنياي ناكرًا وجودك ثمّ أُفاجأ بعدها بأنّك موجود، إن كنت موجودًا، إن كنت تسمعني الآن وإن كنت خلقتنا بالفعل لتبتلينا، فلتستمع منّي هذه الكلمات: لقد كان ابتلاؤك ساحقًا، ساحقًا على نحوٍ لم أرَ فيه رحمتك بقدر ما رأيت جبروتك. ألقيتني في وجودٍ أشبه ببركان، أنا النّملة البائسة، طالبًا منّي أن أقاوم، أن لا أحترق! أخبرك الآن يا ربّ، إن كان المعنى تاه عنّي في حياتي هذه، فليس لأنّني لم أبذل ما يكفي من الجهد، وإنّما لأنّك جعلته أخفى من أن أطاله.

مضيت أجترّ هذا الموّال شاعرًا بالانسحاق، إلى أن بلغني أذان المغرب فقمت عائدًا، إنّما إلى المسجد. لم أغادره حتّى وقد صلّيت العشاء. لم أرد أن أرى أبي إلى أن نمضي صباحًا مع مقاتليه. أيضًا لم يعد بمقدوري النّظر في ملامح أمّي.

لم أنم حتّى الفجر. بعد الصّلاة انتحى بي أبي جانبًا وأخبرني بأنّ مقاتليه سيكونون موجودين في حلول الضّحى. أخبرته بأنّني سأنام هنا، وأن يبعث بأحدهم ليوقظني حين يجيؤون.

استلقيت على سجّاد المسجد مهدودًا.

كعادته مؤخّرًا امتدّ أمامي ذلك الدّرب السّاحق، الصّاعد بلا هوادة. ثمّ ها هو الخطر يحدّق بي من الخلف. انطلقت مذعورًا، وشيئًا فشيئًا أخذت خُطاي تثّاقل إلى أن تيبّست قدماي تمامًا. ثمّ ها هو الخطر يتداعى عليّ من كلّ صوب وقد بلغ قلبي حنجرتي من فرط الذعر. إنّه يقترب.. يقترب. ويلي! سيفترسني الآن!

صحوت مغسولًا بالعَرَق.

الضّحى يملأ الوجود بسطوعه. استغربت أنّ أحدًا لم يأت ليوقظني إلى هذه السّاعة. قمت إلى أحد حمامات المسجد، فتحت الصّنبور على وسعه ودسست رأسي. أزال عنّي ذلك بقايا النّوم. اجتزت صرح المسجد متململًا مع ذلك، وما أن بلغت الدّرب حتّى تناهى إليّ صراخ وحشيّ، صوت بدا من ألمه وانسحاقه وكأنّه لمخلوقٍ غير بشريٍّ.

"واحسيناااه، واحسناااه! واحسيناااه، واحسناااه!".

ما الّذي يحدث؟!

هبطت الدّرب سريعًا وانعطفت صوب الصّوت.

وجدت المنزل محاطًا بجمهرة من النّاس: كبار السنّ أولئك، بعض الشّباب الّذين بقوا لمهامٍ لوجستيّة، ونساء كثيرات.. يتفرّجون المخلوق الواقف في السّطح يسلخ حنجرته بصرختين هائلتين مكرورتين: واحسيناااااه، واحسنااااه!

إنّها أمّي، هناك، عارية كليًّا، ترسل صرخاتها في كلّ اتجاه، كاشطةً بأظفارها لحم وجهها الّذي بات عجينة مدميّة.

لوهلةٍ بقيت أرقب هذه الفنتازيا كما لو لا تعنيني في شيء، أتلقّى مثل جميع الموجودين تلك الصّرخات الجحيميّة وأسمع حوقلاتهم بين الصّرخة والثانية. صحوت من ذهولي وانطلقت مثل سهم. لا أعرف كيف أمكن لقدميّ حملي بتلك السرعة، لكنّني بالكاد بلغت ركن السور حتّى دوّى صوت طلقٍ ناريٍّ من خلفي، أعقبه صوت كتيم لارتطام كتلةٍ ما على أرضيّة الحوش.

التفتّ مخبولًا لأجد ذراع أبي لا تزال معلّقة في الهواء، تمسك بالمسدس تشير فوهته نحو سطح المنزل، إلى جانبه الضّيف وحولهما حرس أبي الخاص وبعض المقاتلين.

على نحوٍ فوريٍّ، قبل أن يتوفّر وقت للتفكير، وقبل أن أنتبه حتّى بأنّني قد اتخذت ذلك القرار، وثبت إلى أحد الشّباب المتفرجين، امتشقت مسدّسه من حزامه ومضيت أفرغ خزنته على جسد أبي. لا أعرف كم رصاصةً تمكّنت من إطلاقها، لكنّني

شاهدت تمامًا رقصته تلك فيما الرصاص يثقّبه، ثمّ في ثوانٍ لم أعد أسمع سوى الطنين. تكفّل حرس أبي بجعلي أؤدّي الرّقصة ذاتها الّتي جرّعتها إيّاه.

الشّمس آخر ما رأيت. شعرت بالاختناق. كلّما أمعنت في محاولة التنفّس أحسّ أنفاسي لا تروي ظمئي للهواء، كما لو أنّها تتسرب من ثقوبي الطّارئة هذه. كلّ ذلك في زمن ضئيل أعقبه شعور بلذّة هادئة، لذّة بالكاد أتذكّرها، ثمّ تلك الإغماءة الخالية من الأحلام والكوابيس، والّتي استيقظت منها لأجدني في هذا الوجود الآخر، وأجدك تبادرني بنبرة اتّهام واضحة: من ربّك؟

وهذا، لعمرك، سؤال كبير!

مأرب 17 فبراير 2021م